بسم الله الرحمن الرحيم

قال عز شأنه

وَلَقَدْ آتيناك سَبعًا مِن المَثانِي وَالقُرآنَ العَظِيم

قرآن كريم

القرآن العظيم

هدايته وإعجازه
في
أقوال المفسرين

بقلم

محمد الصادق عرجون

عميد كلية أصول الدين

بجامعة الأزهر



١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

لصاحبها

حسين محمد امبابي المنياوي

٩ شارع الصنادقية ميدان الأزهر

١٩٦٦

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق
١٢ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

إفتتـــاح

اللهم إنى أحمدك – استزادة لفضلك – حمداً يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك .

وأحمدك حمد عبد مغمور بعطائك ، مشمول بحلمك ، يحيا برحمتك ، ويعيش فى ظل عفوك .

وأحمدك – استدراراً لرضاك – قياما بحق شكرك ، فلك الحمد فى الأولى ، ولك الحمد فى الآخرى .

وأحمدك حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك .

وأسألك غيث فواضلك ، واستمطرك سحائب جودك ، فإنك واسع الفضل ، عظيم الجود ، غامر الإحسان .

سبحانك أعطيت تفضلا من غير سؤال ، ومننت بأجزل النوال ، وطلبت منا تعطفاً أن نتعبد إليك بذل السؤال ، أداء لحق عظمتك وكبريائك ، ياكبير ، ياأكبر ، يامتكبر ، ياعظيم ، ياأعظم ، سبحانك أنت. أنت ، لايعلم قدرك غيرك ، ولا يحيط بوصفك الواصفون ، ولا يحصى ثناء عليك المثنون من الأنبياء والمرسلين وصادقى عبادك المؤمنين ، فأنت فى جلالك كما أثنيت على نفسك ، ومنتهى علم الخلائق بك ، الوقوف على شدة العجز عن الاقتحام إلى حمى عظمتك .

فلك الحمد على نعمة التوفيق للاستظلال بوارف ظل أكمل كتبك المنزلة لهداية خلقك من خزائن حكمتك ، ومكنون علمك ، الذى أنزلته على خاتم أنبيائك قرآناً عربياً لقوم يعقلون .

ذلك الكتاب لاريب ، أحكمت آياته ، ثم فصلت بالهدى والحق ، بشيراً ونذيرا ، وسراجا منيرا ، يهدى للتى هى أقوم ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، ومن عانده أكبه الله ، هو الحق الذى أضاء الله به الوجود بعـــد ما وقبت ظلمات الجهالة ، واستحكمت أسداف الضلالة .

هو الصراط المستقيم الذى من حاد عنه هوى فى متائه الخسران المبين .

وهو حبل الله المتين ، من استمسك به فقد اعتصم بالعروة الوثقى ، ومن تنكب طريقه ارتكس وغوى ، ومن تأمه فاز فى الآخرة والدنيا .

وأسألك اللهم أن تصلى على عبدك ونبيك خاتم رسلك محمد المجتبى من خير أرومات البشرية الحسنى ، أفضل وأزكى ماصليت على أحد من خلقك ، وأن تزكينا بالصلاة عليه أفضل مازكيت أحداً من أمته بالصلاة عليه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

كما أسألك أن تشمل برضوانك الأكبر الغر الميامين ، آله الطاهرين ، واصحابه المخلصين ، فتدخلهم فى ساحة صلواتك عليه ، فهم الذين عقلوا عنه رسالة ربه ، فقها فى الدين ، وغوصاً فى بحار اليقين ، وعروجا فى معارج العلوم والمعارف حتى بلغوا ذروة الفضائل ، على بصيرة من أمرهم ، وهدى من ربهم ، بأوفى مابلغت إليه الطاقة البشرية فى حياتهم ومجتمعهم ، وراثة

عن النبوة الخاتمة ، متفاوتين فى درجات معارفهم تفاوت درجات قرب أرواحهم من إشراق روحه الأشرف الأكرم ، وتفاوت أقدارهم فيما منح الله كلا منهم من الاستعداد للقبس من مشكاة أنواره .

يقول أحد كبار تلاميذهم (مسروق بن الأجدع) : شاممت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم أشبه بالإخاذ ، تكفى الإخاذة الراكب ، وتكفى الإخاذة الراكبين ، وتكفى الإخاذة الفئام من الناس ، والإخاذة لو صدر عنها الناس جميعاً لكفتهم [١] .

وهم رضوان الله عليهم – الذين بلغوا عنه ما ورثهم من الهدى والعلم لم يكتموا الناس شيئاً مما علموا من الدين ، ولكن الناس اختلفوا فى مقادير أنصبائهم من مواريث العلم والمعرفة على قدر ما اتسعت له خزائن عقولهم ، وإشراق أرواحهم ، وعلى قدر ما أعطاهم الله من أسباب تنمية تلك المواريث فى ظل أطوار المجتمع الإسلامى الجياش بالأفكار ومحصول العقول .

فهداهم الله وهدى بهم ، وكانوا هم الأصل الذى يرجع إليه فى الأصول والنبع الذى تتفجر منه عيون الإيمان واليقين ، ضرب الله لهم مثلا فى كتابه المبين (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) [٢] .

أرغم الله بهم أنوف شانئيهم ، ورفع بحبهم شأن محبيهم الذين اتبعوهم بإيمان فألحقهم الله بهم ، فهم درجة الأبوة الروحية للمؤمنين ، والمؤمنون

---

(١) الإخاذ : جمع ، مفرده إخاذة ، وهى غدير الماء ، وقوله شاممت : معناه قاربت للتعرف والاختبار ، والفئام : الجماعة من الناس .

(٢) خاتمة سورة الفتح .

ذريتهم فى مواليد الإيمان والهدى . (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) .

أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك الذين أخرج الله بهم الناس من الظلمات إلى النور ، فلهم فى عنق كل مؤمن ومؤمنة منة ، ولهم بكل نعمة بمسلم ومسلمة أجر وفضل يستوجب الشكر مقروناً بالحمد وفاء لحق النعمة.

ونسأله سبحانه أن يلحقنا بالمستظلين بظل لوائهم ، يوم يكون لواء الحمد بيد إمامهم ، إمام المتقين ، وسيد المرسلين ، خاتم النبيين محمد الأمين صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين .

* * *

أما بعـــد :

فهذا بحث حول تفسير القرآن الحكيم ، قصدت به إلى عرض صورة مجملة للمنهج الذى نهجه أئمتنا من السلف والخلف فى كتبهم ومؤلفاتهم فى هذا الفن من علوم الإسلام ومعارفه ، مع بيان أنهم رحمهم الله بذلوا أقصى جهدهم فى بلوغ الغاية التى مكنتهم من الوصول إليها علومهم ومعارفهم وأحوال مجتمعاتهم ، وخصائص بيئاتهم التى عاشوا فيها ، واستلهموا أعرافها .

وهم بهذا الجهد قد أدوا واجبهم فى حدود طاقتهم ، وما ملكت أيديهم من وسائل الدراسة والبحث نحو تفسير كتاب الله العربى المبين ، الذى أنزله نوراً وهدى للناس ، ودستوراً مرشداً إلى الحق ، وداعياً إلى الرشد ، وموصلا إلى سعادة الدارين (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من

عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)[١] .

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[٢] .

بيد أن هذا الجهد البالغ – على ضخامة آثاره فى المكتبة الإسلامية ، وكثرة ماتحوى مما ألف من التفاسير المتفاوتة بين الايجاز الموحى ، والإطناب المسهب – كان مبعث تساؤل يتردد اليوم فى أنفس الكثيرين من المسلمين عامتهم وخاصتهم ، ويتحدث به بعضهم إلى بعض ، يقولون :

هل فسر القرآن ؟

كان هذا التساؤل نتيجة لما يشعرون به من الفراغ العريض العميق فى أرض الحياة الفكرية عند المسلمين فى هذا العصر المتوثب بطفرات العقل الإنسانى ، والمفعم بحصائل تجارب العلم والمعرفة التى كانت أثراً من آثار « التطور » الفكرى فى العالم ، ونشوء مذاهب جديدة فى الفلسفة والعقائد ، وظهور آراء حديثة فى ميادين العلوم والمعارف ، وقيام أوضاع مبتدعة فى عالم السياسة ونظم الحكم فى الأمم والشعوب ، وتأسيس قواعد جديدة فى مجالات الاقتصاد الدولى والمعاملات القومية ، وغير ذلك مما شهده ويشهده عصرنا الحاضر ، وعالمنا الحديث ، والذى يوشك أن

---

(١) سورة الشورى آيتى (٥٢ ، ٥٣)

(٢) سورة المائدة آيتى (١٥ ، ١٦) .

تشهد أضعافه العصور المقبلة ، وقد كان لهذا كله آثاره الخطيرة على سلوك الإنسان أفراداً وجماعات ، وأمماً وشعوباً ، فضعضع القيم الروحية والفضائل الخلقية ، ومال بموازين الحياة إلى جوانب تستمد سلطانها من الغرائز الحيوانية والقوى المادية التي تكفر بالروح وتجحد وجودها .

هـــذا الفراغ فى حياة المسلمين الفكرية يحسه كل مسلم يهتم بأمر المسلمين ، ويشغله حالهم .

ولا سيما هـذه الكثرة من المثقفين ثقافة غير إسلامية ، أو ثقافة إسلامية فى أصولها ، ولكنها مأخوذة عن غير المسلمين ، مصبوغة بصبغة غير إسلامية ، وقد تدخلها عناصر غير إسلامية ، تزوّر على الإسلام ، ويعجز جهل آخذيها بالاسلام عن تمييزها .

هؤلاء المثقفون هم الذين يعيشون جوا من الإيمان الموروث بالمحاكاة والتقليد ، وتأثير البيئة الخاصة فى البيت ، والمدرسة ، والمعهد ، والجامعة وتأثير البيئة العامة فى مجتمعات المسلمين فى شتى أقطار الوطن الإسلامى .

ذلك التساؤل الذى قد يبدو غريباً بادىء الرأى ، أوقاسيا متنكراً لآثار أئمة الإسلام وعلمائه الأعلام من السلف والخلف — وهى ملء السمع والبصر — هوكما يصوره الحائرون المتعطشون إلى تعرف الحقائق الإسلامية عن طريق العلم من مثقفى عصرنا الذين بقيت فيهم بقية باهتة من الحرص على الإسلام ، تربطهم بالقرآن العظيم من وجهة نظرهم التقليدية الموروثة ، باعتبار أن القرآن هو الأصل الأول لهـذا الدين الذى لا تزال البيئات والمجتمعات الإسلامية تقدسه قداسة لم يقتحم حرمها بعنف الجحود والتنكر ، أو بشراسة النقد الغامز ، أو الطعن الهامز لنصوصه وآياته إلا من كفّار عنيد ، أو ملحد جهول بليد :

هل فسر القرآن ؟ هو تساؤل غريب ، بيد أنه حق ، والحق فى أكثر أحواله يخافص الناس فى مشرقه غريبا . وطوبى للغرباء مع الحق .

وموضع الغرابة فى هـذا التساؤل أنه يجافى الواقع المنظور بعين البصر لأول وهلة ، ويتنافى مع ما تعالم شهرة عند جماهير المسلمين وغيرهم قديماً وحديثا ، وما يحدثنا به التاريخ ، وما تحويه المكتبات العامة والخاصة فى شرق الأرض وغربها من بلاد الإسلام وغيرها من فهارس الكتب الإسلامية التى يحار العقل فى تقدير الزمن الذى ألفت فيه المؤلفات والدواوين فى فن التفسير مما يدل دلالة قاطعة على أن القرآن العظيم لقى من العناية فى تفسيره ما لم يقع لكتاب سواه فى حياة العلم والمعرفة .

ذلك لأن القرآن العظيم كان فى نظر المسلمين الأولين هو النبع الأصيل الذى فاضت منه روافد جميع علوم الإسلام ومعارف العربية منذ شرفها الله لسانا لدستوره الإلهى وكتابه العربى المبين .

ومن ثم كان القرآن العظيم هو أصل تلك العلوم والمعارف ، ونبعة فنونها التى انشعبت منه ، وكانت هى فروعه الوارفة الظلال ، وكان هو دوحتها العظمى ، منه تفرعت أغصانها ، وعنه انبثقت أفنانها ، وبلقاحه أينعت ثمارها ، وبتوجيهه وإرشاده سطعت فى شمس المعقول والمنقول شمس هدايتها .

وليس هذا بمستنكر ، والمتسائلون عن تفسير القرآن لا ينكرون ذلك ، ولا يدفعون فى صدره ، وإنما يقصدون بتساؤلهم إلى القول بأن هذه الكتب التى ألفت فى تفسير القرآن ، وأفعمت بها خزائن المكتبات الإسلامية وغيرها ، هل هى نهاية ما يمكن أن يفهم من معانى آيات القرآن ، ولم يبق وراء ذلك معنى تستطيع العقول العالمة أن تصل إليه ، وليس فى الإمكان أبدع

عما كان، وقد استوعب الأوائل معانى القرآن .ولم يتركوا للأواخر شيئا ؟ !

وهل فى هذه التفاسير غُنية كاملة لمن يتطلب هداية القرآن الكريم باعتباره خاتم الكتب السماوية ، وليس لله بعده كتاب ينزله من السماء ، وباعتباره دستور شريعة هى خاتمة الشرائع الإلهية ، وليس لله بعدها شريعة يوحى بها إلى أحد من البشر ؟ .

وهكذا من خصائصه التى تحتم خلود سلطانه الدستورى ، ويجب أن تحقق للإنسانية هداية تدفعها إلى آفاق من الرقى المتواصل فى مجالات العلم والمعرفة ، وتفتح أمام العقل الإنسانى منافذ الولوج إلى مسارب الأسرار الكونية التى أودعها الله آياته الأنفسية والآفاقية استدلالا على بالغ حكمته ، وباهر قدرته ، وتعطى للحياة قدرات تزيد من توثبها فى طرائق الحضارة المهذبة ، وتستثير بها طاقات من الدوافع المعنوية والقوى العقلية والروحية ، تتخذ منها طرائق للفضائل يقوم على دعائمها السلوك التربوى فى الأفراد والجماعات .

هداية القرآن

وهداية القرآن هى عماد إعجازه المعنوى الأصيل ، الذى لا يختلف عصراً عن عصر ، ولا جيلا عن جيل ، ولا بيئة عن بيئة ، وهذا اللون من الاعجاز هو مناط الحجة البالغة القائمة مع خلود هذا الكتاب الحكيم ، على أنه تنزيل من الحكيم الحميد .

وما الإعجاز الأسلوبى فى براعة البيان العربى الذى اختص به القرآن الكريم إلا ثوب من نسج الحكمة العليا للقرآن كلام الله الأزلى وجودا وقع به أكمل الاتساق والتناسب بين المعنى والأسلوب .

فالإعجاز المعنوى الأصيل فى القرآن هو إعجاز الهداية ، وهو وصف ذاتى للقرآن ، لا ينفك عنه ولا يفارقه أينما كان مع أجناس البشرية .

والإعجاز الأسلوبى هو إعجاز الفوق البيانى المعبر عن المعنى المقصود أتم تعبير ، والمؤدى إلى تصوير الهداية أكمل تصوير ، وهو إعجاز يستند إلى عمل الحكمة العليا فى إبلاغ الهداية إلى مدارك المخلوقين ، وهو إعجاز ذاتى للقرآن الكريم كلام الله الأزلى تنزلا .

وقد تستطيع العقول أن تلمح فرقا بين الإعجاز الأزلى وجوداً والإعجاز الأزلى تنزلا — ولا بد من فرق — وهو الفرق بين طريقة الخلود العام الشامل فى التحدى لكافة العقلاء ، عرباً كانوا أم غير عرب بل أناسىّ وغير أناسىّ كما نطق به الكتاب المحكم فى مواجهة التحدى العام الشامل ، وبين طريقة اعتبار المواجهة الأولى فى تثبيت الحجة العامة بأسلوب الخاصة.

وبذلك تبقى حجية القرآن منذ تنزلها هداية عامة فى نسج من البراعة البلاغية . والفوق البيانى فى الصياغة العربية قائمة تتحدى مدارك الإنسانية وقدراتها وطاقاتها متظاهرة بقوى وقدرات وطاقات من يستطيع مظاهرتها من عوالم الأرض والسماء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (١) .

وهداية القرآن وإعجازه فى ضوء التصوير الإجمالى مودعة على التحقيق فى كل آية من آياته ، غير أن استقصاء موضوعات هذه الهداية وأفرادها وجزئياتها ومسائلها أمر تنفد دونه الأعمار ، وتقصر عن الوفاء به حياة الناس فى هذه الدنيا محدودة الأمد .

وإلى هذا المدى من العجز الطبيعى دون تحد بما فيه من الإعجاز يشير قول الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) (٢) . وقوله عز شأنه : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت

---

(١) سورة الاسراء آية (٨٨) . (٢) سورة الكهف آية (١٠٩) .

كلمات الله إن الله عزيز حكيم)[١] لأن المفهوم للمعقول من كلمات الله إنما هو ضروب الهداية وأنواعها المختلفة باختلاف حال الخلائق ، وتقدير ما يصلحهم مقدراً بميزان الحكمة العليا ، واستهداف ما يقيم حياتهم على نظام من الترابط بوشائج تلك الهداية الإلهية .

وإذا كانت قدرات المخلوقين وطاقاتهم قاصرة عن الإحاطة بضروب الهداية القرآنية أفراداً وجزئيات فإنها لن تقصر عن رسم صورة لها فى أصول تندرج تحتها سائر الأفراد والجزئيات بقدر الطاقة البشرية ، وقد يفوت السابق من الباحثين ما يدركه اللاحق ، ويكمل بعض البحوث بعضها الآخر ، لكنها تبقى غير قادرة على الوصول إلى حد يمكن معه أن يقال إنه يجمع جزئيات الهداية القرآنية .

والقرآن العظيم لا يزال فى هدايته جديدا ، وسيظل كذلك أبدا ، يجد فيه كل جيل ، وكل عصر ، معاقد هدايته بكل ما جمع الله له من خصائص عقلية وروحية واجتماعية .

* * *

والذى وفقنا الله تعالى إلى تمثله من أصول الهداية القرآنية التى يجب أن يقوم على دعائمها تفسيره فى كل زمان ومكان نجمله فى عشرة أصول يتضح منها أن ما خلفه لنا أئمة التفسير ، وأعلام تأويل الكتاب المبين — على ما فيه من عمق فى دراسة بعض المسائل ، وتفصيل مسهب فى بعض الموضوعات التى أوحت بها البيئة العامة والخاصة لم يستوف البحث فى جميع جوانب الهداية القرآنية ، بل ظل بعضها مكنوناً لم تنفلق عنه أصدافه ، وإنما مُسّ مساً رفيقاً بما يشبه الرمز أحيانا . والإشارة المعبرة أحياناً أخرى ، وقد جاء التطور الفكرى ، والتقدم العلمى بكثير من الأفكار والآراء ،

---

(١) سورة لقمان آية (٢٧) .

والمذاهب الجديدة التى لم يكن للسابقين عهد بها ، وهى بآثارها الخطيرة على أفكار المثقفين من الناشئة وعقائدهم وسلوكهم فى الحياة تتطلب بإلحاح محرج من دارسى القرآن ، والقيمين على بيان هدايته ، وإقامة منار حجيته أن يبينوا موقف القرآن فى تفسيره من هذه الأفكار والآراء والمذاهب ، وأن يبينوا مهيعه فى الهداية بما يكشف عن وفائه بحاجة البشرية وفاء لا يعوزها إلى غيره من طرائق الهدايات .

أصول الهداية فى القرآن

الأصل الأول — العقيدة

وهداية القرآن العظيم فى العقيدة تستهدف تحقيق أقصى ما تصبو إليه البشرية من الحقائق الموصلة إلى مقطع الحق فى تأسيس الإيمان بمعرفة جلال الله تعالى ، وعظيم سلطانه ، وباهر قدرته وبالغ حكمته ، ومحكم تدبيره ، وسعة رحمته ، وجزيل إحسانه ، وتفرده بنعوت الربوبية ، وصفات الألوهية ، معرفة تطمئن بها القلوب ، وتؤمن بها العقول ، إيماناً لا يخالجه ريب الشبهة ، ولا يعوزه قاهر البرهان ، وإشراق الحجة إشراقا يضىء الفطرة الإنسانية بنور الرضا واليقين .

وهذا اللون من أساليب هداية القرآن العظيم مبثوث فى آياته الكونية التى سيقت فى مواضعها من سوره لبيان عظمة الوجود الإلهى . وعظمة الكون العالمى ، بما يدل على تفرده تعالى بقدرة الإبداع والخلق ، ويدل على وحدانية ربوبيته ، ووحدانية إلهيته ، ويدل على محكم تدبيره .

وقد بلغ بعض الناظرين فى تفسير القرآن بهذه الآيات الكونية التى نزلت لتدعيم العقيدة إلى أكثر من خمسمائة آية ، ولهذه الآيات الكونية الكريمة خصيصة تغلب فى أسلوبها ، ذلك أنها تسوق الوصف الإلهى قضية

إخبار عن واقع قطعى الوقوع ، ثم تلحقه بذكر البرهان على صدق هذا الوقوع من الآيات الكونية التى إذا تأملها الناظرون فاؤا منها إلى ظل ظليل من دوحة الإيمان ، يتبوؤن بها ذروة اليقين .

فالقرآن الكريم لا يضع الوجود الإلهى موضع الاحتمال ، واستدلاله بالآيات الكونية لا يقصد إلى نفى طرف فى قضية ذات طرفين ليثبت الطرف الآخر ، وإنما يقصد إلى توجيه المدارك العقلية والمشاعر الوجدانية وجهة مطالعة المشاهد فى واقعها المشهود بالعقل والوجدان فى عالم الإبداع وحكمة التدبير .

ومن شواهد ذلك قول الله تبارك وتعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)(١) .

قال القاضى عبد الجبار — أحد أئمة المعتزلة — فى تفسير هذه الآية : إن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع ، فهو تعالى خص هذه الأشياء الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعما على المكلفين على أوفر حظ ونصيب ، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع فى القلوب وأشد تأثيراً فى الخواطر(٢) .

وموضع اللطف فى هذا التفسير توفيق القاضى عبد الجبار إلى التنبيه على مناط الهداية فى تقريب الاستدلال إلى النفوس ، وترغيبها فى النظر فى

---

(١) سورة البقرة آيتى ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) من كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن .

مجالاته وآثاره ، ولكنه بقى فى حاجة إلى بسط يضع كل نعمة من هذه النعم فى مكانها من حياة الناس .

وقد تولى أمر هذا البسط الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره ، فأطال النفس جداً ، وذهب فيه مذاهب ، وذكر كلاماً فى بحوث فلكية مما قاله القدامى من الفلاسفة ، وبحوث فى كل أمر من هذه الأمور الثمانية بأسلوب الفلسفة القديمة واصطلاحاتها مما ذهب معه رواء الاستدلال وبهاء الأنعام بهذه النعم العظام لكنه رحمه الله كانت تندُّ منه لمعات من بروق الحقيقة الفطرية فى ثنايا الحديث سرعان ما تغطيها سحائب المنهج الفلسفى المعقد باصطلاحاته ونظرياته ، وقد ملأ بذلك نحواً من ثلاثين صفحة من قطع الطبع الكبير .

غير أنه فى نهاية المطاف قال:(واعلم أن النعم على قسمين ، نعم دينية ، ونعم دنيوية ، وهذه الأمور الثمانية التى عدها الله تعالى نعم دنيوية فى الظاهر ، فإذا تفكر العاقل فيها ، واستدل بها على معرفة الصانع صارت نعما دينية ، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج ، فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سـلامة العقول وانفتاح بصر الباطن ، ثم ساق كلمة القاضى عبد الجبار التى ذكرناها بعد معركة معه فى أمور لا حاجة إليها فى تفسير القرآن وإنما موضعها فى غير هذا الفن من كتب الجدل فى العقائد وما يتصل بها ، وهذا اللون من التفكير اللصيق بالفلسفة والجدل مع الفرق الإسلامية ، ولاسيما طوائف الاعتزال منها ، من خصائص تفسير الإمام الرازى التى صرفت تفسير القرآن عن بيان هدايته وإعجازه فى جانبيه المعنوى والأسلوبى ، وقد كانت عند هذا الإمام طاقة من التفكير فى الغوص على استخراج دقائق المعـانى التى تعتمد عليها عناصر

الهداية ، لو خلص إليها لأدى للقرآن الكريم واجبه فى بيان هدايته ، ولقدم للمسلمين كثيراً مما يحتاجون إليه من التوجيه إلى مواطن الهداية فى القرآن العظيم .

وسيأتى موضع الاشارة إلى لوامع التفكير فى تفسيره عند الحديث عن تأثير العلوم المستحدثة والمنقولة فى التفسير .

ويجرى على سنن هاتين الآيتين نظائرهما فى الاستدلال على قاهر قدرة الله تعالى ، وباهر إرادته وبالغ حكمته ، وعظيم سلطانه فى تدبير ملكه ونظام ملكوته ، وتفرده بالإبداع والخلق الإنشائى مثل قوله عز شأنه : (ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(١) .

وقوله جل جلاله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن فى اختلاف الليل والنهار لآيات لقوم يتقون)(٢) .

وقوله عز شأنه (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار

---

(١) سورة آل عمران آيات (١٨٩، ١٩٠ ، ١٩١) .
(٢) سورة يونس آيات (٣، ٤، ٥ ، ٦) .

وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون)(١) .

ومن هذا النوع ضرب يتخذ طريق البرهنة متنزلا مع شبه المنحرفين لتقريرها ، ثم إبطالها بقاطع البرهان العقلى ، ومن شواهده قوله جل وعلا (وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون)(٢) .

وقوله تبارك اسمه (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)(٣) .

وقوله تعالت أسماؤه (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ، ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة

---

(١) سورة الجاثية آيات (٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) . (٢) سورة الأنبياء آيات (١٩ ، ٢٠ ، ٢١) . (٣) سورة المؤمنون آيات (٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١) .

فأولئك فى العذاب محضرون . فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) (١) .

واستقصاء هذا النوع من آيات الهداية فى العقيدة على شمولها لكافة عناصرها من الإيمان بالله تعالى وكمالاته التى لا تتناهى فى صفاته الحسنى ، والإيمان بالغيب على عمومه ، والإيمان بالبعث والنشور وسائر ما يقع فى اليوم الآخر ، لو أريد لكان يجب نقل أكثر آيات القرآن العظيم من المصحف الكريم .

---

(١) سورة الروم آيات (من ١١ — ٢٨).

الأصل الثانى

التشريعات التعبدية

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية ، هو كما رسمه القرآن العظيم ، وسيلة الاتصال بالله تعالى ، فيقصد به إلى بيان وتحقيق أفضل وأكمل مارسمت الشرائع السماوية من هداية تصل المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب صلة تعبد وزلفى ، تتقبل العقول أوضاعها التعبدية ، وصورها الحسية ، وتدرك آثارها الروحية كما بينها النبي صلى الله عليه وسلم فى أقواله ، وأفعاله ، وتقريراته ، وعماد هذا النوع من الهداية إفراد الله بالعبادة ، وطرح العبد نفسه على أعتاب التذلل المطلق لجلال الله مالك الملك والملكوت وقد أرشد الله عباده إلى ذلك بعد أن وصف نفسه بأكمل صفات الجلال والجمال فقال (إياك نعبد وإياك نستعين[١]) قطعاً لعلائق النفس بالوجود ، وربطها بالموجود الأول ، وهذا مقام خاصة المؤمنين ، لا يقبل منهم غيره (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)[٢] أما غيرهم من سائر الناس فلهم الأمر المقرون بدوافع الاستجابة (ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)[٣] .

وقد ذكر القرآن العظيم نموذجاً مزدوجاً للمعنيين خوطب به نموذج الإنسانية الأعلى سيد الوجود محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه فقال (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص)[٤] وهذا نسق عجيب فى التناسب بين نموذج الخطاب والمخاطب فى سمو التكليف . وكأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الصورة العليا لأمته ، فخوطب خطابها بجميع أطرافها ، فهو صلى الله عليه وسلم ببشريته مأمور

(١) فاتحة الكتاب آية (٤)
(٢) سورة البينة آية (٥)
(٣) سورة البقرة آية (٢١)
(٤) سورة الزمر آيتى (٢ ، ٣)

معها بمطلق العبادة لله الواحد الأحد ، ليكون قدوتها فى كمال البشرية ، وهو صلى الله عليه وسلم فى دوام ترقيانه فى مدارج الكمال النبوى الخاتم مخصوص بكونه نموذج المثل الأعلى لإخلاص العبادة ، (فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[1] (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى [2]) (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وفى خاص الحديث النبوى الأكرم (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) .

هذا الأصل فى الهداية القرآنيـــة يشمل جميع أنواع العبادات التى شرعها الله ، يتعبد بها عباده ، وتتمثل بصورة واضحة فى أركان الإسلام الأربعة بعد عمودها الأصيل الذى تدور حوله العقيدة فى الأصل الأول ، وهذه العبادات هى وسيلة التقرب إلى الله تعالى وبؤرة إشراقها الصلاة لأنها أجل مقامات التعبد لله تعالى وموطن مناجاته وذكره ، يقول ربنا تبارك (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) [3] وقد تكرر ذكر الصلاة فى القرآن عشرات المرات ، تذكر فى أكثرها مقرونة بالزكاة، وتفرد عنها فى بعض المواضع .

أما الزكاة فهو ركن الإسلام التعاونى الذى يتمثل فيه تكافل أفراد الأمة تكافلا قانونياً بالحق الواجب ، قبل التبرع والإحسان ، فإذا لم يف الحق بالحاجة وجب تحريك الضمير بهمز الترغيب والترهيب ، فإن كانت الحاجة للأمة فى مصلحتها العامة التى تتعلق بمجموعها وجب أن يتدخل القانون ، والضرورات تقدر بقدرها ، والزكاة أخت الصلاة فى الذكر ، وقرينتها فى تطهير النفس الإنسانية من رذيلتى الكبر والشح ، وهما معقد الرذائل الفردية والاجتماعية .

---

(١) سورة الحجر آية (٩٩)
(٢) سورة طه آية (١٣٠)
(٣) سورة انعام آية (١٦٣)
(٤) سورة طه آية (١٤)

أما الصوم فهو الركن الجامع بين تهذيب النفس وتطهيرها من رجس الغرائز المادية ، وبين مقام الزلفى إلى الله بعمل لا تتحرك فيه الجوارح ، وإنما يتحرك فيه القلب والضمير ، فهو نية خالصة ، وسكون إلى الله فى مقام مراقبته وحده ، وهذا هو سر قول الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم حاكياً عن رب العزة تبارك وتعالى (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى).

ومن عجيب الهداية القرآنية فى هذا الركن الخفى المعالم أنه لم يتكرر ذكره فى القرآن العظيم كما تكرر ذكر غيره من الأركان ، وكأن ذلك لأن أعمال السر الخفية تعتمد على الإشارة والرمز ، والصوم صمت والصمت صوم ، وأم آيات الصوم آيته التى هى آيته (ياأيها الذين آمنو كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[١] فحكمة هذه العبادة التخلق بالتقوى والتقوى عمل القلب والضمير .

أما الحج فهو محفل المسلمين الذى دعا الله إلى إقامته ليجمع شمل القادرين منهم جمعاً تعبدياً ، فهو الركن الاجتماعى التهذيبى ، يتعارف المسلمون فى ساحته ، ويتبادلون فيه الرأى والفكرة ، ويسمعون رأى الإمام أو الأئمة ، ويطالعون أفكار القادة والزعماء ، وفتاوى الأعلام من العلماء فى مهمات شئون الإسلام والمسلمين ، ولا يشغلهم هذا عن التعبد لله ، يؤدون الشعائر فى هذا الركن إيماناً وتسليما ، لا يسألون لماذا ؟ ولكنهم يسألون كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصنعون كما صنع أفلا تسمع إلى قول الفاروق عمر رضى الله عنه وهو يخاطب الأمة فى مواجهة الحجر الأسود (إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك) والعبادة روحها وإخلاصها التعبد . فإذا خلت كانت جسما بغير روح ، وشبحاً بغير عقل ،

---

(١) سورة البقرة آية (١٨٣)

ومن هنا جاء تعبير القرآن العظيم عن الهداية فى هذا الركن إيجاباً وسلباً ، وطلباً وجحداً ، فقال عز اسمه : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين)[1] ففى الإيجاب نص بالتحتيم فى دائرة الشرط تيسيراً وتقديراً لمن يصلح للوفود للمحفل الأعظم من كل فج عميق ، وفى السلب تكفير للجاحدين استهتاراً واستكباراً ، وكفر دون كفر ، وإيمان فوق إيمان .

والقرآن العظيم نزلت فيه سورة بعنوان هـذا الركن العظيم ، سميت باسمه (سورة الحج) وفيها عرض لحكمة هذ الركن الاجتماعية ، وعرض لحكمته التعبدية ، وجاءت الآيات فى بيان الحكمتين نسقا يراوح بينهما كأنهمامزج من فكرة واحـدة ، يقول الله عز شأنه (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهـر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا

---

(١) سورة آل عمران آية (٩٧) .

اسم الله على ما رزقهم من بهيمه الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين)[1] .

فأنت ترى الآيات بدأت ببيان مكانة البيت الحرام ومقامه فى حياة المسلمين ، وأنه بيتهم جميعاً جعله الله لعامتهم وخاصتهم ، يستوى فى الحق فيه جميع من شهده ، وحضر فيه ، وقدم إليه من أبعد البعد فى أرض الله ، أو أقرب القرب من حرم الله ، وأن صد أى مسلم عنه ، وعن الوصول إليه كالصد عن سبيل الله لا يجترئ عليه إلا كفور أو مفسد فى الأرض محارب لله ولرسوله والمؤمنين .

ثم توعد الله من ينحرف عن طريق الحق وهو فى بيت الله وحرمه بقول أو فعل ، أو تدبير خبيث ، بأليم العذاب بعد أن سجل عليه الإلحاد والظلم مما يوجب على الأمة كلها أن تأخذ على يديه وتطهر حرم الله من رجسه ، وإفساده .

ثم بين ربنا تبارك وتعالى رفيع قدر هذا البيت المكرم بأنه تولى بنفسه تعريف خليله إبراهيم أبى الأنبياء عليهم السلام مكان البيت ، وأنه اختاره من بين سائر بقاع الأرض ليكون ندئ المسلمين فى أعظم محافلهم ، وأمر خليله ـ بعد تحقيق إخلاص الايمان بأسلوب الاستفزاز والتنفير من الإبقاء على آثار الوثنية الجاهلية فى صورة النهى عن الإشراك بالله متعلقاً بأعم

---

(١) سورة الحج من آية (٢٥ إلى ٣٧) .

ما يفيد العموم — أن يعدّ هذا البيت طاهراً مطهراً للطائفين به ، والقائمين فيه للصلاة والمناجاة والدعاء والذكر ، والركع السجود تذللا لجلال الله فى ساحات بيته ، ثم أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام أن يدعو الناس كل الناس وفوداً إلى بيت الله ، ووعده بالبلاغ واستجابة من كان أهلا لشهود هذا المحفل الإسلامى العظيم ، حيثما كانوا من أرض الله ، ليشهدوا فيه ومن حوله منافع لهم فى دينهم بتذلل التعبد ، وتسليم الاستسلام وفى دنياهم من تبادل التجارات ، ونصب موائد الجود والإكرام ، ومناقشة الأفكار ، ومعرفة الأحوال ، قياماً بشكر الله على واسع فضله وعظيم إنعامه ، ومشاركة للبائسين والمتعرضين لطلب الإحسان من عطاء الله ، رب الجميع ، الذى أعطى من شاء لحكمته ، ومنع من شاء بحكمته ، طارحين أنفسهم على عتبات الذل والإخلاص لله تعالى ، لأن من حرم الإخلاص فقد راءى وسمّع ، والرياء والتسميع شرك خفى ، ومن يشرك بالله فقد أهلك نفسه هلاكا لا يرجى معه فلاح ، ومثله فى محسوس الأمور مثل من سقط من أعلا مكان إلى أسفل هوة ، فتخطفه الطير الكواسر ، فتمزقت أوصاله ، وتفرقت أعضاؤه ، وتناثرت أشـــلاؤه ، أو عصفت به الريح حتى ألقته فى المهالك السحيقة التى لا نجاة منها .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى نعمه على عباده وزوار بيته الذين استضافهم فى رحاب جوده ، وأكرمهم بضيافته ليؤكد طلب الشكر بدوام التذلل والخشوع وتسليم الانقياد وتذلل العبودية بعد أن ذكرهم بالأساس الذى قامت عليه هذه الضيافة ، وهو توحيد الربوبية والألوهية .

ثم ذكر ربنا عز اسمه أهل الإيمان بخواص نعوتهم من الأخبات لجلال الله ، والتواضع لعباد الله والخشوع لتهذيب النفس من غوائل الكبرياء ، فقلوبهم وجلة خائفة ، يستشعرون الخشية من الله إذا ذكر الله على مسمع

منهم ، ويصبرون على بلاء الله ، ويقيمون الصلاة استجابة لأمر الله ، وينفقون من رزق الله على خلق الله .

ثم عادت الآيات إلى ذكر النعم تذكيراً بالبائسين المحرومين ، ليكون الإحسان إليهم صورة من الشكر عملا بالجوارح وتخشعاً بالقلب ، ثم ختم الله الحديث عن بيته وزواره ببيان ما هو حقه ووصفه من الغنى المطلق عن الخلق وأعمالهم ، وأنه إنما أنعم عليهم متفضلا بمحض الجود والإكرام ، فهو القيوم الغنى الحميد ، يرضى من عباده التقوى وإخلاص العبودية ، قياماً بحق شكره على ما هداهم ووفقهم بإحسانه وإنعامه .

ثم عجل لهم البشرى بإحسانهم واستجابتهم لنداء خليله عليه السلام ، وبذل طاقتهم فى الوصـــول إلى دار ضيافته طائفين ببيته ، فكانوا أهلا للبشرى بتسجيل الإحسان .

* * *

لم نقصد بهذه الإشارات فى هذا العرض قصد التفسير ، وإنما أردنا التنبيه إلى ما اشتملت عليه آيات هذا الركن الاجتماعى التعبدى من أركان الإسلام من منازل الهداية القرآنية ، لتكون هذه الإشارات منزعاً لبيان الإعجاز البيانى فى أسلوب أداء هذه المنازل .

وحسب الناظر فى هذا المقام أن يردد نظر بصيرته فى هذا التصوير البيانى ليعرف مكانة الهداية القرآنية فى الإعجاز بنوعيه المعنوى والأسلوبى حتى يكون ذلك البيان نمطاً فى تفسير القرآن العظيم .

الأصل الثالث

سياسة الخلق

هذا النوع من الهداية يستهدف تحقيق أبلغ ما تتطلع إليه النفوس البشرية من نُظُم فى تدبير شئون الحياة ، على أوضاع متناسقة من سياسة الخلق سياسة تعتمد على العدل ، والرحمة ، وتستشعر الإخاء والمحبة بين أبناء الإنسانية ، ليعيشوا فى ظل هذا الإخاء إخوة متحابين ، ينعمون بنعمة الأمن والسلام .

ومنابع هذا الأصل فى الهداية القرآنية تفيض من معين العناية الإلهية بتوطيد دعائم العدل بين أبناء البشرية كلها أينما كانوا ، وحيثما حلوا ، وكيفما اعتقدوا ، وعلى أى لون خلقوا ، ومن أى جنس تنوعوا ، وعن أى أصل تفرعوا .

ولهذا نجد القرآن الكريم يطلب العدل بين الناس — كل الناس — فى الحكم ، حقاً واجباً ، يقول الله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[1] فقد قرن الله جل شأنه بين أداء الأمانة ، والحكم بين الناس عامة بالعدل فى الأمر بهما وطلبهما طلباً موكداً .

والأمانة كل مايؤتمن عليه الإنسان من أمور الدين والدنيا ، فهى شاملة لجميع التكاليف الشرعية ، وتعم أمانة الإنسان مع ربه وخالقه ، وأمانته مع نفسه ، وأمانته مع أسرته وعشيرته ، وأمانته مع مجتمعه العام والخاص ، وأمانته مع سائر الناس والأشياء التي ترتبط به ارتباط حق وواجب ، أو ارتباط ألفة ورحمة .

---

(١) سورة النساء آية (٥٨) .

أما العدل فهو الميزان الإلهى الذى توزن به علائق الحياة والأحياء ، والمقصود به إقامة موازين الحقوق والواجبات بين كافة الخلق ، لكل فرد ، ولكل جماعة وطائفة ، ولكل شعب وأمة ، فهو فى هداية القرآن حق لكل إنسان كائنا من كان على حسب مكانته من الحياة ، وموضعه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، لا يغض من حقه فيه جنس أو لون ، أو لغة ، أو عقيدة ، أو مذهب ونحلة ، أو فكرة فى الحياة .

فكل إنسان — فى هداية القرآن — مأخوذ بالعدل ، وكل إنسان له فى العدل حقوق وعليه واجبات ، يحيا فى مجتمعه بهذه الحقوق ، ويتعامل مع الحياة بالقيام بتلك الواجبات .

ومن هنا كان العدل أصلا من أصول الهداية القرآنية ، وأساسا للترابط بين كل مترابطين بسبب من أسباب الحياة .

ولهذا جاء أسلوب الهداية القرآنية فى الأمر به ، والترغيب فيه متنوعاً وسلك به البيان القرآنى مسلكا فذا يجعله دعامة للتشريع الإسلامى، لا يقوم إلا بها ، ولا تصلح الحياة إلا به .

ففى الآية السابقة نجد القرآن الحكيم يقرن العدل بالأمانة ، وفى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)[1] نجده يقرن العدل بأمرين فى جانب الطلب والترغيب ، ويقرنه بثلاثة أمور فى جانب النهى والتنفير .

فأما الأمران اللذان قرن بهما فى جانب الطلب والترغيب :

فأولهما ـ الإحسان، والمراد به المراقبة لله فى كمال العمل وإتقانه وإخلاص النية فيه ، وقصد إيصال النفع به إلى عموم الخلق بقدر طاقة من يعمل .

---

(١) سورة النحل آية (٩٠) .

وثانيهما — إيتاء ذوى القربى ، والمقصود به صلة الرحم فى أعم مراتبها، وخص القرابة بالذكر لأن حقهم أوكد وأقرب ، والقرآن ينبه بالأهم على المهم .

وأما الأمور الثلاثة التى قرن بها العدل فى جانب النهى والتنفير ، فهى :

أولا — الفحشاء ، ويراد بها كل عمل بذىء تشمئز منه النفوس الكريمة ، وتستفحشه الفطر السليمة ، ويجرى فى بعض الاستشهاد ضرب المثل للفاحشة بالزنا على أنه تمثيل للفعل البالغ النكارة والفحش ، ووجدنا الله سماه فاحشة ، فكان نموذجا لأسوء الفحش الذى تنفر النفوس الكريمة من مواقعته .

ثانيا — المنكر ، ومعناه كل فعل أو قول يبلغ من القبح مرتبة تشيح عنها الطبائع السليمة وتنكرها الشرائع الإلهية من كل ما هو بغيض لدى العقول ، المهذبة فيعم جميع المعاصى ، وكافة الرذائل وسائر الدناءات .

ثالثاً — البغى ، وهو تجاوز الحد ، فيدخل فيه بغى الأخلاق كالكبر ، والغرور ، والبطر ، ويشمل شطط الأعمال كالظلم ، والغصب ، والفظاظة ، والقسوة . وينضوى تحته ، رذائل القلوب كالحقد والحسد ، والغل ، والنفاق ، والعجب ، والمكر ، والكيد ، والخداع ، وسائر مفسدات الأخلاق .

وقد وقع العدل فى الآية مقدما فى مطلعها ، للأشعار بأنه أساس الفضائل العملية التى تقوم عليها الحياة النظيفة بين الأفراد والجماعات .

وقد أفرد البيان القرآنى هداية القرآن بالعدل ، فى آيات أخرى كثيرة ، وجه فيها الخطاب إلى المؤمنين خاصة باعتبارهم القوامين على أمانة الله وهديه فى سياسة الخلق ، يقول ربنا عز شأنه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن

غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلْوُوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)[1].

هذا الأسلوب فى بيان القرآن العظيم لهدايته بالتعبير عن الفكرة فى تقدير فضيلة العدل هو الخصيصة الفكرية ، والميزة البيانية التى لانجدها فى كتاب غير القرآن العظيم ، ولا نراها فى شريعة غير شريعة الإسلام .

وفى هذه الآية نسمع هذا النداء الإلهى المتلطف لأولئك القوامين على أمانة الله فى سياسة الخلق ، وتدبير أمر الحياة ، مما يدل على خصيصتهم فى حمل أمانة العدل حتى يكون خلقا لهم وجبلة فى طبيعتهم الإنسانية التى صنعها الإيمان ، فلم يقل القرآن : كونوا عادلين ، ولم يقل : قوموا بالعدل ، ولم يقل : اقسطوا بين الناس ، ولكنه قال : (كونوا قوامين بالقسط) فالأمر بهذه الكينونة معناه ، أعيدوا تكوين أنفسكم وجددوا فطرتكم ، وكونوا خلقا جديدا ، تعدون به أنفسكم إعداد خاصا ، يكون به العدل عنصرا من عناصر تكوينكم الخلق ، واختيار لفظ «قوامين» بهذه الصورة من هذه المادة يدل على أنهم أريدوا على أن يكونوا فى حياتهم ناهضين مشمرين عن ساق العزم فى بذل الجهد ووسع الطاقة ، متحفزين للعمل فى سبيل توطيد دعائم هذه الفضيلة الاجتماعية حتى تكون خلقا فطريا يولد فى نفوسهم مع الإيمان .

وليتأمل الناظر فى رياض القرآن هذا الأسلوب المتسامى ببالغ المبالغة فى جانب الذاتية الإنسانية بإقامة موازين العدل على النفس ، ثم تخصيص الوالدين بالذكر ، وإجمال الأقربين بعدهما ، ثم ليتأمل فى تولج الهداية القرآنية فى أسلوبها البيانى إلى مداخل الضمير الإنسانى ، وتحذيره من الخضوع فى إقامة العدل لعاطفة تتملق غنياً لغناه وثروته ، أو عاطفة رحمة ترحم فقيراً

---

(١) سورة النساء آية (١٣٥) .

لفقره، فيميل مع هذه أو تلك، فلا يحملن عز المال المؤمن أن يجانب لأجله العدل ليظلم الفقير الذى لا مال له، ولا تحملنه الرحمة بالفقير على المجاباة له فيظلم له الغنى، وليذكر أن الله تعالى الذى خلق الخلق ، وقسم بينهم أرزاقهم هو بحكمته الذى أغنى الغنى ،وافقر الفقير ، والناس كلهم عيال الله وعباده ، يتساوون فى حق القيام بالعدل بينهم ، وهو أولى بهم ، ولا ينبغى لمن شرفه الله بالإيمان أن يتبع الهوى ، ويميل مع العواطف فيحيد عن الحق ليًّا بمنصب العدل ، وإعراضا عن النصفة ، لأن الله الذى شرفهم بنعمة الايمان ، وحملهم بفضلها أمانة العدل خبير بأعمالهم وما يكون منهم من إعراض عن الحق ، فيجازيهم بأعمالهم .

وقد فهم مفسرو القرآن معانى هدايته فى هذا الأصل فأشاروا إليها فى أقاويلهم إشارات عابرات يقول أبو جعفر الطبرى : (العدل ميزان الله فى الأرض ، به يرد الله من الشديد على الضعيف ، ومن الكاذب على الصادق ، ومن المبطل على المحق ، وبالعدل يصلح الناس) .

ويقول أبو بكر الجصاص فى أحكامه : (قوله تعالى : «كونوا قوامين بالقسط »قد أفاد الأمر بالقيام بالحق والعدل ، وذلك موجب على كل أحد إنصاف الناس من نفسه فيما يلزمه لهم ، وإنصاف المظلوم من ظالمه .ومنع الظالم من ظلمه ، لأن جميع ذلك من القيام بالقسط) »

ومن بديع البيان القرآنى فى تصوير هداية القرآن العظيم فى فضيلة العدل أن الله تعالى شأنه ذكر هذا المعنى نفسه فى آية أخرى فقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى) (١) .

---

(١) سورة المائدة آية (٨) .

فصورة النداء المتلطف بعنوان الإيمان ، وصورة الخطاب الكينونى (كونوا) الذى يجعل من العدل طبيعة فى خلائق أهل الإيمان ، لأنه أمانتهم العظمى التى حُمِّلوها ليؤدوها إلى الحياة ، وصورة إعظام القيام بالعدل (قوامين) واحدة هنا وهناك .

بيد أن الأمر اختلف فى الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلا فى الهداية القرآنية التى تحقق إعجازه المعنوى ، فهناك فى الآية الأولى وجّه الأمر للمؤمنين إلى أن يكونوا قوامين بالعدل ولو كان فى ذلك مراغمة كافة عواطف الحب والمودة لأقرب الأقربين ، وهنا وجه الأمر للمؤمنين إلى أن يكونوا قوامين بالعدل ولو كان فى ذلك مراغمة كافة عواطف البغض والعداوة .

وملتقى الآيتين الكريمتين فى توجيه أهل الإيمان إلى أن يكونوا ناهضين بالعدل بين الناس إخلاصاً لله فى عبوديتهم له ، لا تحملهم محبة مهما عظمت ، أو بغض مهما اشتد على الاعراض عن إقامته إحقاقاً للحق ، وإنصافاً ، للمظلوم ، وانتصاراً للضعيف .

يقول أبو جعفر الطبرى : (يعنى جل ثناؤه ، يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل فى أوليائكم وأعدائكم ولا تجوروا فى أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم فى أعدائكم لعدواتهم لكم ، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامى وحدودى فى أوليائكم لولايتهم لكم ، ولكن انتهوا فى جميعهم إلى حدى واعملوا فيه بأمرى) .

ويقول الفخر الرازى : (لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا فيهم ، وتجوروا عليهم ، وتجاوزوا الحد فيهم ، بل اعدلوا فيهم ولو أساءوا إليكم ، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا فى إيحاشكم) .

ويقول القرطبي : ودلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه ، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصداً لايصال الغم والحزن إليهم .

وقد تكرر الأمر بالعدل فى البيان القرآنى مقروناً بالتحذير عن الميل إلى القرابة وأهل المودة ، لأن الطبائع البشرية المحكومة بسلطان الغرائز تقتضى الميل بالعطف والشفقة على القرابة وأهل المودة من الأصدقاء والخلان ، والإخوان والأعوان ، وقد شرع الله العدل ليكون ميزاناً يراح به الحق على أهله مهما كانت روابطنا بهم من حب أو بغض ، قال الله تعالى (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى)(١) .

ويقول الله عز شأنه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم)(٢) ، وقد وصف الله تعالى القرآن العظيم بأنه منزل بالحق والميزان،والحق والميزان هما العدل الثابت فى شرائع الله الذى لا يقبل النسخ والتبديل ، يقول الله تعالى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان)(٣) .

ولهذا بعد أن أفرد الله القرآن العظيم بهذا الوصف الأكرم تمييزاً له فى هدايته ذكر أن ذلك سمة كتب الله وشرائعه المنزلة على رسله يقول تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)(٤) فتحقيق العدل بأجمع صوره وأعم معانيه هو هدف الرسالات الالهية والشرائع السماوية لهداية الخلق وإصلاح شأنهم .

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٢) .
(٢) سورة الشورى آية (١٥) .
(٣) سورة الشورى آية (١٧)
(٤) سورة الحديد آية (٢٥)

الأصل الرابع

الوشائج الاجتماعية بين الأفراد والجماعات

هذا النوع من أصول الهداية القرآنية يقصد إلى تحقيق أفضل نظام تقوم على دعائمه وشائج الصلات بين الأفراد فى المجتمع الموحد فى إطار المصاهرة والنسب، كما يقصد إلى تحقيق أفضل نظام تقوم على أساسه وشائج الصلات العامة بين الجماعات فى المجتمعات التى لا تربطها وشائج أرفع من وشيجة الايمان بالله ورسوله وشريعته، وقد تكون لها وشائج خاصة بالبيئة والوطن. أو اللسان أو القومية ولكن هذه الوشائج الخاصة تتجمع فى إطار عام هو إطار الإيمان ، فيؤلف منها مجتمعاً واحداً ، له خصائصه الإيمانية التى تمتزج بالخصائص الإنسانية حتى تكون أمة واحدة عناصرها شعوب مختلفة الخصائص موحدة الإيمان.

والمجتمع الواحد فى إطار المصاهرة والنسب يعنى بناء الأسرة ، ودوافع إيجادها، ونظام تكوينها وحوافظ بقائها ، وآثارها فى بناء المجتمع الكبير فى الوطن الواحد.

والقرآن الكريم عُنى أشد العناية بإبراز هذا اللون من الهداية فى صور وأساليب امتاز بها فلا توجد فى كتاب سواه إلا مأخوذة عنه ، ومنبثقة من نوره ، ولكنها فى حاجة إلى الغوص على أسرارها، والتقاط جواهرها، واستخراج دررها من معانى آياته فى بسط يظهر مواطن الإعجاز المعنوى والفكرى فى آيات هذا الكتاب الحكيم.

وأول ما يطالع الناظر فى رياض القرآن من أزاهير هذه الهداية ما يراه فى الآيات التى تتحدث عن أصل النوع الإنسانى ، وكيفية تفرعه

إلى أفنان إنسانية عن طريق وشيجة المصاهرة والنسب وهى التى يشير إليها القرآن العظيم إشارة إجمالية فى قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً)(١). فالماء أصل الحياة كما أخبر القرآن بجعل الله له كذلك فقال (وجعلنا من الماء كل شىء حى)(٢) فامتنان الله تعالى على الناس بنعمة خلقهم من الماء إشارة إلى اصطفائهم لنوع من الحياة لا يكون لغيرهم من الأحياء ، وجعلهم نسباً وصهراً إشارة إلى وشائج القربى بينهم من جانبيها ، وهذا عام فى النوع الإنسانى .

ويفصّل هذا المعنى الآيات التى تتحدث عن انبثاق الأفراد من المنبع الإنسانى عن طريق الزواج كما فى قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونســـاء)(٣) .

فهذا النداء الإلهى العام لجميع أبناء البشرية بعنوانهم الإنسانى الشامل يلفت نظر العقل إلى أن وراء هذا النداء أمراً ذا خطر ، يقتضى يقظة القلب والعقل على سواء .

وهذا الأمر الذى جاء بعد هذا التنبيه ، وما تضمنه من طلب التسامى بالنفس الإنسانية إلى ذروة الفضائل العملية ، وهى « التقوى » يفيد اختصاص الإنسان بهذه الفضيلة باعتبارها عملا تكليفياً ينتهى إليه إخلاص التعبد « التقوى » وهذا اللفظ فى القرآن الكريم عنوان التحفظ ومراقبة النفس حتى لا تنزلق فى عمل تنحرف به عن إخلاص العبودية لله وحده .

وربط هذه الفضيلة المتسامية بخصوص هذا الإسم الأكرم (الرب)

---

(١) سورة الفرقان آية (٥٤) . (٢) سورة الانبياء آية (٣٠) .
(٣) أول سورة النساء .

مشعر بأعظم الأنعام بالتربيسة على موائد الفضل ، وفيض الجود بهذه الإضافة التى تعم جميع أفراد البشرية ، لتهز فيهم عواطف الاختصاص ، وتبلغ أعماق كل نفس ، بالمناجاة لربها الذى تعهدها فى إبداعه وخلقه .

وهذا الجمع فى خطاب الإضافة إلى الإسم الأكرم ، وفى خطاب الخالقية والمخلوقية مشعر بوحدة المدعو بالنداء ، وهو فى حقيقته كثرة ، والكثرة مع تفرقها وحدة فى خصائصها ، لأنها كلها نابعة من معين واحد ، هو أصل البشرية ، وهو المعنى بالنفس الواحدة المذكورة فى قوله تعالى (من نفس واحدة) .

وهذا الخلق العام الشامل المتكثر من النفس الواحدة ، ينبئنا القرآن بأنه جاء عن طريق المزاوجة بين النفس الأصيلة التى هى المنبع الأول ، وبين نفس أخرى انشعبت منها فاتصلتا اتصال المصاهرة النسبية ، فكان منهما هذا البشر المبثوث بنوعيه فى هذه الحياة .

والقرآن العظيم يبرز حقيقة الوشيجة بين نوعى الإنسان ، فيخبر عن واقع الإبداع فيهما ، وأن النفس الأصيلة التى هى المنبع الأول أبدعت إبداعاً بمحض الفيض الإلهى ، وأن النفس الأخرى انشعبت منها بعنوان الزوجية بقوة الخلق والتقدير ، على معنى أنها ناشئة منها وخارجة من ذاتها كما تخرج الثمرة من الشجرة ، أو على معنى أنها بعضها وبضعة منها ، فهى أول شطأ زرعها ، وأول أفنان دوحتها ، فهى منها ، وفيها خصائصها الكامنة فى بذرتها ، فإذا أثمرت فيها ومنها تثمر ، فالنفس الثانية المنبثقة زوج النفس الأولى ، بطريق المصاهرة والنسب بأصل وجودها منها ، والأولى هى الرجل ، والثانية هى المرأة بفحوى الحديث وسياق القصة ، وليس للمرأة غنية عن الرجل ، لأن المشيئة الإلهية ربطت وجودها اللاحق بوجوده السابق . وهو لا يستغنى عنها لأنها بأصل وجودها منه

وانشعابها من أصله بعنوانها الخاص « زوج » طرف أصيل فى بقاء النوع المبثوث منهما فى أرض الله .

وهذا الوصف بالكثرة فى جانب الرجال ، وهم نماذج المنبع الأول ، وطرحه فى جانب النساء ، وهن نماذج الفرع المنشعب من الأصل إشارة إلى الوضع الاجتماعى فى وجود النوعين ، وهو يفيد كثرة الرجال فى أصل الوجود — على خلاف ما يُظن — وهذه الكثرة فى الرجال معرضة دائماً لعوامل الانتقاص عن طريق مخض الحياة ، فكان لابد من قانون التعويض بالتوالد ليبقى التوازن بين النوعين .

هذه إشارات رامزة لبعض مواطن الإعجاز الفكرى فى الهداية القرآنية ، يستطيع الناظرون فى القرآن الكريم على مدى الأزمان ، أن يستخرجوا أضعاف أضعافها من آى القرآن العظيم فى كل أصل من أصول هدايته التى ذكرنا ونذكر نماذج لها .

ويجرى على سنن هذه الآية الكريمة فى إشاراتها الرامزة نظائرها من آيات الهداية القرآنية التى سيقت لبيان أصل الإبداع فى النوع الإنسانى كقوله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها)(١) .

بيد أن هذه الآية الكريمة — جرياً على سنة القرآن فى عدم التكرار المحض — زادت قيداً أبانت فيه عن الحكمة الربانية فى وشيجة الزوجية بين النفس الأصيلة فى الإبداع ، وبين النفس المنشعبة منها .

تلك الحكمة هى سكون النفس الأصيلة من قلق الوحدة ووحشة الانفراد عن الملائم إلى أنس الزوجية وتلاطفها ، فى نموذجها المنشعب منها .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٨٩) .

ويلاحظ أن الحديث هنا جرى على النوع الإنسانى فى نموذجيه قبل أن ينبت منهما أفراده ، وقد كشف عود ضمير النفس الأصيلة خصيصة نوعها ، فكانت هى الرجل ، كما كشف عود ضمير النفس المتشعبة عن خصيصة نوعها فكانت هى المرأة ، وقد صور هذا النهج فى إبراز الفكرة الاتساق بين إعجاز الأسلوب وإعجاز الهداية فى إيجاز البراعة البيانية بقوله تعالى (ليسكن إليها) .

وقضية سكون الزوج إلى زوجه ، والرجل إلى امرأته سيقت فى آية أخرى مساق التوجيه للعقل الإنسانى إلى التعرف على عظمة القدرة الإلهية ، وللامتنان على أفراد النوع الأول فى وجود الإنسان ، وهم الرجال لبيان الحكمة فى خلق نوع النساء ممثلا فى أفراده من ذات أنفس الرجال ، بمعنى المنشأ أو البضعية أو كمال المماثلة فى الخصائص النوعية مما يحقق أكمل الانسجام والممازجة .

وزيد هنا قيود على مجرد السكون ، تتلاءم مع دائرة الأفراد المنبثين من النوعين فى الامتنان عليهم بعد الامتنان على خصوص أصلهم فى نموذجه الأول باعتباره المنبع الأصل لإبداع الإنسان وخلقه ، قال تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[1] .

هـــذه لوحة فنية فى إطار من الذكر الحكيم ترمز إلى آفاق السعادة الزوجية بين كل زوجين أراداها وسعيا إليها سعياً جاداً مستهدفاً ، فالتعبير بقوله (خلق لكم من أنفسكم) إشعار بمكانة الزوجة من زوجها ، وتوجيه لما يجب أن تكون الزوجة من زوجها ، وفى قوله (لكم) إغراء بالحرص على أن يفتح الزوج قلبه لحب زوجته لأنها له وحده روحاً وعقلا وجسما ،

---

(١) سورة الروم آية (٢١) .

وفى قوله (من أنفسكم) بيان لما يجب أن يكون من الانسجام والتماذج بين الزوجين ، لأنهما نفس من نفس ، فهو أبلغ فى بث السكينة فى قلب الزوج، لأنه بطريق الإيحاء كأنما يسكن إلى نفسه .

وفى الآيتين السابقتين كان الأسلوب (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) أو (جعل منها زوجها) ولذلك كان الحديث هناك مع الأفراد فى نموذج النوع بطرفيه ، أما هنا فالحديث مع الأفراد المنبثين ، كل فرد من النوع الأول مقصود بالخطاب والمنة بالنعمة .

وفى هذه الآية لمحة لطيفة ، ونكتة ذوقية فى الأسلوب القرآنى ، ذلك أن الآية الكريمة تجعل السكون مطلوباً من الرجال إلى نسائهم ، ولم تجعله مطلوباً من النساء إلى الرجال ، لأنه فيهن فطرة وطبيعة ، وفى الرجال عادة مكتسبة ومغالبة للفطرة .

ثم أخبرت الآية بشىء جديد كل الجدة على الآيتين السابقتين ، وذلك قوله تعالى (وجعل بينكم مودة ورحمة) فالمودة والرحمة شركة بين الزوجين يتساقيان عذب شرابهما ويتقاسمان حلاوتهما ، أما السكون فإنه مطلوب من الرجل ليغالب به طبيعته القوامة ، حتى تذهب عنه نخوة الشيطان ووساوسه .

ولكن القرآن العظيم لا يذهب بعيداً فى مغالبة طبيعة الرجل ، فيعطيه درجة القوامة على المرأة ويكلفه الذود عنها والقيام بكفايتها والإحسان إليها فى عشرتها ، يقول الله تعالى (الرجال قوامون على النساء)[1] وهذه الدرجة لا تنقص المرأة حقاً لها باعتبارها نموذج النوع المكمل لوجود الإنسانية ، بل إن القرآن العظيم يصرح بالمساواة فى الحقوق الملائمة

(١) سورة النساء آيه (٣٤) .

لطبيعة النوعين ، ويفرد الرجل بدرجة القوامة ، لأنه أحق بها وأهلها ، يقول الله تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف)[1] أى من الحقوق والواجبات (وللرجال عليهن درجة)[1] تلك هى درجة القوامة بالحق والعدل والرحمة والمودة (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)[2] فإحسان العشرة المرأة لا يلزم أن يكون مبعثه الحب ، والقرآن العظيم يفتح باب الرجاء فى الخير ولو مع الكراهية .

* * *

أما المجتمع الموحد فى إطار الإيمان بالله ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته ، فهو بناء الإسلام كله ، بجميع مجتمعاته ، وأممه وشعوبه على اختلاف أوطانهم ، وأجناسهم ، ولغاتهم ومذاهبهم وأنظمة الحكم فيهم .

هذا المجتمع الإيمانى هو الذى عبرت عنه الهداية القرآنية بقول الله تعالى (إنما المؤمنون إخوة)[3] فالإيمان وشيجة الإخاء بين عامة المؤمنين فى أقطار الأرض ، فالمؤمن — فى هداية القرآن — أينما كان هو أخو المؤمن، أينما كان ، وجميع ألوان الخطاب الواردة فى القرآن العظيم بعنوان الإيمان تشمل جميع المؤمنين فى كافة أوطان الإسلام ، والحقوق والواجبات التى تترتب على وصف الإيمان تلزم كل مؤمن حيثما كان .

وقد نظمت آيات الهداية القرآنية علائق أفراد المجتمع الإيمانى وجماعاته وعلائقهم مع غيرهم فى السلم والحرب .

ومن أشمل شواهد تنظيم هذه الوشائج الأيمانية فى السلم قول الله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى

(١) سورة البقرة آية (٢٢٨) . (٢) سورة النساء آية (١٩) .
(٣) سورة الحجرات آية (١٠)

والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم)[١] .

هذه الآية الكريمة جمعت سائر علائق الإنسان بالإنسان فى مجتمع الإيمان، وجعلت الحفاظ عليها عزيمة الإيمان على المؤمنين ، فالمؤمنون متكافلون فى مقومات الحياة لأنفسهم ولمن عاش فى كنفهم من غيرهم ممن يفى لهم بعهدهم ، فمن خاس العهد أو غدر فلا يجوز ظلمه والغدر به ، وإنما يعلن بغدرته ، وينبذ إليه عهده قال تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)[٢] .

وهداية القرآن توجب على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وحذر ، وإعداد القوة الدافعة التى ترهب العدو قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)[٣] ويقول جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً)[٤] .

فإذا حملوا على خوض غمار الحرب حملا ، ودفعوا إلى ميادينها دفعاً خاضوها بعزم وقوة قال الله تعالى (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم[٥] يذكرون) وإن ظهرت أمارات السلم من غير خديعة من الأعداء فإن هداية القرآن تأمر كافة المؤمنين بالدخول فى ساحته قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة)[٦] وقال تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)[٧] .

والمقصود الإشارة إلى مواطن الإعجاز الفكرى فى هداية القرآن العظيم، وسوق الشاهد وضرب المثل دون استيعاب واستقصاء .

---

(١) سورة النساء آية (٣٦)
(٢) سورة الأنفال آية (٥٨) .
(٣) سورة الأنفال آية (٦٠)
(٤) سورة النساء آية (٧١)
(٥) سورة الانفال آية (٥٧)
(٦) سورة البقرة آية (٢٠٨)
(٧) سورة الانفال آية (٦١)

الأصل الخامس

إيقاظ العقل وتحريره

هذا النوع من الهداية القرآنية هو ملتقى روافد الإعجاز الفكرى فى أصول الهداية العامة التى عنى بها القرآن العظيم عناية خاصة لعوامل طارئة أثرت على وجود العقل، وقيدته بأغلالها، فكان لابد من معالجتها، وإصلاحها، وإطلاق العقل من ربقتها، ووضع أصول ثابتة لفهم الحقائق الكونية والحكم عليها، ترد إلى العقل الإنسانى اعتباره، وتوليه تقديره، ووزنه بقيمته الإنسانية الحقيقية التى جعلت من الإنسان كائناً مسيطراً على الحياة، وموجهاً لها، ورقيباً على نظمها وأوضاعها.

فمن العوامل مايتمثل فى توارد القرون التى سبقت نزول القرآن برسالة الإسلام بأجيالها منذ وقف سير الملة الحنيفية فى رسالة إبراهيم الخليل أبى الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، فتلك الرسالة الحنيفية كانت رساله تعتمد على نظر العقل فى أصول العقائد الإلهية، وكان فيها التقدير الأول لقيمة العقل فى إدراك الحقائق الغيبية.

والقرآن الحكيم يقص على العقل الإنسانى مواقفه فى تلك الرسالة الحنيفية تذكيراً له بأصل فطرته المشرقة التى أصدأها مرور الزمن بفتراته الطويلة فى ظل سيطرة الغرائز المادية بسلطانها الحيوانى على أوضاع الحياة، ليعـــود العقل إلى مكانه من قيادة الحياة فى صورة تتسق فى قدراتها وقوتها مع عناصر العمق والشمول فى الرسالة المحمدية خاتمة رسالات السماء، وتنسجم مع بلوغ الإنسانية مرحلة الرشد والكمال التحررى فى إدراك الحقائق الكونية والإفادة منها، فى دائرة وحدة العقيدة فى كافة الرسالات الالهية، وفى دائرة النظم التشريعية الشاملة التى جاءت بها رسالة الإسلام.

ونحن نقرأ أول حوار يصادف الناظر فى القرآن العظيم ، بين رسول الله إبراهيم عليه السلام ، وبين جبار عصره ، وطاغية زمنه ، الذى يمثل عنجهية الجهالة المشركة والضلالة الجاهلة فنجد المجال العقلى فى هذا الحوار هو الذى يحكم دائرته ، ونجده ينفسح ويتنوع ، ونجد العقل النير الملهم ، عقل إبراهيم رسول الله وخليله ، يجول ويعلو ، ويسيطر ويحكم ، ونجد إلى جانبه العقل المظلم المغلل بأغلال الجمود والبلادة الحسية ، عقل الذى كفر ، حبيس الغرائز ، وأسير الحواس ، يفاجأ بالحجة المشرقة الدامغة فيتوارى منكوسا مدحورا ، ويبهت مشدوها متحيرا ، ويغلب على أمره فى حواره فلا يجـــد إلا قوة البطش الطاغى يرد بها على نبى الله إبراهيم عليه السلام ، ويلقيه فى النار التى كانت عليه بإذن ربه بردا وسلاما .

يقول ربنا تبارك وتعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين)[1].

احتج إبراهيم عليه السلام على باهر قدرة الله تعالى ومظاهر وجوده بأن شأن الرب الإله هو الذى يبدع مالا يقدر أحد على إبداع مثله ، ورب إبراهيم الذى هو رب كل شىء هو الذى يبدع الحياة إبداعا بقدرته ومشيئته، فيجعل غير الحى مما لاروح فيه حيا ذا حياة وروح ، وهو الذى يسلب الحياة عن كل كائن خلقها فيه ، فيميته بإعدام الحياة منه ، وهذا حظ العقل النير فى فهم الإحياء والإماتة اللتين وصف بهما رسول الله إبراهيم ربه رب العالمين ، ولكن العقل المظلم ، حبيس الغرائز ، عقل الذى كفر بالله وآياته، لم يفهم الإحياء والإماتة كما هما فى واقع الأمر على الصورة التى فهمها العقل

(١) سورة البقرة آية (٢٥٨)

النير الملهم ، عقل إبراهيم رسول الله وخليله عليه السلام ، بل فهمها فهما ماديا ، خاليا من الشمول والإبداع اللذين هما خاصة الألوهية الحقة ، فقال في مناظرته ردأ على إبراهيم (أنا أحيي وأميت) يريد من الإحياء والإماتة هذه المظاهر الجوفاء التي يملكها الجبارون الطغاة فى تسلطهم على حياة الناس بسلطان القوة والطغيان .

فلما تبين لإبراهيم عليه السلام بلادة عقل هذا الطاغية الجهول ، وجمود ذهنه ، وأنه ليس لديه صلاحية إدراك المعقولات الخالصة ، لأنه مغلق الشعور القلبي ، مغلف الإدراك الوجداني ، لايؤمن إلا بما يحسه بمنافذ الحس المادى لعجز تكوينه العقلي عن النفوذ إلى ماوراء الحس المادى ، أو لقيام موانع من المؤثرات المادية التى تحجب العقل عن الفهم والإدراك ، أو كانت لا تحجبه ، ولكنه تحول بينه وبين الاعتراف بمدركاته ، ولما كان واجبا فى شرعة العدل الإلهى أن ينتقل به إلى مايلائمه من أنواع الحجة والبرهان ، عدل به إبراهيم عليه السلام إلى لون آخر من الحجة ليستوفى معه طرائقها قطعا لعذره .

تلك الحجة التى عدل إليها إبراهيم عليه السلام هى لون من البرهان ، يشترك فى إدراكه العقل والحس ، فالعقل يدرك بخصيصته التجريدية المعقول الخالص ، ويدرك المحسوس بخصيصته المتعاونة مع الحس فإدراكه مزدوج شامل ، أما الحس فإنه يدرك بمنافذه من الحواس مايقع تحت حكم هذه الحواس .

وفى هذا العدول عن الحجة الأولى مع قيامها فى صدقها وباهر آيتها تسفيه سلبي لعقل ذلك الكافر المتجبر فى الأرض ، وإظهار لعجزه البليد عن التفكر فى معنى الإحياء والأماتة اللتين هما صفة الألوهية الحقة ،

وتحقق هذا المعنى فى نفسه ، ونفس من يولد ثم يموت من قومه كل لحظة ، بل فى ولادة كل حى وموته .

فالله تعالى يحيي كل حى ، ويميت كل ميت ، وهذا الطاغية الجهول يعلم يقيناً أنه لا يملك هذا العموم الشامل فى الإحياء والإماتة ، ولو بمعناهما الحركى الذى ظنه إحياء وإماتة .

ولهذا جاءت الحجة الثانية تنزلا فى المحاجة إلى المستوى الذى يناسب الخصم ، وفيها إشارة إلى موطن البرهنة فى الحجة الأولى التى لم يفهمها الذى كفر ، لأن الاستدلال على وجود الرب الإله الحق ، وعلى عظيم قدرته إنما يكون بذكر ماهو من خصائصه التى لا تكون لغيره ، وأفعاله التى لا يقدر عليها سواه ، فخلق الحياة وإنشاؤها إبداعاً هو الإحياء الذى هو من خصائص الله تعالى ، وخلق الموت بسلب الحياة هو الإماتة التى هى فعل الله الذى لا يقدر عليه سواه ، أما إحياء وإماتة بغير خلق وإبداع فليس هما على الحقيقة إحياء وإماتة ، وإنما هما مظهر من مظاهر الحركة والسكون فى الحياة التى يقدر على مباشرتها كثير من المخلوقين .

ومن ثم نرى أن الحجة الإلهية إذا لم تفهم لبعض الناس فلا يرتفع بها الاحتجاج لصلاحيتها فى ذاتها للبرهنة إذا نظر فيها عقل غير محجوب عن إدراك مناطها .

فالاحتجاج بالإحياء والإماتة قائم صادق ، والانتقال عنه إنما كان لأمرين :

الأمر الأول ـ بيان موطن دلالته من طريق القياس على فعل لا يشتبه فى حصوله من القادر المختار ، وأن أحداً سواه لا يقدر عليه ، وفى ذلك بيان لخطأ فهم الإحياء والإماتة عند هذا الكافر الجاهل ، فى قوله : أنا

أحي وأميت ، وفيه بيان لمعنى الإحياء والإماتة اللذين هما من خصائص الألوهية الحقة فى مقام الاستدلال على وجود الله وقدرته .

الأمر الثانى ـ إقامة دليل آخر فى صورة تلائم مدارك الخصم ، ولا يملك له رداً قال إبراهيم (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) والإتيان بالشمس من المشرق فعل فى كائن عظيم يُرى ويحس وهو فعل إبداعى ، لا يقدر عليه إلا الرب الإله الحق القادر المختار ، ونظيره معارضه ، وهو الإتيان بالشمس من المغرب ، وهو أيضا ـ لو كان ـ فعل إبداعى لا يقدر عليه إلا الرب الإله الحق القادر المختار .

فلما سمع الذى كفر هذه الحجة التى أبرز فيها الإبداع والإنشاء بمظهر الحركة العظيمة لهذا الكائن العظيم ، وهى حركة محسة متكررة ، لا يستطيع إنكارها والمكابرة فى حصولها ، وطولب ـ إلحاما له ـ بمثلها فى معارضتها بحركة مضادة ليقع الإبداع والإنشاء الدال على الألوهية الحقة ، وكان الخصم عاجزا أمام نفسه عن هذه المعارضة لم يكن منه إلا أن بهت مشدوها متحيرا ، لا يحير رداً ، ولا يملك جوابا .

* * *

ونقرأ أيضا فى القرآن الحكيم لونا من المحاورة التى تصور المنهج العقلى فى إدراك الحقائق الكونية ، وهو فى أوج عظمته كدعامة من دعائم الملة الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام :

وهذه المحاورة كانت ـ كما يظهر ـ فى مبتدأ الرسالة ، والقرآن الكريم يقصها تبيانا لمواقف العقل المتحرر من أغلال الجمود والتقليد البليد لما عليه الآباء والأسلاف من ضلالات ، تذكيراً لهذا العقل الإنسانى بفطرته الأصيلة ، وإيقاظا له من غفوته الطارئة ، لينهض بعبئه فى الحياة يقظا

متحرراً فى مجال الهداية القرآنية الخاتمة لهدايات السماء فى رسالة الإسلام .

قال ربنا عز اسمه (وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجّونى فى الله وقد هدانى ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا تذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)[1] .

هذا لون من الحجاج العقلى يسوقه القرآن الحكيم لبيان هدايته فى إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود على موروث الأسلاف ، وتقليدهم فى الأخذ بباطل عقائدهم والاستمساك بفاسد ضلالاتهم دون نظر يكشف عن حقيقة ما كان عليه أولئك الأسلاف ، سوى أنهم وجدوهم كذلك يفعلون كما حكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)[2].

(١) سورة الانعام آيات (٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣)

(٢) سورة الشعراء آيات (٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤)

وقد ورث طلائع المدعوين بالهداية القرآنية فى الرسالة المحمدية الخاتمة لرسالات السماء هذا الجمود العقلى والتقليد البليد لما كان عليه أسلافهم من ضلال فحكى الله عنهم ما حكاه عن قوم إبراهيم ، وكان له عليه السلام ولقومه ذكر عند العرب ومن خالطهم من اليهود والنصارى فقال تعالى (وإذ قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)[1] ثم رد عليهم بالرد نفسه الذى رد به إبراهيم على قومه فى أسلوب مختلف الصورة متفق المعنى والحقيقة (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[1] فإبراهيم أبان ضلال قومه وردهم عليه إذ قالوا فى بلاهة بلهاء (نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) فقال لهم (هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون) وتأويله : أفلا تعقلون وأنتم تصرحون بهذه الشناعة وتصمون أنفسكم بهذه الوصمة الفاضحة ، إن هـــذه الأصنام لا تسمع دعاء داعيها ولا تنفع متعبديها ولا تضر أحد شيئا من ضرر ، لأنها جمادات منحوتة بأيديكم ، فكيف تكون معبودة ، والمعبود هو الإله الحق الذى يسمع دعاء داعيه ، ويستجيب لمناجيه ، وينفع من يشاء من عباده بإرادته وحكمته ، ويوقع الضرر بمن يشاء من عباده بقدرته ومشيئته وهو رب العالمين (الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين)[2].

وقد تكرر هذا التقريع فى أسلوب هداية القرآن لإيقاظ العقل وتحريره ، ومن لطائفه أنه يجىء فى أعقاب سوق الأدلة القاهرة والبراهين الساطعة التى تنبه العقل إلى النظر المتحرر من أغلال الجمود . فى سورة لقمان يقول ربنا تبارك وتعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٩)　　(١) الآية السابقة نفسها

(٢) سورة الشعراء آيات (٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢)

الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير[١] .

وفى هذا المجرى يقول عز شأنه مبيناً أن هذا التقليد البليد والجمود على موروث الآباء دين المترفين الذين يقودون الاغمار والعامة (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)[٢] .

ثم يبين القرآن الحكيم أن هـــذا الجمود على خلاف ما تقتضيه فطر العقول السليمة (قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم)[٣] ولكنهم لا يعقلون شيئاً مما يقال لهم ولا يهتدون إلى الحق لأنهم غللوا عقولهم وجمدوا أذهانهم فلا ينظرون ولا يتفكرون ، بل هم فى ضلالهم يعمهون (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون)[٣] فحق عليهم انتقام الله (فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين)[٤] .

يؤكد القرآن ارتباط هذا المنهج فى هداية الفطرة وإيقاظ العقل وتحريره أوثق ارتباط بالمنهج العقلى الذى قامت عليه الملة الحنيفية فى رسالة إبراهيم عليه السلام ، ولهذا يجيء عقب الآيات السابقة من سورة الزخرف حكاية تبرىء إبراهيم عليه السلام من كفر أبيه وقومه باتخاذهم آلهة من دون الله يعبدون .

فيقول الله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين[٥]) .

* * *

بيد أن قصة إبراهيم مع قومه فى سورة الأنعام تمثل منهج الهداية القرآنية فى إيقاظ العقل وتحريره من أغلال التقليد والجمود أكمل تمثيل .

---

(١) سورة لقمان آيتى (٢٠ ، ٢١) . (٢) سورة الزخرف آية (٢٣) .
(٣) سوره الزخرف آية (٢٤) (٤) سورة الزخرف آيه (٢٥)
(٥) » » آيتى (٢٦ ، ٢٧)

ومما يلفت إليه نظر الناظرين فى رياض القرآن أن ترتيب آياته فى نظام التلاوة على ترتيب المصحف الإمام الذى انعقد عليه إجماع الأمة لا يلزم حتى فى القصة الواحدة أن يكون جاريا على ترتيب النزول ، أو على ترتيب سوابق المعنى ولواحقه ، وهذا من إعجاز القرآن الذى انفرد به فى طريقة أدائه المعانى والحقائق التى يقصد إليها ، فقد يأتى لاحق القصة نزولا ومعنى قبل سابقها كذلك لحكمة قد تدركها العقول وقد تحجب عنها .

وهنا فى قصة حجاج إبراهيم عليه السلام لقومه نلمح شيئاً من هذا نشير إليه ، فهما لا نحا ، لا يقينا قاطعاً ، ذلك أن القصة بدأت بإعلان إبراهيم عليه السلام قبح نحلة أبيه آزر فى اتخاذه أصناما آلهة يعبدها وقومه من دون الله ، ثم قطع له الحكم عليه وعلى قومه بأنه يراهم غارقين فى بحار الضلال المبين الذى لا تغطيه شبهة من عقل ، وذلك هو ما قال ربنا عز شأنه فى أول القصة (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين[1]) وهذا الموقف من خليل الله إبراهيم عليه السلام يبعد جداً أن يكون قد كان إلا بعد أن يكون الله قد أراه آياته الكونية فى ملكوته ليكون من الموقنين ، ومجرد إيمان إبراهيم عليه السلام بموجب عقله قبل رسالته ، لا يجعله يقف هذا الموقف الشديد من أبيه وقومه ، لأنه موقف فى شدته وصراحته إنما تقتضيه قوة الرسالة الإلهية وبراهينها العقلية والإعجازية ، وهذه البراهين إنما بدأت بإراءة الله لخليله ملكوت السموات والأرض ليعرف سنن الله فى خلقه ، وحكمته فى تدبير ملكه ، وآياته الدالة ، على ربوبيته وإلهيته ، وليكون هو فى خاصة نفسه على درجه من اليقين الراسخ الذى لا تناله شبه خصومه وحينئذ يكون قواما برسالة ربه ،

---

(١) سورة الأنعام آية (٧٤) .

نهاضاً بحقها ، صادعا بأمرها مع أبيه ومع قومه ، مبيناً ضلالهم ، داعياً لهم إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور التوحيد وعبادة الله وحده .

فصدر القصة فى نظام التلاوة وهو حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه وتسفيه رأيه فى اتخاذه الأصنام آلهة ليس بلازم أن يكون صدرها فى واقع الأمر وترتيب النزول ، بل إنه قد يكون أقرب إلى الصواب أسبقية إراءة الله خليله إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض ليكون من أهل اليقين ، على حديثه مع أبيه وتقبيح رأيه فى اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله يعبدون ، لأن هذا كان بعض آثار يقين إبراهيم عليه السلام .

غير أن هذا قد يعكر عليه ما يشبه الإجماع من المفسرين على أن قوله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم) معناه كما يصـــوره أبو جعفر الطبرى : وكما أريناه البصيرة فى دينه والحق فى خلافه ما كانوا عليه من الضلال ، نريه ملكوت السموات والأرض .

ويقول فخر الدين الرازى فى تصوير هذا المعنى : الكاف فى كذلك للتشبيه و (ذلك) إشارة إلى غائب جرى ذكره ، والمذكور ههنا فيما قبل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام ، وهو قوله (إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) والمعنى : ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض .

ويقول صاحب المنار — وهو من المحدثين — فى تصويره : وكما أرينا إبراهيم الحق فى أمر أبيه وقومه ، وهو أنهم كانوا على ضلال بين فى عبادتهم للأصنام ، كنا نريه ملكوت السموات والأرض على هذه الطريقة التى يعرف بها الحق .

وهكذا لا نكاد نجد عبارة لمفسر فى تصوير التشبيه وبيان المشبه به المحذوف ، وبيان مرجع الإشارة وتعيين المشار إليه إلا وهى تجنح إلى أن المشبه به — وهو المشار إليه فى مرجع اسم الإشارة — حال إبراهيم قبل إراءته ملكوت السموات والأرض ، تلك الحال المصورة فى عبارات المفسرين بمعرفته الحق ، وإنكاره على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة يعبدها من دون الله ، ومجابهته أباه وقومه بأنه يراهم بسبب هذه الشناعة الوثنية فى ضلال بيّن ، ما كان ينبغى لعاقل أن يقع فى حمأته .

ويمكن دفع التعكير الذى أشرنا إليه : بأن حال إبراهيم التى وقعت مشبها بها ومشاراً إليها ، هى تبصيره بمحض نور العقل ليدرك قبح عبادة الأصنام التى أنكرها على أبيه ، قبل الرسالة ، وهذا أمر مركوز فى الفطر السليمة ، ولاسيما فطر من علم الله أنهم يصطفون لحمل رسالة الحق والتوحيد من أنبياء الله ورسله ، لأنهم المحفوظون بحفظ الله عن مقارفة الشرك والرضا به ، على ماقال تعالى فى الإشارة إلى تنزيه من يريد إجتباءهم لرسالاته من أنبيائه (الله أعلم حيث يجعل رسالته)(١) .

والشدة التى جعلناها سبيلا لترتب المشبه به على المشبه فى حالتى إبراهيم عليه السلام ، تلك الشدة التى ظهرت فى طريقة مخاطبة ابراهيم عليه السلام لأبيه قد يكون جوها الخاص مخففاً من آثارها ، ويكون الدافع إليها شفقة الادلال بالبنوة على الأبوة ، مع ملاحظة ضيق دائرة الإنكار المواجه فى حدود البيت ، وفيه الأم الرؤم ، والأب الشفيق ، واحتمال أمن الضرر .

ويتجه بهذا الدفع صحة تصوير المفسرين لمعنى التشبيه ، ويكون المشبه ، وهو إراءة الله تعالى خليله ملكوت السموات والأرض ، يعنى فى ابتداء

---

(١) سورة الأنعام آية (١٢٤) .

الرسالة والوحى ، ويكون المشبه به ، وهو تنوير عقل إبراهيم عليه السلام ، يعنى مجرد الإدراك العقلى لقبح اتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله رب العالمين .

وحينئذ لا يلزم أن يكون المشبه به مترتبا على وجود المشبه ، وقد يحتمل أن يكون إراءة الله تعالى لخليله ملكوت السموات والأرض ، وهو المشبه من قبيل الارهاص الذى يسبق الرسالة تهيئة لجو الرسالة العقلى الذى تسير فيه .

وقد لاح لنا لأخ من ومضات الفكر فى فهم هذا التشبيه ، يؤكد الربط بين الرسالتين ، الرسالة المهيمنة على سائر الرسالات ، الخاتمة لوحى السماء ، رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالة الملة الحنيفية التى أيقظت العقل وحررته من جمود التقليد ، رسالة أبى الأنبياء خليل الله ابراهيم عليه السلام .

ونستأنس لهذا الفهم بما ورد فى ثنايا هذه القصة من تنبيه إلى المنهج العقلى الذى قامت على دعائمه العقيدة الحقة فى ملة إبراهيم ورسالته التى أراه الله فى مطلعها بعين بصره وبصيرته حجته على قومه ، ليكون من أهل اليقين الحسى ، والعقلى والكشفى ، حتى يجتمع له ضروب الرسوخ فى العلم والمعرفة بما أوتيه من كمال الحجة ، وبما فتح له من الدلائل والبراهين فى ملكوت السموات والأرض .

ثم نستأنس لهذا الفهم بما فى بيان الله لخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم بعد اكتمال المحاجة بين خليل الله ، وأعداء الله ، وغلبة الخليل وقهر حجته لشبه الأعداء ، بأن هذا الذى قصصناه عليك فيما أوحينا إليك من شأن إبراهيم مع قومه هو حجتنا التى علمناها إياه فى إراءتنا له ملكوت

السموات والأرض ، فابصرها بحسه ، وعقله ، وقلبه ، ورفعناه بها على أعدائه بغلبته وقهره لهم فى مقام الحجاج والمناظرة ، ولك أنت فيه المثل الأعلى ، لأن آية صدقك فى منهج رسالتك ، ورسالتك هى آيتك فى كتابك المهيمن الذى أوحاه الله إليك وحياً ، وهذا كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (ما من نبى من الأنبياء إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وكان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)

ومعنى الحديث أن جميع الأنبياء والمرسلين كانت آيات صدقهم قهراً مادياً ، لايستطيع أحد معه إلا أن يجيب أو يهلك ، أما الذى أوتيه خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فهو المنهج العقلى الخالد الذى لا يعرف الاكراه والقهر المادى ، ولا يغلب فيه العقل على نفسه ، ولا يوجد سلطان عام فى فهم الرسالة فوق سلطانه ، فهو صَيْرفىّ الرسالة فى إقامة الحجة ، وهو الباحث عن حِكمها فى أحكامها العامة ، لايرد حكمه إذا صح نظره ، ولا يختلف نظره إذا استقام مهيعه ، فهو آية الله على الخلق ، وحجته على العباد . . .

ذلك الفهم الذى لاح لنا هو أن يكون المشبه به المشار إليه فى قوله (وكذلك نرى إبراهيم) أمراً غير مذكور فى القصة ولكنه معلوم للمخاطب علماً حضورياً يقوم مقام ذكره ، ويجعله كالمحسوس الذى يشار إليه ، وهذا الأمر المعلوم هو حالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فى إراءة الله تعالى له فى مشهد القرب الأخص ما أراه من آياته الكبرى ، وهى الإراءة التى ذكرها الله تعالى فى قوله (مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى)(١) والتى جعلها غاية تجليه على عبده فى مقام الاختصاص الذى بدأه بعلم التقديس . لأنه نوع من التجلى فوق طاقة العقول إدراك حقيقته فقال

---

(١) سورة النجم آيتى (١٧ ، ١٨)

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

فابراهيم خليل الله عليه السلام أراه الله ملكوت السموات والأرض، ليرى سنن الله فى خلقه، وتدبير ملكوته ليكون من أهل الرسوخ واليقين.

ومحمد حبيب الله صلى الله عليه وسلم أراه الله من آيات ربه الكبرى، وأراه من آياته الخاصة المضافة إلى عظمة الله وجلال كبريائه فى مقام الاختصاص الذى انفرد به صلوات الله وسلامه عليه .

ولا ريب أن ملكوت السموات والأرض، وهو ما أريه إبراهيم عليه السلام ، بعض آيات الله الكبرى وبعض آيات الاضافة إلى عنوان العظمة والكبرياء التى أريها محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قيدت إراءة ابراهيم عليه السلام بغاية ترجع إليه فى رسالته ، وأطلقت إراءة محمد صلى الله عليه وسلم عن أية غاية ، ولا شك أن مقام الاطلاق فى خلع القرب أجل من مقام التقييد ، ولهذا أثنى الله على عبده وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم فى مقام إراءته من آيات ربه الكبرى بأكمل كمال الأدب والعبودية فقال (ما زاغ البصر وما طغى) وإلى هذه الدقيقة الذوقية يشير الإمام الرازى بقوله فى تفسيره (الذى رآه ابراهيم ملكوت السموات والأرض والذى رآه محمد صلى الله عليه وسلم بعض آيات الله تعالى ، ولا شك أن آيات الله أفضل) .

وقد يتأكد استئناسنا لهذا الفهم بما رواه الطبرى من حديث عبدالرحمن ابن عائش الحضرمى يقول : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة فقال له قائل ، ما رأيتك أسفر وجهاً منك الغداة ، قال : (ومالى وقد تبدى لى ربى فى أحسن صورة . فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟

قلت : أنت أعلم يارب ، فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى ، فعلمت ما فى السموات والأرض) ثم تلا هذه الآية « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

وموضع تأكيد الاستئناس أن الحديث الشريف ربط بين حالة سيدنا رسول الله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فى تجلى الله عليه تجلياً خاصاً علم به ما فى السموات والأرض ، وبين الآية الكريمة فى إرادة سيدنا ابراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام ملكوت السموات والأرض بتلاوتها بعد إخباره بما أوتيه من الاختصاص بالتجلى الأعظم إشارة إلى تشابه الحالتين .

والحديث الشريف من باب التمثيل لتقريب الحقائق العليا لادراك الأعلين من غير ذوى الاختصاص الاعز أما هم فحالهم شهود هذه الحقائق فلا يحتاجون إلى تصويرها بغير صورتها التى هى لها ، ومن هنا يمكن أن يقال : إن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « تبدى لى ربى فى أحسن صورة » أنه كشف عنى حجب أنواره وسبحات جلاله ، فرأيت وعلمت مالا يمكن التعبير عنه . ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم « فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى » تصوير لنوع من قرب الاختصاص الذى تنكشف به الحقائق الكونية إنكشاف مشاهدة ـ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « فعلمت ما فى السموات والأرض » .

ومعنى التشبيه ـ على هذا ـ أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم : ومثل ما خصصناك به فى مقام الاختصاص الأعز من إراءتك آياتنا الكبرى فى عوالمنا التى لا تتناهى بها فيوضاتنا فى ملكوت السموات والأرض وغيرها لتنطلق فى مقام العبودية سابحاً فى بحار جلالنا ، مستغرقاً بأنوار الكمال ، مسبحاً آناء الليل وأطراف النهار فى مقام

« لعلك ترضى » كما قال صلى الله عليه وسلم فى مأثور تحميداته فى الصلاة « ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » .

مثل إراءتك هذه أرينا أباك خليلنا ابراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض ، وأطلعناه على أسرار ما فيهما من كائنات تدل على ربوبيتنا وإلهيتنا ، ووحدة عظمتنا ، وانفرادنا فى تدبير ملكنا ، ليكون من أهل اليقين والرسوخ الذين لا تحجبهم أنوار الخلق عن إشراق الايمان بالخالقية ، لتقوم له الحجة الباهرة على قومه الذين جادلوه بالباطل فى شأن ربه (وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان) .

وقد أكثر المفسرون فى تأويل وفهم الآية الكريمة (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى) وأوردوا روايات الله أعلم بحالها .

والذى جنح إليه المهرة من حذاق المتأولين لكتاب الله تعالى أن الآية من باب المنهج العقلى فى الاحتجاج على الخصم ، وليست من باب حكاية الاعتقاد والايمان ، فابراهيم عليه السلام خاصة وكل نبى لله تعالى لا تأتى عليه لحظة منذ خلقه بشراً سوياً وهو فيها غير عالم بالله تعالى مؤمن بوجوده ، عارف بكماله ووحدانيته .

وفى ذلك يقول إمام المفسرين المتأولين أبو جعفر الطبرى حاكياً عن غير أهل الرواية: غير جائز أن يكون لله نبيٌّ ابتعثه بالرسالة ، أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو لله موحد ، وبه عارف ، ومن كل مايعبد من دونه برىء . قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة ، لأنه لا معنى فيه إلا وفى غيره من أهل الكفر به مثله ، وليس بين الله وبين أحد من خلقه مناسبة ، فيحابيه باختصاصه بالكرامة .

قالوا : وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله فى نفسه ، فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة . وزعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس : « هذا ربى » ، لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه ، وإنما قال ذلك على وجه الانكار منه أن يكون ذلك ربه . وعلى العيب لقومه فى عبادتهم الأصنام ، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام ، ولم تكن مع ذلك معبودة ، وكانت آفلة زائلة غير دائمة ، فالأصنام التى (هى) دونها فى الحسن وأصغر منها فى الجسم ، أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة . قالوا : وإنما قال ذلك لهم ، معارضة ، كما يقول أحد المتناظرين لصاحبه معارضاً له فى قول باطل قال به بباطل من القول على وجه مطالبته إياه بالفرقان بين القولين الفاسدين عنـــده ، اللذين يصحح خصمه أحدهما ويدعى فساد الآخر .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه : والذى أوتيه ابراهيم من العلم بالحجة وهى التى تذكر للخصم على طريق المقابلة كان فى الدنيا بظهور دلالة التوحيد وبيان عصمة ابراهيم عن الجهل بالله تعالى والشك فيه والاخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجاً ولم يكن اعتقادا .

وقال القرطبى فى أحكامه : غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو موحد ، وبه عارف ، ومن كل معبود سواه برىء ، وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوته ليكون من الموقنين ، ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة ، بل عرف ربه أول النظر .

* * *

بروح هذا المنهج العقلى فى الملتين ، الملة الحنيفية المسلمة فى رسالة

ابراهيم خليل الله عليه السلام ، والملة الاسلامية ، فى رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، توثقت عرى الوشائج بينهما ، فكان ابراهيم عليه السلام فى رسالته حنيفاً مسلماً ، يدعو إلى توحيد الله بحجة العقل ، وبرهان المنطق الفطرى الذى ركزه الله جبلة فى الفطرة الانسانية التى فطر الناس عليها كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[1] .

وإلى هذه الفطرة يشير الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث عن الله تعالى فقال : (إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً) ومعناه أن الله تعالى خلق الناس مفطورين على توحيده ، مائلين بعقولهم عن الاشراك بالله ، وإن الشياطين أتتهم فاستخفتهم بالقاء الشبه والشكوك فى طريق تفكيرهم حتى أخرجتهم عن فطرتهم الأصيلة النقية ، فانحرفوا عن دينهم الحق ، دين الفطرة الحنيفية المسلمة لله تعالى وحده ، فحرمت عليهم ما أحل الله لهم ، وزينت لهم الكفر والفسوق عن جادة الفطرة الأصيلة . وأمرتهم أن يشركوا بالله وينحرفوا عن مهيع الفطرة ومنهج العقل ومنطق البرهان بالتقليد للآباء والأسلاف وتأثير البيئة العامة والخاصة كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما من الأئمة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه) فالفطرة التى يولد عليها كل مولود هى الحنيفية ملة الاسلام لله تعالى التى كان عليها ابراهيم

---

(١) سورة الروم آية (٣٠)

خليل الله ، وجاءت بها الرسالة العامة الخاتمة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمناهجها العقلى وأسلوبها الفطرى .

وهذا المنهج العقلى الذى يستمد من الفطرة الأصيلة قوته هو الذى كان به ابراهيم عليـــه السلام حنيفاً مسلماً لأنه خالف قومه ، ومال عن طريقتهم الفاسدة وأسلم وجهه لله تعالى بعد أن قامت لديه البراهين القاطعة على وجوده تعالى ووحدانيته كما حكى عنه القرآن العظيم ذلك فى قوله جل شأنه (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) (١) .

وهـــذا المعنى فى تفسير اسلام ابراهيم هو الذى طلبه ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام لنفسهما أثر فراغهما من بناء الكعبة المشرفة قبلة المسلمين ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، تسلم وجهها لله تعالى عرفاناً بتوحيده وجلال كبريائه وأن يبعث فى هذه الأمة رسولا منها ، من أفضل أرومتها ، يتلو عليهم آيات الله التى ينزل عليه بها وحيه ، ويعلمهم الكتاب ويبين لهم ما حواه من أصول العقائد ، وفروع الشرائع والآداب ، ويعلمهم الحكمة ، والحكمة هى المنهج العقلى النابع من الفطرة الأصيلة ، ذلك المنهج الذى تقيم عليه تلك الأمة حجتها ، وتبنى عليه نظام حياتها ، ويزكيهم تطهيراً لهم من أرجاس الوثنيات ، وجمود التقليد على موروث الآباء والأسلاف ، على ما قال ربنا تبارك وتعالى (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (٢)

---

(١) سورة الانعام آية (٧٩)   (٢) سورة البقرة آيات (١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩)

وهذا المنهج العقلى هو الأساس فى ملة ابراهيم ورسالته الحنيفية المسلمة وهو الذى أحياه القرآن العظيم بعد أن درست معالمه ، وطمست طرائقه ، وهجرت أساليبه ، فأوحى الله إلى رسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل هذا المنهج العقلى قاعدة دعوته ، ودعامة رسالته ، وأصل شريعته فى كل ما تتطلبه حياة الانسانية من تثبيت عقيدة التوحيد وإبطال الشرك ، وهو المنهج الذى هداه الله إليه وجعله صراطه المستقيم ودينه القيم (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)(١) . وأنزل عليه قوله تعالى بعد أن أثنى على خليله ابراهيم بأنه كان إماماً للموحدين خاشعاً لله ، مائلا إلى نهج الحق والهدى . (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)(٢) والآية صريحة فى أن هذا الاتباع إنما هو وحى من الله أوحاه إلى خاتم النبيين ليجدد به لملة الاسلام المنهج العقلى القائم على أسلوب الفطرة الأصيلة التى كان عليها ابراهيم عليه السلام ولذلك جعل هذا الاتباع أحسن الدين فقال : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً)(٣) ويبين أن خصيصة هذه الملة هى اليسر ورفع الحرج فى التكاليف فقال تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم)(٤) . ومن المحال أن يكون هذا الاتباع المأمور به محمد صلى الله عليه وسلم تقليداً لابراهيم عليه السلام أو نقلا عنه ، لأن بداهة العقل تحيل أن يؤمر رسول من عند الله أرسله بشريعة كاملة مستقلة بتقليد شريعة لم ير رسولها ولم يجتمع به لمجرد التقليد من غير وحى بها إليه وإنما المقصود بهذا الاتباع المأمور به فى ملة الاسلام هو إحياء منهج العقل ، الذى قامت عليه الملة الحنيفية ، ملة ابراهيم عليه السلام ، فكما كانت ملة ابراهيم فى منهجها العقلى

---

(١) سورة الانعام آية (١٦١)
(٢) سورة النحل آية (١٢٣)
(٣) سورة النساء آية (١٢٥)
(٤) سورة الحج آية (٧٨)

وحياً من عند الله ، فشريعة الاسلام فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنهجها العقلى المعتمد على الفطرة الأصيلة وحى من عند الله تعالى .

والمراد التذكير بما كان ثابتاً فى وحى الله إلى رسوله وخليله من الاعتماد على المنهج العقلى فى محاجة قومه ، بعد أن أضاع ذلك طول الزمن ، وجمود عقل اليهود وبلادة أذهانهم التى بلغت فى صفاقتها أنهم بدلوا نعمة الله كفرا فى صورة سخيفة تافهة فالله تعالى اصطفاهم وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها ، وأتم لهم كلمته الحسنى بالنصر والتأييد والنجاة من ظلم فرعون وجبروته وطغيانه ، ولكنهم لم يلبثوا إلا ريثما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر فأتوا فى العدوة الأخرى على قوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم يعبدونها من دون الله ، فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فرد عليهم موسى عليه السلام بما كشف عن طبيعتهم الجاهلة البليدة التى لم تحتمل طعم التوحيد بذوقه العقلى ومنهجه البرهانى فقال لهم (إنكم قوم تجهلون) .

وكان النصارى أشد بلادة من اليهود ، لأنهم فارقوا التوحيد وجعلوا هذا الفراق منهجاً لهم، ولفوا عقائدهم فى أغلفة الغموض والإبهام وأغلقوا دونها نوافذ البحث والمحاجة وجعلوها أسراراً فلسفية لا يباح النظر فيها ، بل على المؤمن بنصرانيتهم أن يغمض عينيه ويهدر كرامة إنسانيته ويلغى تفكيره وينسى عقله وينكر قلبه ووجدانه ثم يسمع ما يقال له فيعتقده دون نقاش أو فهم لما يقال ، وهذه بلادة منهجية ، وجمود عقلى لا تستقيم مع طبيعة الحياة .

ومع هذا الواقع الذى كان عليه حال أصحاب هاتين الملتين من الانحراف عن المنهج العقلى فى الملة الحنيفية ملة ابراهيم ، فقد كان كل فريق منهم يزعم فى بلاهة وبلادة أن ابراهيم كان على ملته ، فاليهود قالوا ـ افتراء على الله ـ

إن ابراهيم كان يهودياً ، والنصارى قالوا ـ كذباً وضلالا ـ أن ابراهيم كان نصرانياً ، فرد الله عليهم هذا الافتراء والضلال بقوله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون (١)) ومعنى محاجتهم فى ابراهيم أنهم زعموا أن ابراهيم كان فى ملته على نهج توراتهم وانجيلهم فى المحاجة ، ومعنى رد الله عليهم أن التوراة والأنجيل ليس فيهما منهج ابراهيم فى المحاجة ، لأن ابراهيم كان يحاج قومه الذين غلبت عليهم عبادة الكواكب بصورتها المفلسفة ، فكان يحاجهم بمنهج الفطرة العقلى الذى قهرهم به ، وقامت له عليهم به الحجة ، أما التوراة والأنجيل فقد أنزلا بعد ابراهيم بقرون كثيرة ، ولم يكن موسى وعيسى عليهما السلام وهما رسولا اليهودية والنصرانية فى حاجة إلى منهج ابراهيم العقلى وإنما كانا فى حاجة إلى معجزات مادية قاهرة للفطرة على الإيمان عند رؤيتها ، وقد آتاهما الله ذلك ، وقهر موسى فرعون ، وابتلى عيسى بغلاظ الاكباد من اليهود ، فلم تثمر دعوته الرحيمة فيهم فرفعه الله إلى ملكوته وتركهم فى غيهم يعمهون .

والرسل إنما ترسل فى الأمم مؤيدة بما يناسب حال كل أمة ، وهذا هو مقتضى العقل ، فلذلك وبخوا بأسلوب تقريعى يسخر منهم على عدم فهمهم لهذه القضية البديهية ، فقيل لهم (أفلا تعقلون) هذه البداهة الواقعة أمام حسكم على صفحات التاريخ .

ثم جاء النفى الصريح الذى يقرع أبواب عقول هؤلاء الجامدين فقال تعالى (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً) ـ أى فى منهجه الذى قامت عليه حجته ـ ولكن كان حنيفاً ـ أى مائلا إلى الحجة والبرهان العقليين اللذين حاج بهما قومه ، فحجهم ، وغلب منطقه منطقهم مسلماً وجهه لله

---

(١) سورة آل عمران آية (٦٥)

وحده ، وما كان فى لحظة من لحظات حياته من المشركين الذين انحطوا بعقولهم ، فعبدوا أوثانا من دون الله ، واتخذوا أصناماً آلهة ، فانحرفوا بانسانيتهم عن موجبات كرامتها وشرفها ، فلم يصلحوا أن يكونوا من ابراهيم عليه السلام فى شيء ، ولا أن يكون ابراهيم منهم فى شيء (إن أولى الناس ابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) (١)

* * *

وللمنهج العقلى فى رسالة ابراهيم عليه السلام صور مختلفة أوردها القرآن الكريم فى عدد من سوره غير ما ذكرناه من نماذجها .

ففى سورة (الأنبياء) صورة من نماذج هذا المنهج بلغ فيها الحجاج غايته التى انتهت إلى أن العقل الانسانى على كثرة العقبات فى طريقه عند قوم ابراهيم ـ تيقظ فى لحظة من لحظات الاشراق الفكرى فى أثناء المحاجة وتنبه إلى ما انزلق فيه من منحدر الوثنية البليدة ، وأراد أن يثوب إلى موجب الفطرة الأصيلة ، ولكن الصدأ الذى تراكم على هذه الفطرة حجب عنه نور إشراقة اليقظة الطارئة . تلك الاشراقة التى جعلت قوم ابراهيم يعترفون بأنهم ظالمون فى اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله الواحد الأحد . وهذه الأصنام ، على مرأى أعينهم ومسمع آذانهم ، عاجزة لا تنطق ، ولا تنفع عابديها العاكفين لها شيئاً من نفع ولا تضر أحداً شيئاً من ضرر .

وقد يلمح الناظر فى هذه المحاجة لونا من السخرية بعقول هؤلاء القوم أريد به تحريك خصائص انسانيتهم بايقاظ بدائه الفكر ، وريادة العقل لتدرك الحق المحجوب بسحائب التقليد البليد والجمود المظلم على موروثهم من عقائد الأسلاف ، فلمعت لهم منه لامعة انقلب بها حالهم من بلادة

---

(١) سورة آل عمران آية (٦٨)

بلهاء إلى نظرة عقلية عابرة كومض البرق الخادع ، رجعوا فيها إلى فطرتهم فظلموا أنفسهم ولكن سرعان ما أظلم عليهم برقهم ، فنكسوا على رؤوسهم وارتدوا إلى بلادتهم القاتمة ، وعادوا إلى شركهم وتقليدهم لآبائهم .

والقرآن الحكيم يعرض هـــذه الصورة فى براعته البيانية لتكون نموذجاً من نماذج المنهج العقلى فى محاجة المبطلين ، ليحتزيها أنصار الحق فى مناظراتهم ، مع مافيها من أدب الصراحة وشجاعة الحق. يقول الله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين)[1] :

فاتياء ابراهيم رشده وصلاحه ومعرفته بربه من قبل الانعام عليه بالنبوة والرسالة يمكن أن يكون إشارة إلى مرتبة الخلة التى يحتمل أن يكون

---

(١) سورة الأنبياء آيات (٥١ — ٧٠)

أوتيها الخليل عليه السلام قبل أن يؤتى الرسالة ، وقد يرشح هـذا المعنى قوله (وكنا به عالمين) وهو تخصيص من عموم (الله أعلم حيث يجعل رسالته) تنويها باختصاص ابراهيم بمزيد من الفضل والقرب والمعرفة بالله تعالى .

وإجابة ابراهيم عليه السلام عن سؤال قومه فى تكسير أصنامهم إجابة فى منتهى الصراحة والصدق ، وكأنه قال : نعم أنا فعلته إن لم يكن كبيرهم غيوراً على مكانه منهم ويكون هو الفاعل أداءً لحق غيرته فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون فسيجيبوكم عن سؤالكم فلما رجعوا إلى أنفسهم وثابوا إلى عقولهم لحظة من الزمان حكموا على أنفسهم بأنهم هم الظالمون فى اتخاذ هذه الأصنام آلهة ، ولكن سرعان ما انتكس غزل تفكيرهم وعادوا إلى شركهم وسوء تفكيرهم ، فأنكر عليهم ابراهيم عليه السلام هذا الموقف المتهافت ، وأبرز القرآن الحكيم إنكاره فى صورة تعبر عن خوالج نفسه ، وما يختلج فيها من ألم كظيم فى سخرية من عقولهم (إف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فلم يجدوا فى أنفسهم قدرة للمقاومة أمام قهر الحجة إلا غرائزهم الوحشية يسلطونها على رسول الله وخليله ابراهيم عليه السلام بأبشع صور التنكيل والتعذيب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) كما يفعل المغيظ المحنق العاجز عن المحاجة ، ولكن الله الرءوف الرحيم أمر نارهم ـ وهى بعض خلقه ـ أن تنقلب حقيقتها إلى ضدها فتكون على خليله برداً بديلا عن الاشتعال والتلهب ، وسلاماً بديلا من الاهلاك والتدمير ، ونجى الله خليله من القوم الظالمين .

* * *

وفى سورة (الشعراء) جاءت صورة لهذا الانموذج الحجاجى جارية على أصول المنهج العقلى بأسلوب قريب ، يلمس القلوب ، ويهيج الوجدان أكثر مما يوغل مع العقول فى مداخل المنطق الفكرى .

والذى اكسبه هذه الخاصة أنه دخل مدخل إيقاظ العواطف الانسانية فى رغائب الأفراد من الناس فابراهيم عليه السلام سأل قومه عن معبوداتهم سؤال تجهيل لهم وتهانف على موقفهم مع أصنامهم ، فأجابوه اجابة العقل المقلد البليد ، فناظرهم وقهرت حجته مزاعمهم ، ثم ألقى اليهم بما يحرك فيهم عواطف الرغبة ، فوصف ربه رب العالمين بعد أن أعلن عداوته الصارخة لمعبوداتهم من دون الله تعالى بأنه (الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين)[1] .

وهذه أوصاف كريمة رحيمة ، يلمس كل انسان رقتها ولطفها ، وتلمس هى شغاف كل قلب بالحب والرغبة مع أكمل أدب النبوة والخلة فى الاسناد والاختصاص ، فالصفات كلها عدا صفة (الامراض) مسندة إلى الله تعالى خالق كل شيء ، واقتضى أدب الخلة ألا يتحدث عن صفة (الامراض) وإنما تحدث عن نزول المرض بالجسم فقال (مرضت) أما الشفاء ورفع ما نزل بالجسم من المرض ، فهو من صفات الاسناد لله رب العالمين .

* * *

وفى سورة (الصافات) ورد هـذا الانموذج للحجاج العقلى فى صورة أخرى فى حجاج ابراهيم لقومه بأسلوب عاد به إلى طريقة الأنموذج الأصيل لهذا المنهج فى إراءة ابراهيم لملكوت السموات والأرض لتقوى حجته على قومه وليكون من أهل اليقين والرسوخ فى معرفة الله ببراهين آياته فى ملكوته .

بيد أن هذا الأنموذج فى سورة الصافات لم يكن من قبيل الأسلوب المنطقى الغواص مع العقل فى أعماق الفكر ، ولكنه جاء بأسلوب الفطرة

(١) سورة الشعراء آيات (٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢)

المعتمدة على الحس العام الذى يتساوى فى ظواهر مدركاته العام والخاص ، لتقوم به الحجة على الكافة ، ويؤخذ به من ضل عناداً ، ومن ضُلل جهالة.

والقرآن الحكيم يبدأ هذا الأنموذج بالثناء على الخليل إبراهيم عليه السلام بأنه أقبل على ربه منذ تولاه بالخلة بقلب طاهر مطهر سليم من الغير ، ليس فيه لغير الله تبارك وتعالى متسع ، وهو بهذا القلب العامر بمشاهدة ملكوت الله توجه إلى أبيه وقومه يسائلهم فى عجب من ضلال عقولهم عن بداهة الحق (ماذا تعبدون ؟) وهو تساؤل لا ينتظر إجابة ، ولكنه تساؤل تسفيه لآرائهم فى ائتفاكهم آلهة من دون الله يريدون ، وتهجين لمذهبهم فى إشراكهم مع الله أصناماً بأيديهم ينحتون ، وقد أخذه عليه السلام العجب من شأن هؤلاء الضالين ، فنظر إلى مؤلهتهم من النجوم والكواكب الطالعة الآفلة ، وهى تحمل دلائل مخلوقيتها للذى فطر السموات والأرض ، فتألم لهم ومنهم أشد الألم ، لأنهم أهدروا نعمة العقل الذى آتاهم ربهم ، وطرحوا كرامة إنسانيتهم تحت أرجل أصنامهم ، وعبر عن ألمه (فقال إنى سقيم) ولا شك أن الألم ولاسيما ألم القلب بالأسف والحزن والتحسر — سقم أى سقم ، ومرض من أشد أنواع المرض ، فهذا إخبار حق واقع ، وصدق قاطع ، لا شبهة شك فيه .

ثم يمضى الحديث مصوراً موقف الخليل عليه السلام وموقف قومه منه إلى نهايته التى هى نهايته فى جميع نماذجه ، وهى دائماً نهاية الصراع بين الحق والباطل . يقول الله تعالى (وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم

وماتعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين)[1] .

* * *

هذه أربعة نماذج للمنهج العقلى الذى قامت على دعائمه أصول العقيدة فى الملة الحنيفية ، رسالة إبراهيم عليه السلام ، ساقها القرآن الحكيم بياناً للأسلوب الذى سلكه فى إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود وربقة التقليد .

والقرآن العظيم يستهدف من هذا السياق — مع ما أشرنا إليه من وثاقة الصلة بين الملتين الحنيفية والإسلامية — اتخاذ هذا المنهج أسلوباً شاملا أصيلا للملة الإسلامية ، رسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، تقوم على دعائمه أصولها وفروعها فى جميع ما يغنى فيه العقل من نُظُم الحياة الاجتماعية ، أو يتهدى إليه بإرشـــاد الوحى الإلهى فى العقائد والتعبدات ، وطرائق السلوك والتربية الخلقية ، ووزن الفضائل بميزان العدالة ، وتقويمها بتقويم الأمر والترغيب من رب العالمين ، تحقيقاً لعموم هذه الرسالة المحمدية عموماً يشمل الإنسانية أجناساً وألواناً ، أفراداً وجماعات ، وأجيالا وقروناً متتابعة ، وأعصراً وأزماناً متتالية وأوطاناً وأقطاراً ، وأمماً وشعوباً ، وتحقيقاً لخلودها ببقاء الإنسانية على ظهر هذه الأرض التى يحيا الناس عليها .

ذلك لأن العقل الإنسانى كائن كونى ، مرّ فى أطوار حياته حتى شب واكتهل ، وبلغ رشده واستوى واستقام له الأمر فى التفكير والوقوف على الحقائق الكونية التى يتجه إلى معرفتها ، فكان لا بد له من الإنطلاق

(١) سورة الصافات آيات (٨٣ — ٩٨) .

الحر ليبنى مستقبل الإنسانية على أسس إيجابية حية تضمن وجود نظام اجتماعى متماسك ، يحكمه العدل وتزينه الرحمة ، وتعيش فى ظله الإنسانية حرة كريمة ، متصلة بقوى الخير ، عارفة بربها معرفة تفرده بالتعبد والتقديس .

وللقرآن الكريم فى هدايته التى يقصد بها إلى إيقاظ العقل وتحريره ألوان من الأساليب البيانية يستثير بها هذا العقل ليثير أسرار الحياة الدفينة فى آيات الكون ، ويتعرف حقائق الوجود ، ويكشف عن عناصر الطبيعة ، ويدرس ظواهرها المتفاعلة ، ليقف على مدى تسخيرها للإنسان وانتفاعه بهذا التسخير قياماً بحق التكاليف الإلهية إلى أقصى ما يمكن أن يدفع بالإنسانية فى آفاق التقدم الحضارى بقدر ما تستطيع أن تصل إليه وتحققه الطاقة البشرية .

وهذه الألوان من الأساليب البيانية فى هداية القرآن هداية توقظ العقل من غفوته وتحرره من عبوديته بلغت من الكثرة حداً لا يبلغ الحصر استيفاءها ، ولا الكتابة استيعابها ، فلا جرم أن اكتفينا بالشواهد والأمثال نسوقها من آى القرآن نماذج لإشباهها .

يقول الله تعالى (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم

تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)[1] .

وقال عز شأنه (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)[2] .

والقرآن الكريم يجمل هذا التفصيل مبيناً حكمة الله فى خلقه ، وأنه تعالى خلق هذه النعم العامة والخاصة للانسان خاصة ، لينظر فيها نظر اهتداء بها إلى عظمة خالقها ، ونظر انتفاع بها بما فيها من خير وجمال وجلال فيقول ربنا تبارك وتعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً)[3] .

فأفاد بقوله (هو الذى خلق) انفراده بالكمال الوجودى المتجلى فى مظهر خالقيته ، وأفاد بقوله (خلق) مناط الدلالة فى الكائنات على وجوده وقدرته ، وسريان حكمته فى الموجودات ، وأفاد بقوله (لكم) اختصاص الإنسان ومدى سلطان خلافته فى الأرض ، وتسخير ما عليها من كائنات له ، ليعتبر بما فيها من دلائل القدرة الإلهية ، وينتفع بما فيها من نعم الله تعالى المكنونة فى ذرات عناصرها ، وهذا يقتضيه إجالة النظر والبحث فى حقائقها لتتجلى له حكمة الله فى خلقه ، وأفاد بقوله (جميعاً) شمول العبرة

(١) سورة النحل آيات (١٠ — ١٧) .
(٢) سورة الرعد آيات (٢ ، ٣ ، ٤) .
(٣) سورة البقرة آية (٢٩) .

لكل كائن على الأرض ، والانتفاع بكل كائن حتى لا يتعاظم الإنسان شيء على الأرض إلا وهو مقهور له بتسخير الله خاضع لسلطان عقله وتفكيره ويجرى هذا المجرى قوله تعالى (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره)(١) . ويقول جل وجهه (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)(٢) .

وقد أكثر القرآن الكريم من إخبار الله تعالى بإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها ، ولكنه يخرج هذا الأخبار مخارج متنوعة ، فتارة تراه يسوقه مثلا للدنيا وزينتها وسرعة تقضيها ونفادها مهما اخضرت وزهت وأينعت ثمارها ، كما فى نحو قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)(٣) وقوله تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا)(٤) .

---

(١) سورة الحج آية (٦٥)
(٢) سورة النحل آيات (٦٥ — ٦٩)
(٣) سورة يونس آية (٢٤) .
(٤) سورة الكهف آية (٤٥) .

وتارة يسوقه برهانا على صحة البعث بيانا لقدرة الله فى الأمور المشاهدة المحسوسة التى يؤمن الحس بوقوعها ، وإن كان يجهل كيفيتها ، ليقيس العقل أمر البعث على هذا الواقع المشاهد المحسوس، فلا يتعاظمه التصديق به كما فى قوله تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)[١].

وكما فى قوله تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير)[٢] .

وتارة يسوقه لمجرد العبرة للتهدى به إلى معرفة الله والإقرار بوجوده وكمالاته كما فى آية النحل ويرشد إليه تعقيبها بقوله (إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) لأن المقصود به من يسمع سماع تعقل وتفكير فيهتدى إلى المعنى الذى من أجله كان ذلك آية من آيات الله وعبرة فى أسرار خلقه .

ويؤكد ذلك مجيء العبرة فى آية خلق الأنعام والانتفاع بها بعد آية إنزال المـاء من السماء ، وتفصيل العبرة فى خلق الأنعام باخص منافعها للانسان ، منفعة قد تدخل فى تكوين عناصره وتقويم بدنه ، وهى من أجل منافع هذه الأنعام فى حياة الناس وأعمها بيئة وزمانا وأجيالا وخلاصة العبرة فى هذه الآية التكوينية البديعة هى فى تصوير الإنعام فى خلق الأنعـام لأجل نفع الإنسان بهذه النعمة ، فالتعبير عنها بقوله (نسقيكم مما فى بطونه) يصور جمال هـذه النعمة فى تيسير الانتفاع بها المأخوذ من قوله (نسقيكم) فهى سقياً وشراب لاتعب فيه بالإعداد والتهيئة والتحضير فى طريقه إلى منافذ توزيعه على أعضاء الجسم للانتفاع به .

---

(١) سورة الحج آيات (٥ ، ٦ ، ٧)   (٢) سورة فصلت آية (٣٩)

والابهام فى قوله (مما فى بطونه) آية من أعمق آيات العبرة ، لأن ما فى بطون الأنعام ليس فقط هو الغذاء والماء وإنما هناك إفرازات الغدد الكثيرة التى عرف العلم بعضها ولا يزال معها فى طريق البحث ، وهناك عناصر هذه الإفرازات : وكيفية تكوينها ، ومن أى الأشياء تتكون ، وهناك الأعضاء الداخلية المهيئة لهذه الإفرازات وتوزيعها بأقدار محددة، وهناك ما لم يكشف عنه العلم مما فى بطون الأنعام ، وهناك العروق والأعصاب الداخلية فى دقة نظامها ، وإعداد الكل للقيام بمهماتها فى تمثيل الطعام بما يشبه الأنابيب الدافعة والمستقبلة ، وهناك أعضاء الخلط والمزج لما يدخل المعدة من الطعام والشراب ، وهناك أعضاء الفرز والتمييز بعد التمثيل ، وهناك الكثير مما يعجز العقل عن حصره .

وكل ذلك عبر عنه القرآن العظيم بقوله (مما فى بطونه) بهذا الإيجاز المعجز ، وهو أشبه بوحى الرمز والإشارة ، بيد أنه فى إفهامه المعنى وأدائه المقصود أوضح من الإسهاب المطنب ، والتفصيل المطيل .

ثم جاءت بعد ذلك عبرة العبر ، فالقرآن فى بيانه المعجز لم يكتف بقوله (نسقيكم مما فى بطونه) لما فيه من الإبهام الذى قد تنفر عنه بعض النفوس، وهذا الإبهام كان يمكن دفعه بذكر مفعول الفعل (نسقيكم) بلفظه متصلا بمتعلق الفعل، فيقال (نسقيكم مما فى بطونه لبنا خالصا) ولكن البيان القرآنى لم ينهج فى أسلوبه هذا النهج ، بل اتبع متعلق الفعل (مما فى بطونه) وقد أشرنا إلى بعض ما فيه من لوامع الأعجاز،بما يقيم فوق مناره معجزة الأعجاز فى هداية القران ، ومعجزته فى براعة البيان ، فقال : (من بين فرث ودم لبنا خالصا) وهنا مجال العقل وغوصه الى أعماق الآيات الكونية ، ليعرف فيها عظمة القدرة الإلهية ، باحثا متعمقا منطلقا فى أجواء العلم والمعرفة ليهتدى إلى بديع صنع الله تعالى .

فهذا الشراب الشهى اللذيذ ، الهنى المرى ، الحلو السائغ يتولد من بين (أزبال كرش الحيوان ودمه) سيقول المتأففون (أف.أف) وسيقول العلم الطبيعى ، والتحاليل العنصرية ، وتقول مخابر تفتيت المواد إلى عناصرها المعروفة ، وتقول معامل الطبيعة فى معاهد العلم ومدارسه ما تقول من نظريات وصلت إليها فى طريق تركيب المواد وتحليلها وتحويل بعض المواد بنسب خاصة بين العناصر وذرات المادة، ولكن العلم بمخابره ومعامله وتحليلاته لا يستطيع أن يقول كيف خرجت ذرات هذا الطعام اللذيذ الهنيء الذى تشغف بحبه النفوس من بين (الفرث - زبل الكرش - والدم) المستقذرين لدى النفوس ؟ ويتساءل بعد ذلك كيف تجمعت بهذه النسب الخاصة وتكونت لبنا خالصا ؟ وكيف امتزجت بنسبها الخاصة لم تزد عنها أو تنقص منها ؟ وهل بمجرد وجود هذه النسب الخاصة بين ذرات المواد كاف فى تكوين مادة أخرى ؟ أو أن هناك احتمالا قائما بوجود عوامل أخرى قد تكون مادية ، وقد تكون غير مادية لها دخل فى تكوين المادة الثانية بعد تحقق تلك النسب ؟ سيقول العلمانيون من أحلاس المعامل والمخابر وعبيد المادة ، أليس قد صنع (اللبن) بعيدا عن الفرث والدم ، و بعيدا عن بطن الحيوان ، وسرى بين الناس جافا معلبا فى علبه ، وشربه الناس بعد أن أذابوه بالماء ، فشربوا منه لبنا خالصا سائغا للأطفال والشاربين ؟

نعم ، بلى ، قد كان ذلك ، ولكن سلوا أهل الاختصاص من أهل العلم المتواضعين لنعمة العلم هل هذا كذلك ؟ وفى أهل الاختصاص من علماء تحليل العناصر المادية أدباء الأسلوب يجيبون عن هذا التساءل بقول الشاعر : ليس التكحل فى العينين كالكحل ، والعقل يقول : ليس التطبع كالطبع ، وليس المقلد كالأصل ، فليمض العلم فى بحثه ليكشف حقائق الآيات الكونية فى بيان الهداية القرآنية عن طريق العقل الحر الطليق.

الذى أيقظته تلك الهداية من غفوته وحررته من عبودية الجمود على موروث الآباء والأسلاف .

* * *

ثم اتبع القرآن الكريم آية الأنعام بخلق الأنعام آية كونية عجيبة فى أسلوب من براعة البيان القرآنى فقال (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون[1]) وموطن الإبداع فى هذه الآية أنها تتحدث عن عظمة قدرة الله تعالى ـ الذى أخرج اللبن الشهى اللذيذ من بين زبل الكرش والدم طعاماً سائغاً للشاربين ـ فى أنه تعالى جعل من ثمرات النخيل والأعناب خصائص الخير ومحض الأنعام إذا تناولها الإنسان كما خلقها بارئها دون عمل منه يحولها عن حقيقتها الأنعامية ، وجعل منها خصائص إذا عولجت بعمل الإنسان تحولت عن حقيقة الخير والأنعام إلى مصدر شر وانتقام ، فهى ثمرة واحدة أثمرتها شجرة واحدة ، سقيت بماء واحد واستخلصت عناصر غذائها من تربة الأرض التى نبتت فيها ، وفيها هذه الخصائص المتخالفة التى يستطيع الإنسان أن يتخذ منها رزقاً حسناً وطعاماً شهياً نافعاً ، وفاكهة لذيذة مفيدة ، ويتخذ منها سكراً يفسد عقله وجسمه ، فتكون عليه شراً ووبالا بعد أن كانت نعمة وخيراً ، فهذه الآية من قبيل قوله تعالى (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[2]) ولذلك اتحدت فاصلتهما لتنبيه العقل إلى موطن الدلالة فى الآيتين على عظمة قدرة الله ووحدانيته ومحكم تدبيره ، وبالغ حكمته ، وقد وقع الامتنان بهذه النعمة باعتبار أصل وجودها قبل عبث الإنسان بها ، ووقع بها الاستدلال

---

(١) سورة النحل آية (٦٧) . (٢) سورة الرعد آية (٤) .

على عظمة القدرة الالهية باعتبار ما فيها من الخصائص المتخالفة فى غايتها .

أما حديث النحل ودلالة هذا الكائن العجيب البديع على جلال الله وعظيم صنعه وما أودعه الله فيه من خصائص يعجز العقل والعلم عن الإحاطة بها ، ولكنها بيّنة الأثر ، فى دلالتها على إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود ليبحث ويفكر ويستنتج فهو حديث طويل عريض ، متسع الجوانب ، تبادله الباحثون من العلماء وأهل الاختصاص فى دراسة طبائع الكائنات الحية وآثارها فى الحيـــاة وإن كانوا منه فى النقطة التى يبدأ منها الخط المستقيم ، وقد أصبح للنحل مناحل دولية ، وله بحوث ودراسة عميقة فى معاهد الزراعة وكلياتها الجامعية .

والذين فتحوا أنظارهم على ثمرات هذه الدراسات العلمية الحديثة عرفوا ما قال ويقول العلم عن طبائع هذا الكائن وعن منافع هذا الشراب الذى لا تفيه كلمة (حلو) حقه من وصف (الحلاوة) والذى لا زال العلم منه فى موقف البحث ، كيف تكوّن ؟ ومم تكوّن ؟ وكيف اختلفت ألوانه ؟ ومن أين تأتيه هذه الخصيصة ، خصيصة (الشفاء للناس) ؟ ومن أى الأمراض يشفى ؟ وهنا أيضاً سيقول علماء الطبيعة وتحليل العناصر المادية وأحلاس المخابر والمعامل مثل ما قالوا فى (اللبن) وسيقول لهم العقل الذى أيقظته هداية القرآن ، تعالوا معى ، فأنا وأنتم فى نقطة البداية على الطريق الذى توثبه القرآن توثباً طوى له فيه المكان والزمان ، وهو هناك عند ذروة النهاية فى انتظار المؤمنين من العلماء ،

وقد كان الطب ، وهو علم الحياة أجرأ الفنون العلمية على التجاوب مع الهداية القرآنية فى إشارتها إلى العقل بالتحرر والبحث ، فكتبت مجلاته العلمية فى بلاد العالم المتعبد بالعلم إلحاداً أو إيماناً تذكر عن هذا الشراب الذى يخرج من بطون النحل أموراً كان المؤمنون يؤمنون بها تديناً

ويجهلونها علماً ومعرفة وبحثاً ، فلفتت أنظارهم إلى هداية كتابهم بإعجازها الفكرى والمعنوى ، وتلفتوا خلفهم يفتشون فى تراثهم من تفسير هذا الكتاب الكريم ، فوجدوا إشارات ورموزاً لا تغنى غناء البحث الجاد المتعمق عن طريق العلم ووسائله المستحدثة .

ولعل ذلك يدفعهم إلى أن يسهموا فى هذه البحوث العلمية بطرائقها الخاصة مستظلين بظل الإيمان بهداية القرآن العظيم فى إيقاظ العقل الإنسانى وتحريره من ربقة الجمود والتقليد ، والعلم ـ أى علم ـ لا وطن له .

وفى فواصل هذه الآيات تنبيه إلى طريق الهداية القرآنية ، وأنها عمل من أعمال العقل المتيقظ المتحرر ، الذى يجعل من العلم والمعرفة بأوسع معانيهما ، وأعم فنونهما ، وأشمل موضوعاتهما قوة كاشفة عن حقائق الآيات الكونية فى القرآن العظيم ، لتكون وسيلة إلى معرفة الله ، ووحدانيته فى إلهيته ، وربوبيته ، وبديع صنعه فى خلقه . وبالغ حكمته فى تقديره وهدايته ، وتفرده بالكمال المطلق .

والهداية القرآنية وحى الله تعالى ، فلا مدخل للعقل فى وجودها ، ولكن الطريق إلى معرفتها والتحقق بها فى واقع الإيمان البرهانى هو عمل العقل وواجبه ، ولهذا جاءت فواصل الآيات الكونية منبهة للعقل ، لتوقظه حتى يتبين أن عمله فى الهداية القرآنية إنما هو الكشف عن حقائقها فى آيات الله ، والتهدى بها فى توطيد دعائم الإيمان فى قلوب المؤمنين .

وهذا اللون من الهداية القرآنية التى توقظ العقل من غفوته ، وتحرره من أغلال الجمود ، وربقة التقليد كثير جداً فى آيات الكتاب المبين ، لم نقصد إلى استيعابه ، فذلك ما ليس إليه سبيل ، وإنما قصدنا إلى التذكير بالمثل والشاهد والتنبيه إلى مواطن العبرة الهادية للعقل ليكون ذلك باعثاً للعزائم القادرة عند أهل العلم على المضى مع العقل فى ظل هداية القرآن العظيم حتى لا يضل ولا ينسى .

الأصل السادس

عوامل الدفع القيادية

فى المجتمع الإسلامى

هذا الأصل من الهداية القرآنية يقصد إلى بيان ما فى هذه الهداية من عوامل وقوى تدفع بالأمة الإسلامية إلى آفاق الانطلاق حرة كريمة ، عزيزة منيعة ، متحررة من غوائل الجمود والتأخر ، والرضا بالضيم وذل الاستسلام لواقع الحياة فى المجتمعات الإسلامية ، وما أصابها من كوارث اجتماعية وسياسية قعدت بها عن النهوض الفكرى والاجتماعى، والتحرر السياسى ، فأورثتها اليأس فى صورة الصبر ، والاستسلام للهوان فى صورة التسامح والسلام .

وللأمة الإسلامية تاريخ مع الهداية القرآنية ، تلك الهداية التى جمّعت أشتاتاً من الأمم والشعوب الإنسانية فى شتى أقطارها ، ووحدت بينهم بوشيجة الإيمان ، فكانوا أمة واحدة لها مقوماتها الاجتماعية ولها نظامها السياسى ، وفيها ثرواتها الاقتصادية . ولها معالمها الفكرية ، ومشخصاتها الروحية .

وكانت الهداية القرآنية هى الدستور الذى يفيء إلى ظله كل من يحيا فى الوجود الإسلامى ، ذلك الوجود الذى كان يفرض سلطانه على الحياة بقوة سماحة الحق ، ورحمة العدل ، استجابة لأمر الله تعالى فى آيات الهداية القرآنية التى أقامت منار خلافة الله فى الأرض على دعائم العزة الرائدة ، حيث يقول جل شأنه فى القرآن العظيم مهيباً بهذه الأمة المسلمة أن تكون هى الناطقة بكلمة الله ، وهى القيمة على موازين العدالة بين الخلق (ولتكن

منكم* أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)(١) والمعنى فى الآية أن الهداية القرآنية تطلب إلى جميع المؤمنين أن يكونوا كلهم جميعاً أمة موحّدة الغاية فى حمل راية الخلافة قوامة على العدل ، داعية إلى الخير ، آمرة بالمعروف ، ساعية فى الإصلاح ، ناهية عن المنكر ، محذرة من ارتكابه ، وهذا من باب تشريف التكليف، أو تكليف التشريف ، فالله تعالى شرف هذه الأمة الإسلامية بما كلفها القيام به من تحقيق خلافة الله فى الدعوة إلى الحق والخير ، وكلفها القيام بهذا الشرف العظيم .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فضيلة الفضائل الاجتماعية التى يرتفع على دعائمها إصلاح المجتمع ، وقد أثنى الله تعالى على القائمين بهذه الفضيلة ، ووعدهم الفوز والفلاح إخباراً لا يتخلف ، فكانوا خير أمة أخرجت من عالم الغيب لهداية الناس لتكون رائدة الإصلاح فى الحياة ، قيّمة على موازين العدالة بمقتضى منصب الخلافة عن الله فى سياسة خلقه بما هداها الله إلى أصول المعرفة وإيقاظ العقل وتحريره على يدها من أغلال الجمود والتقليد ، ولهذا خاطبها الله تعالى بوصف الإيمان الشامل لأفرادها وجماعاتها فقال (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلْوُوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)(٢) ، فالهداية القرآنية فى سبيل بعث النخوة الإيمانية لحمل راية العدالة فى قلوب المؤمنين بها لا تقنع بمجرد الأمر بالعدل باعتباره فضيلة اجتماعية لها خطرها فى حياة الناس ، ولكنها تطلب إلى الأمة الإسلامية

---

* والراجح عندنا أن لفظ (من) فى قوله (منكم) لبيان الجنس ، والمعنى : لتكونوا جميعا داعين إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر فى حدود ما استطعتم أفراداً وجماعات وأمة .

(١) سورة آل عمران آية (١٠٤) ، (٢) سورة النساء آية (١٣٥) .

كلها أن تكون بطبيعة تربيتها القرآنية قوامة بالعدل ، وفى التعبير بهذه الصيغة (قوامين) أكمل التناسق بين الإعجاز البيانى فى براعة الأسلوب ، والإعجاز المعنوى فى سمو الهداية القرآنية .

ثم أبانت الآية أن تحقيق القوامة بالقسط لا يكفى وحده أن يكون وسيلة هذه الأمة إلى غايتها النبيلة وإنما تتطلب منها فى مكانها القيادى للإنسانية أن يكون عملها نابعا من القلب والضمير ، وأن تكون قواميتها بالعـــدل فى إطار الإخلاص الأكمل الذى لا تشوبه شائبة رياء أو عجب ، والذى لا تنحرف به عن الجادة عاطفة قرابة أو عاطفة حب أو بغض ، وأن أفرادها وجماعاتها يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة من خشية الله خاشعة لجلال كبريائه (شهداء لله ولو على أنفسهم) .

وأمر الهداية القرآنية فى صنع الله لهـذه الأمة المستخلفة فى الأرض عجيب ، فهى تطلب من المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل شهداء لله وحده بهذا العدل ، لا يرجون من أحد غيره جزاء ، ولا يخافون من سواه انتقاما وهذا فى متعارف الفضائل السلوكية أكمل ما يمكن أن يتحقق به إنسان فى سلوكه العملى فى الحياة .

ولكن الهداية القرآنية ترتفع بالأمة الإسلامية إلى ذروة من السلوك فوق هذا الكمال ، فتطلب إليها أن تطهر أنفسها من وساوس الأنانية ، ومداخل حب الذات ، والميل الخفى مع الهوى ، لتكون جديرة بمكانها من خلافة الله فى أرضه .

والنفوس الإنسانية قلما تخلص من شوائب الضعف البشرى أمام عواطف حب النفس والميل للقرابة ، فلا جرم أن نرى الهداية القرآنية تمعن فى استصفاء النفوس المؤمنة لتعدها لمكانها من القيادة .

ومن هنا كان ماخولته الهداية القرآنية للأمة الإسلامية من منصب القيادة للإنسانية والزعامة للأمم والشعوب ، وما وضعتها فيه من مكان الطليعة فى القيام بالعدل يستدعى أن تكون هـذه الأمة فى مستوى المثل الأعلى لنموذج القيادة الإنسانية ، فلا يقبل منها أن تطبق العدل على غيرها وتنسى نفسها ، أو تقصد إلى أن تخص نفسها من دون الناس بالخروج عن دائرة تطبيق العدل تعاليا منها عن قوانين المساواة فى موازين العدالة .

ولذلك جاءت الهداية القرآنية فى الآية بعد استقصاء نعوت الكمال فى تكييف الأمة بما يجب عليها فى مرتبتها القيادية فى الحياة بهذا التنبيه الوقائى (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) لتفيد أن هذا الكمال فى استبطان خصيصة العدل لا يتحقق حتى يكون العدل خلقا للمؤمن ، يقوم به على نفسه أولا فينصف منها ، ويجنبها المظالم فى القول والعمل والسلوك ، كما يقوم به على أعز الناس عليه وأحبهم لديه ، وأقربهم منه .

ومن لطيف الأمر فى هـذه الآية من آيات الهداية القرآنية ما يروى فى سبب نزولها ، قالوا إنها نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد اختصم إليه رجلان ، غنى وفقير ، وكان ميله صلى الله عليه وسلم مع الفقير ، يرى أن الفقير لضعفه لا يظلم الغنى . فأبى الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير على سواء .

وهذا تصوير رائع لمأخذ العـدل فى الإسلام ، لأنه صوره فى صورة مألوفة عند الناس ، وجعل نموذجها المثل الأعلى لنماذج الهداية القرآنية . ذلك أن الناس ألفوا أن الغنى هو الذى يتعالى على الفقير فيظلمه ، استضعافا له واستهانة بشأنه ، واعتزازا من الغنى بقوته وغناه ، فيميلون مع الفقير يرحمونه ، وينتصرون له استجابة لدواعى بشريتهم ، ولم يألفوا فى متعارف الحياة أن الفقير الضعيف يظلم الغنى القوى ، فجاءت الهداية القرآنية فى الآية

الكريمة عامة شاملة فى طلب تحقيق العدل ، ووضعته موضعه من الحياة ميزاناً لا يميل مع رحمة الفقير لفقره وضعفه ، ولا يحابى غنياً لغناه وقوته .

والهداية القرآنية فى تطبيق العدل لا تقنع بالسلبية الآمرة من أبراجها العاجية ، ولكنها تخوض مع الحياة كفاحاً إيجابياً يحمل الكافة على تقبل العدل رهبة إن لم يقبلوه رغبة ، فهى تبين أن الله أنزل الكتاب ـ وهو مصدر هداية العدل ـ مقروناً بإنزال الميزان ، والميزان هو الفيصل الذى يحدد الحقوق والواجبات ، فهو وسيلة تطبيق العدل تطبيقاً مقنناً بقانون الحكمة ، ليقوم الناس فى حياتهم بالعدل ولو بقهر القوة لمن أبى واستكبر ، وأشارت الهداية القرآنية إلى أن ذلك سنة الله فى جميع رسالاته ومع جميع أنبيائه ورسله ، قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز)(١) وأسلوب الآية الكريمة يفيد أن تحقيق العدل بأعم معانيه ، وقيام الحياة على دعائمه هو الغاية القصوى لإرسال الرسل بالشرائع ، وإنزال الكتب الإلهية عليهم لهداية الخلق وإصلاح شأنهم .

بيد أن الهداية القرآنية تشير إلى شيء يجب أن يسبق تطبيق العدل فى جانب الحياة العملية ، ذلك أن الدعوة إلى الحق يجب أن تكون قائمة على الحجة البينة والبرهان الصحيح ، فإرسال الرسل إنما كان بالبينات ، والبينات الشرائع المقرونة بما يبينها من الحجة والبرهان حتى تنساق العقول راغبة فى تقبلها ، فإن لم تفعل كانت بوصف العناد والعتو متسربلة ، والعناد مرض فى القلوب والعقول ، دواؤه فى ردعه ردعاً حاسماً حتى لا يستشرى

---

(١) سورة الحديد آية (٢٥) .

فى جسم الإنسانية فيفسدها ، ومن هنا جاء نسق الآية على مراحل ، كانت المرحلة الأولى فيها إرسال الرسل بالبينات ، والمرحلة الثانية إنزال الكتاب مقروناً بالميزان ليقوم الناس بالقسط ، والمرحلة الثالثة إنزال الحديد ، وفيه البأس الشديد والقوة القاهرة لمن لم يتقبل الحق المبين بالحجة المشرقة لردعه عن الفساد فى الأرض وتعويق سنن الله فى تقدم الحياة ، إنتصاراً لرسالات الله ، فمن نهض بذلك كان مؤيداً من الله تعالى على مايشير إليه آخر الآية فى قوله تعالى (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) .

وهذا المعنى هو الذى جاءت به الهداية القرآنية فى صورة تبين أن منصب الخلافة عن الله فى الأرض يتطلب أن يكون القائمون على أمر الأمة الإسلامية مؤدين لحق تمكين الله لهم فى الأرض بإعطائهم سلطان الخلافة ، وقوة المنعة والحصانة فقال تعالى (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[1] .

وبهذا التمكين فى الأرض ، وأداء حقوقه ـ ضماناً لنصر الله ـ وعد الله المؤمنين باستخلافهم فى الأرض وإعطائهم حق القيام على موازين العدالة بما يكون فى أيديهم من سلطان الحق والقوة فقال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[2] .

---

(١) سورة الحج آيتى (٤٠ و ٤١)   (١) سورة النور آية (٥٥)

فمنصب الخلافة فى الأرض للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وفى مقدمة الأعمال الصالحات أداء حقوق الله كاملة فى التعبدله بما أمر به ورغب فيه ، ثم أداء حقوق العباد كما جاءت بها الهداية القرآنية ، وفى مقدمتها القيام بينهم بالعدل الذى يحقق للقائمين به التمكين فى الأرض بقوة الحق ، وحق القوة فى ردع الخارجين عن موازين العدل والحق ، وتضمنت الآية وعداً آخر ، هو تمكين الدين الحق الذى ارتضاه الله لمن استخلفهم فى الأرض ، وبهذا التمكين للدين الحق على أيدى المستخلفين فى الأرض القائمين بحق هذه الخلافة جاء الوعد الحق بقوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا)[1] وهذا الوعد المحقق بإظهار دين المستخلفين فى الأرض على الدين كله يستمد قوته من الاعتزاز بالله فى صدق التوكل عليه وإخلاص الدعوة إلى الحق ، ولهذا نعى الله تعالى على المنافقين تعززهم بأعداء الكافرين به وبشرهم بأليم العذاب وبين أن تعززهم بأعداء الله من الكافرين ذلة ومهانة وخور ، وأنه بناء منهار من أساسه ، فقال تعالى (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا)[2] . ويقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم رداً على المشركين الذين اعتزوا بأموالهم وأتباعهم (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا)[3] .

وفى هذا تقوية لعزائم المؤمنين فى المضى قدما لمناصرة الحق . وإقامة أمر الله بالعدل بين الخلق ، لأنهم يعتزون بعزة الله وقوته ، وهو القوى القهار ، وهذا هو معنى قول الله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة

---

(١) سورة الفتح آية (٢٨)
(٢) سورة النساء آية (١٣٩)
(٣) سورة يونس آية (٦٥)

جميعا)[١] والعزة بالله أقوى عوامل الدفع القيادى فى المجتمع الإسلامى ، لأن الله تعالى يريد لهذا المجتمع العزة فى كل الأمور مادام متمسكا بعزة الله، وقد وعد رسله والمؤمنين بالغلبة والنصر ، فقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز)[٢] وهذا وعد مقرون بنعوث العزة والكبرياء ، فهو حافز من أقوى الحوافز للذين وهبوا أنفسهم لقيادة الإنسانية من المؤمنين الصادقين .

ولما كان هذا الحافز يتطلب قوة من رسوخ الإيمان بالله تعالى ينفرد بها رسل الله ، ومنهم يستمد المؤمنون حوافزهم أراد ربنا تبارك وتعالى أن يقوى عزائم المؤمنين الذين استخلفهم فى الأرض للقيام بنصرة الحق وإقامة موازين العدل بين الناس فأدخلهم فى الوعد الحق بضمان نصرتهم وإمدادهم بمدد العزة الإلهية فقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد)[٣] وقد تمامت منة الله على الذين خصهم بما وضع فى أيديهم من زمام القيادة الإنسانية فى المجتمع الإسلامى فأطلق لهم الوعد بمجرد الإيمان خالياً من كل شرط ، وهذا من أكمل دوافع النهوض فى نصرة الحق وبث هداية القرآن الكريم مهما صادفها من عقبات .

ولم تقف الهداية القرآنية فى إبراز الدوافع القيادية للمجتمع الإسلامى عند ذلك ، ولكنها فى سبيل توجيه هذا المجتمع لإعداده للنهوض بمهمة قيادة الإنسانية ناطت به أمانة القيام بتحمل أعباء سلطان الخلافة عن الله تعالى فأشركته فى أقوى دعائم الدفع لبناء الحضارة البشرية على أسس جديدة من الإخاء والمحبة والتعاون الإنسانى ، وجعلت تعززه بالله عزا

---

(١) سورة فاطمة آية (١٠)　　(٢) سورة المجادلة آيات (٢١)

(٣) سورة غافر آية (٥١)

أصيلاله باعتباره النموذج الأسمى لقوة التنفيذ الذى يستند إلى القيم الخلقية والفضائل الإنسانية ، قال ربنا عز شأنه فى الرد على المنافقين المتعززين بدنيا المال غروراً بما فى أيديهم من لعاعات تافهة ، يفخرون بها تنفجاً على الحق وتبجحاً على أهل الإيمان (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (١) .

وبهذه العزة التى خلعها الله على المؤمنين ـ إستمداداً من عزته الذاتية سبحانه ، وانبثاقاً من عزة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم التى جعلها مصدر قوة رسالته فى توجيه المجتمع الإسلامى لحمل أمانة الدوافع القيادية للنهوض بالحياة نهوضاً يبلغ بها جهد الطاقة البشرية ـ ارتبط نصر الله للمؤمنين بواقع الوجود الإسلامى فى حقيقته الناصعة ، فكان حقاً متحتم الوقوع ، وجاءت به البشرى إخباراً لا يتخلف فقال ربنا عز شأنه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (٢) ليقوى عزائمهم ، ويشد من إرادتهم .

بيد أنه لا يتركهم لنزوات الغرور تعبث بهم ، ولكنه يتحفهم بمدده ، ويمددهم يتحفه فيقول لهم : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) فمجرد الإيمان كاف فى توفير مجامع العزة لكم ، فكيف — وأنتم الأعلون المتعززون بعزة الله — يصل إلى عزائمكم وهن الخور ، وحزن الرعب والخوف ، وقد ضمن الله لكم ما دمتم متسربلين بسربال الإيمان علوا على من يناوئكم من أعداء الهداية القرآنية باخبار صادق لا يتخلف ؟ (وان يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (٣) .

---

(١) سورة المنافقون آيتى (٧و٨)
(٢) سورة الروم آية (٤٧)
(٣) سورة آل عمران آية (١٣٢)
(٤) سورة النساء اية ١٤١

والذين يحكمون على الإسلام بواقع المسلمين يتساءلون كيف تصور الهداية القرآنية دوافع العزة للمجتمع الإسلامى بهذا التصوير المتعزز بالإيمان، وحال هذا المجتمع هو حاله على ما نرى ونسمع ؟ .

وهؤلاء المتسائلون يغفلون عن نظرة الهداية القرآنية للإيمان الذى تراه تلك الهداية مصدر عزة للمجتمع الإسلامى لا تغالب ، لأن المراد من هذا الإيمان هو الإيمان الذى يجعل من المجتمع قوة دافعة قاهرة لا تردها قوة المادة فى أية صورة رُكّبت ، وفى تاريخ الهداية القرآنية شواهد لا تدفع ، فكم كانت قوة أهل الإيمان المادية أمام جحافل الروم والفرس فى عَددها وعُددها فى أول صدام وقع بين حق الهداية القرآنية وباطل المستكبرين فى الأرض ؟ بل كم كانت قوة ثلة السابقين الأولين من طلائع الإيمان أمام قوة الشرك والنفاق وأخابث اليهود فى أوائل المعارك بين الحق الوليد فى مهده وبين قوى الشر مجتمعة ؟ ولمن كان النصر ؟ وعلى من دارت الدائرة ؟ وبمن حلت الهزائم ؟

استنطقوا التاريخ أيها المتسائلون ، فسيقول لكم أن القوة مع الإيمان، ولا شىء غير الإيمان ، لأنه الحق ، والحق أبداً ظافر منصور ، ولكنه يفتن بنار التمحيص ليميز الله الخبيث من الطيب ، فتستبطىء النفوس العجلانة بالجبلة البشرية انحسام الأمر بنزول النصر ، فيتساءلون وتجيب الهداية القرآنية ببيان سنة الله مع أهل الإيمان ، يقول الله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب [1] .

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٤)

وأسلوب الهداية القرآنية فى براعة بيانه يَذْكر الرسل عليهم الصلاة والسلام فى بعض المناسبات باعتبارهم القـــوة الروحية فى البشر المهيئة لمواجهة الخطاب بما فيه من مظاهر الجلال والكبرياء . دون أن يكون مضمون الخطاب محتمل الوقوع منهم لمكانهم من العصمة الإلهية ، أو لتساميهم فى شرف ذواتهم عن مواقعته .

الأصل السابع

مكانة العلم فى الحياة

هـذا الأصل من أصول الهداية القرآنية يدور حول إبراز مقام العلم وشرفه ، وسمو مكانته وموضعه من الحياة ، وبيان ما خلعته عليه الهداية القرآنية من فضل وضعه فى الذروة من قيم الدعائم التى يقوم عليها بناء الحياة الإنسانية فى نشأتها على هذا الكوكب الأرضى الذى نعيش فيه ، وفى متابعة تدرجها من مهدها إلى مراحل تكاملها فى الوجود الفكرى فى ظل العقل الإنسانى الذى تولى حضانتها وتنمية خلاياها فى رحابه حتى شبت وترعرعت ، واستقامت قناتها فى صلابة القوة الدافعة ، وبلغت مرحلة الرشد الاجتماعى فى التفكير واستطاعت أن تضع لمستقبلها أصول النظم الحضارية قائمة على أسس العلم والمعرفة ، وجعلت من العلم ميزاناً تزن به آثار « التطور » فى وجودها التاريخى ، كما جعلت من العلم — على أوسع إطلاقات معانيه — دليلها الذى لا يضل الطريق فى سلوكها إلى المستقبل ، لقدرة العلم الذاتية على كشف الحجب ، ورفع الستور عن الحقائق المجهولة ، ولقدرته على الغوص فى مجالات متجددة مليئة بالعوامل الدافعة إلى المضى قدماً فى بناء الحضارة البشرية على قواعد تنهض بالإنسانية نهوضاً يجدد معالم الهدايه بأسلوب يعتمد على منطق الفطرة فى واقع الحياة ووجودها بملاحظة الظواهر الكونية التى لفتت الهداية القرآنية إليها الأنظار بما تنبىء عنه من عبر تربط الفكر الإنسانى بالوجود كله ربطاً يعيش معه العقل دائب الحركة والبحث ، ليجعل من الحياة صوراً متجددة فى إطار العلم والمعرفة .

والهـداية القرآنية أعطت العلم مجاله الفسيح الذى لا تجاريه فيه قيمة

أخرى من سائر القيم الإنسانية الدافعة ، كما قلدته السلطان المطلق فى تقدير القيم الاجتماعية والكشوف الكونية ، وقد احتفظت الهداية القرآنية بحقها فى التوجيه والإرشاد فى مجالات الغيب الذى هو غيب يستمد غيبيته من الإيمان بالموجود الأكمل الأعظم الله رب العالمين ، وبحقها فى مجالات التعبد له جل جلاله بما شرعه لخلقه فى رسالاته السماوية التى أرسل بها أنبياءه ورسله .

بيد أن ذلك كله ما فتىء فى حاجة شديدة إلى أن يخرج للناس فى أسلوب مرغِّب محبِّب ، ليدفع بالمجتمع الإسلامى الذى يستظل بظل الهداية القرآنية إلى أن يخوض لجج العلم فى شجاعة وجرأة ، وصبر وجلد ، بل فى شوق ولذة وسعادة ، فلا يحجم عن اقتحام مداخله ومخارجه دارساً لمسائله باحثاً عن قضاياه فى حرية وانطلاق ، وسماحة وإشراق ، لا يقف متربصاً على أبواب العلم هياباً ، ينتظر أن تفجأه نتائج البحث بما لم يكن له به علم ، فينكر ويشتط فى الإنكار ، بل يجب عليه أن يلج مزاحماً إلى ساحات البحث نظراً وتجريباً فى جميع أنواع العلم وفنونه وموضوعاته وأن يقتحم حصونه وقلاعه ويتوثب إلى معاقله ، لا يترك فناً من فنونه أو مذهباً من مذاهبه أو رأياً من آرائه أو نظرية من نظرياته دون أن يكون له فيه بحث أو رأى فاحص محمود .

والعلم — فى تقدير الهداية القرآنية — هو صانع الحضارات ، وهو القيِّم على الحياة بما وضع الله فى خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية بصورة الحقائق الوجودية التى توجه الحياة دائماً وجهة التقدم ، وتزيد من قيمتها ، وتضيف إليها ألواناً من ذخائر الفكر المكتنزة فى كل ذرة من ذرات هذا الوجود الذى سخره الله للإنسان نعمة منه عليه ، ليتوصل بالنظر فيه إلى معرفة خالقه معرفة تستوجب الشكر بخالص التعبد وينتفع بما فيه من

آيات وخصائص طبيعية مودعة فى الكائنات بحكمة وتدبير ، وبهذا امتن الله تعالى على عباده فقال : (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة[1]) .

والعلم هو الذى وضع المجتمع الإسلامى فى مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم هو القائد لهذا المجتمع ، فكان زمامه بيد العلم يوجهه ويدفعه دفعا ، وكانت معاقل العلم تخفق فوق آفاقها ألوية المجتمع الإسلامى فى ظل ظليل من الهداية القرآنية .

فلما مالت شمس الهداية القرآنية عن المجتمع الإسلامى - بما نشأ فوق أرضه من سحائب الجهل والغفلة والفرقة ، والانغماس فى حمأة الترف المادى الرخيص إشباعا للغرائز الأرضية ، وانصرف الفكر الإسلامى إلى تفاهات من الجدل الأجوف ، توهمها علما ، وانحرفت به تلك التفاهات الجدلية عن الاستضاءة بنور هدايته القرآنية ، وتغيرت الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى هذا المجتمع ، وأصبح مجتمعا جغرافيا - ركدت فيه ريح التفكير الحر الخالص لوجه العلم والمعرفة ، وزوحم ليزحزح عن مكان الصدارة فى محافل العلم ، وسرع ما تزحزح ، وخلا مكانه ، فوثب إليه يحتله من لم يكن هناك يومئذ ، وتخلف المجتمع الإسلامى بعنوانه الخاص عن قافلة الحياة العلمية تخلفا أضله الطريق إلى النهوض ليلحق بالمدلجين فى سرى ليل الحياة ، وظل متخلفا ، وظل زمام العلم بيد غيره ، يتحكم به ويسوس الحياة بآثاره المدمرة ، وبقيت الهداية القرآنية فى يد المجتمع الإسلامى « مصحفا » يطبع ويزركش ويهدى فى صورة « طبولية » يسخر منها الذين احتلوا مكان المجتمع الإسلامى فى محافل العلم وصدارة الحياة ، واختطفوا من يده لواء الهداية القرآنية ، وحولوها إلى علم كافر ملحد مدمر ، تصلى

---

(١) سورة لقمان آية (٢٠)

الحياة نيرانه وتنوء الإنسانية تحت وطأته معذبة مؤرقة بالرعب وكراهية العلم وبغض المعرفة .

ولن تعود السكينة والطأنينة للبشرية إلا إذا آمنت إيمانا يكشف عنها سحب الضلال العلمى ، وللعلم ضلاله ، وله هدايته ، ولن تؤمن البشرية هذا الإيمان إلا إذا عادت الهداية القرآنية بروحها الأصيل فى مجالات العلم قوة دافعة تعيد المجتمع الإسلامى إلى مكانه من قيادة الحياة .

ولن تعود الهداية القرآنية بروحها الأصيل فى مجالات العلم قوة دافعة إلا إذا تيقظ المجتمع الإسلامى يقظة ترد إليه إيمانه بالعلم ، وتحرره من عبودية القيادات المنحرفة عن واقع الهداية القرآنية بروحها الأصيل ، ويعود هذا المجتمع إلى هدايته القرآنية يستمد منها القوة الروحية والمادية ويجعل منها عملا فى واقع حياته كلها كما كانت يوم كان غنيا بها عن الاستجداء العلمى، وعن استيراد نظرياته الكافرة، متبوأ مكان الصدارة فى قيادة الحياة.

ونحن لا نقصد أن يعود المجتمع الإسلامى إلى الوراء فيعيش مع خيال أمجاده التاريخية ، ولا أن يحيا فكريا فى حياته العلمية التى كان يحياها فى قرونه الخوابر ، لأن تلك الأمجاد التاريخية ، والحياة الفكرية التى عاشها المجتمع الإسلامى فى تلك القرون مع العلم والمعرفة كانت أثرا من آثار الهداية القرآنية التى اقتضاها طبيعة العصر، وصبغة البيئة والعرف، وطاقة التفكير،ومدى فاعلية الوسائل العملية فى الوصول إلى نتائج التجربة والبحث.

ولكل عصر من العُصُر ، ولكل جيل من الأجيال نصيبه من الهداية القرآنية يأخذه من تأهل له ، وهذه الطاقة المكنوزة فى هذه الهداية هى إحدى معجزات القرآن العظيم .

والذى نقصده أن هذا التخلف البليد الذى أصاب المجتمع الإسلامى

فى حركة الدفع الفكرى كان نتيجة لفقدانه الحوافز الدافعة . وفقدانه القيادات الحليمة الحافزة ، ونسيانه هدايته القرانية ، ثم جهله بأهداف هذه الهداية ، ثم تنكره لما تتطلبه من تحرر فكرى ، وانطلاق إلى مجالات العلم بأوسع وأكمل ما تحمل كلمة العلم من معان ومفاهيم ، ذلك العلم الذى غير وجه الحياة .

كان هذا التنكر أثراً من اثار الجهالة التى أريدت للمجتمع الإسلامى . فيما أملى عليه من فهم مضلل للهداية القرآنية ، حتى زعمها قلائد فى أعناق أحلاس الزوايا ، ومستمهدى المحاريب للذكر دون تذكر ، ولصور من العبادات دون تفكر ، ولتوليد فروض من العلم – زعموا – من غير واقع ولا متوقع ، مما استنفد طاقة المجتمع البائس المسكين ، ودفع ببعض الجسورين إلى المجازفة كرد فعل لذلك الجمود ، فانطلقوا طائرين بغير أجنحة من صدق الإخلاص ، وعمق الدراسة ، واستقامة التفكير ، إلى افاق التأويل الذى هو أشبه بالتحريف تحت عنوان التفكير المتحرر ، فكانوا – بعلمهم الجاهل – أسوأ أثراً على المجتمع الإسلامى من جهالة أولئك الجامدين ، وكان المجتمع الإسلامى هو الضحية التى تقرب بها هؤلاء وأولئك إلى شياطين الإلحاد المتربصين بالهداية القرآنية ، وشياطين الجهالة من الأغمار الفارغين .

والقرآن الحكيم فياض بألوان الهداية التى ترفع شأن العلم ، وتعلى قدره فى آياته الشاهدة بتعظيمه وبيان سمو مكانته .

هل سمعت أن كتاباً سماوياً أو أرضياً نوه بالعلم فى أشخاص أهله وذويه ، ووضعهم فى مكانهم من ذروة الفضل ، وسنام الشرف وجعلهم شهداء لله تعالى على ثبوت أخص نعوت قدسه وجلال كبريائه فى وحدانية آلهيته ، وقيوميته على تدبير ملكوته وعزته وحكمته سوى القرآن العظيم ؟ يقول

الله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[1]

وهل سمعت أن كتاباً ـ أى كتاب له قداسته رفع شأن الذين أوتوا العلم فى معارج الفضائل والشرف وبوأهم منها أسمى مكان غير القران العظيم ؟ يقول ربنا عز شأنه (يا أيها الذين امنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير)[2] .

وفى ذكر أولى العلم بهذه المنقبة المنيفة فى صدر أدب المجالسة عامة ، ومجالسة الأعلين خاصة آية على تحليهم بالأدب فطرة علمية ، فطروا عليها منذ أدبهم العلم فأحسن تأديبهم .

وفى إبهام الدرجات التى يرفعهم الله إليها بتنكيرها مزيد فضل وتشريف ، وفى قرنهم بأهل الإيمان وهم منهم فى الذؤابة رعاية إلهية تجعل لأهل العلم خصيصة تميزهم فى رفيع درجاتهم عن سائر أقرانهم ، وفيه إشادة بفضل العلم لذاته ، وهذا يدل على أن الهداية القرآنية ترغّب فى العلم بجميع فنونه ، وفى أخذه من أى نبع تفجر منه ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها .

والهداية القرآنية ترفع أهل العلم فتخصهم بأنهم أعظم الناس عقلا ، يدركون به دقائق العلم التى تخفى على الأكثرين من العقلاء ، يقول الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[3]وضرب الأمثال فن من الأسلوب البيانى دقيق المسلك ، بعيد الغور ، شديد الأسر سريع

---

(١) سورة ال عمران اية (١٨) (٢) سورة المجادلة اية (١١) .

(٣) سورة العنكبوت اية (٤٣)

الإصابة قوى الإهابة ، هو لخاصة العقلاء دلالة ، ولعقلاء الخاصة نبالة ، عبقرى الأساليب ، وأسلوب لخطاب العبقريين ، يرتفع به الكلام إلى أوج البلاغة ، وتسمو به البلاغة إلى ذروة الإعجاز .

يقرب البعيد ، ويدنى الغريب ، ويسهل الصعب ، ويوضح المبهم ، ويفسر المجمل . ويبين الغامض ، ويكشف عن الحقائق ، يجعل المعقول محسوسا ، والأبىّ مسيرا ملموسا والعصى طيعا مستجيباً ، يوجز وكأنه فى بيانه قد أطنب ، ويومىء وكأنه فى براعته قد أسهب، ويشير وهو أبين معبر، ويعبر وهو أخفى رامز ، دلالته وحى ، وتعبير مفهم ، ووحيه مفحم،حجته لنصاعتها تتبختر اتضاحا ، والشبهة أمامه تتضاءل افتضاحا ، بيانه السحر الحلال ، ومعانيه أحلى من النمير الزلال ، وحقا إن من البيان لسحرا .

هذا الفن البيانى فى هداية القرآن جعلت تلك الهداية إدراك معانيه غاية العقلاء ، والإحاطة بأهدافه ومراميه بداية نهايه العلماء ، لأن العقل يدرك مايظهر له ، والعلم يفهم ما وراء الظواهر ، لأنه يرفع الحجب عن وجوه المعقولات الخفية ، فتبدو وكأنها عرائس مجلوة فى أنخر الحلى والحلل ، كلما أوغلت فيه النظر زادك إحسانا وحسنا .

وحسب العالمين هذه الشهادة لفضلهم بين العالمين من الله خير الشاهدين.

ولم تقف الهداية القرآنية فى بيان فضل العلم وشرفه فى أشخاص أهله وذويه عند ذلك الثناء ولكنها تزيد من فضله بزيادة فضلهم حفاوة بهم وتكريما لهم فتجعلهم أمناء على أسرار آيات الله فى عوالمه الذين يهتدون بما فيها من العبر إلى بيان هدايتها على عظمة الله وجلاله ، يقول ربنا تبارك وتعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين)[١].

---

(١) سورة الروة آية ٢٢ .

وفى هذه الآية الكريمة لون من التنويه بشرف العلم ، والتسامى بمكانته فى الهداية القرآنية ، يصور مدى ما للعلم من قدر خطير فى تقديرها .

وفيها بيان أن هذه الهداية لاتقصد إلى لون خاص من العلم ، ولا تقيد المجتمع الإسلامى بنوع منه ، ولكنها تتسامى بالعلم كله باعتباره أثرا من أرفع آثار السمو الإنسانى ، وباعتباره الروح المسيطر على توجيه التفكير الإنسانى إلى كشف الحجب عن مكنونات الله فى آياته الكونية التى أقامها فى هذا الوجود براهين ودلائل على وجوده ، ووحدانيته ، وعظيم قدرته ، ومحكم تدبيره ، والتى سخرها مذللة للإنسان ليبلغ بها مكان النعمة فى الانتفاع بآثارها قياما بحق شكرها .

والآية الكريمة تذكر خلق السموات والأرض تذكيرا بما أودع الله فيهما من آثار آياته الكبرى تنبيها على ما أودعه الله فيهما من آثار حكمته الكونية ، وبيانا لعظمة قدرته ، لأن خلق السموات والأرض أجل الدلائل ـ فى آيات الله الكونية التى وسع الإنسان الاطلاع عليها ومشاهدة آثارها ـ على وجوده تعالى وبالغ قدرته .

ولذلك يقول تعالى بيانا لمكانة . هذا الإبداع (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون)[1] ويقول عز وجهه فى بيان ذلك بأسلوب الاستفهام التقريرى الذى يعتمد فى تقرير الواقع على كثرة الأدلة وقوتها فى ذاتها ، ووضوح دلالتها على المقصود (ءأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم)[2].

---

(١) سورة غافر آية ٥٧ .

(٢) سورة النازعات آيات ٢٧ ـ ٣٣ .

وفى هذه الآية يبين تعالى كيفية خلق السموات والأرض ، وأنه بناها بناء رفع به سمكها وسواها بلا تفاوت فيها ولا فطور ، وأظلم ليلها ، وأضاء نهارها ، وأنه دحا الأرض وجعلها فى صورتها التى بها يعيش من فوقها من الأناسى ، وما فوقها من الحيوان والأشياء ، وأنه أخرج للإنسان من هذه الأرض الماء والمرعى ليتمتع وتتمتع أنعامه التى يتنعم بها فى حياته .

والهداية القرآنية تلفت نظر أهل العلم من العقلاء إلى أنهم موجهون إلى النظر فى كيفية بناء السماء ومد الأرض ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بالبحث العلمى الدائب لمعرفة حقيقة السموات وما فيها من عوالم قد تدخل فى عناصر تكوينها ، يقول الله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)[1] .

ثم تذكر الآية التى سبقت لبيان سمو مقام العلم برفعة شأن أهله من العالمين ـ إن اختلاف الألسن باللغات ـ مع وحدة الجارحة اللسانية فى طبيعتها الخِلْقية ـ آية من آيات الله فى خلقه ، وأن اختلاف الألوان فى أجناس البشر اختلافا يجمع عجائب الخلقة من سواد وبياض ، إلى حمرة وصفرة ، إلى صهوبة وشهله ، مع اتحاد الأصل واتحاد طبيعة قابل التلوين آية من آيات الله الدالة على قدرته وتفرده بالخلق والإبداع .

ثم جاءت الخاتمة فى الآية بما هو المقصود الأعظم ، فبينت أن فى الآيات التى عددتها الآية الكريمة آيات دلائل وبراهين على عظمة الإلهية وجلال الربوبية لا يقوم بإدراكها وفقه أسرارها ، ومعرفة مدارك دلائلها ، وإدراك

---

(١) سورة ق آيات (٦ ، ٧ ، ٨)   (٢) سورة لقمان اية (١١) .

أهدافها إلا العالمون الذين أفاض الله عليهم من إشراق المعرفة بملكوته وتعمقوا أسرار الوجود ، وغاصوا مع العلم إلى بواطن الكون ، يكتشفون ظواهره للوصول إلى حقائقه ، ليشهدوا آثار الإبداع والتكوين فى خلق الله حتى تردد ألسنتهم متعبدة بما توحى إليها القلوب العارفة والعقول المدركة (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه)[1] .

والآية الكريمة إذ تذكر العالِمين باعتبارهم خلاصة الإنسانية فى إدراكهم لمشاهد الملكوت بالعلم الذى هو خصيصتهم المميزة لهم عن سائر العقلاء ، لا تقيد هذا العلم بلون من ألوان التفكير الإنسانى ، ولا بنوع من أنواع التجريب الاستقرائى ، ولا بفن من فنون المدارك العقلية ، وإنما تذكرهم تفخيما لهم بوصفهم المطلق ، لأنه أعظم آيات الله فى الوجود وأجل نعمة على الإنسان أنعم الله بها على الحياة .

فهل رأيت كيف تصور براعة البيان القرآنى هدايته فى تعظيم شأن العلم ، العلم الذى هو العلم فحسب ؟ وكيف تصور الهداية القرآنية ما أفاض الله تعالى على العلماء من فضل تتقطع الأعناق دون بلوغ مكانته ؟

بلى ! ولكن الهداية القرآنية تمضى قدما فى الإشادة بفضل العلم ، الذى هو علم وعرفان ، ومكانة العلماء الذين هم العلماء بآيات الله وأسرار الحقائق الكونية فى السموات والأرض ، فى آفاق الحياة وأنفس البشر ، فتخص هؤلاء العلماء بالثناء عليهم ثناء يستمطر الملائكة المقربون غيثه من مداد أقلامهم ، إنهم أعلم خلق الله بجلال الله ، وأعرف خلق الله بآيات الله ، وأشهد خلق الله لعظمة الله ، فكانوا بهذا وذاك أخشى خلق الله لله ، وأخوف خلق الله من الله ، وأرجى خلق الله لرحمة الله ، وأعظم خلق الله مكانة عند الله

---

(١) سورة لقمان آية (١١) .

يقول ربنا تبارك وتعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء)(١) فهم بوصف العلم بجلال الله لمطالعتهم كتاب ملكوته ، وإدراكهم لبديع صنع الله ومحكم تدبيره ، وباهر قدرته متفردون بخشية الله ، متوحدون بمعرفة جلال كبريائه .

وفى قول الله تعالى (من عباده) إيماء إلى أن خشية العلماء لله التى أفردهم الله بها عن سائر مخلوقاته إنما هى خشية عبودية وتعبد ، ومقام العبودية أرقى درجات القرب من سبحات الجلال الإلهى ، فهم يخشونه لأنهم العلماء بجلاله من عباده الذين هم عباده تعبداً وزلفى .

وبهذا تنقشع الغشاوة عن أعين الذين فى قلوبهم مرض فيعرفون أن قداسة العلم وعظمته اللتين صورتهما الهداية القرآنية إنما هى قداسة العلم الهادى إلى الله وعظمة العلم الدال على الله بالنظر والتفكر فى آياته ، وهذه قداسة تنبثق من نور الإيمان بالله ورسله ، فإذا لم يتحقق هذا الإيمان بقى العلم — فى نظر الهداية القرآنية — مرغوبا فيه أشد الرغبة كمصباح يكشف الظلمات الحسية فى طريق هذه الحياة الدنيا ، ولن يرضى الله العزيز الحكيم لأهل الهداية القرآنية أن ينصرفوا عن العلم النافع فى هذه الدنيا لمجرد انحراف بعض العقول به عن صراط الهداية ، وإنما يرضى لهم بل يوجب عليهم أن يغالبوا عليه فيأخذوه قسراً ، ويطوّعوه لإيمانهم حتى يكون هو الطريق إلى خشية الله خشية تقوم على معرفته بكمال نعوته فى ظل الهداية القرآنية التى تعتز بالعلم اعتزازاً يجعله طريقها إلى تبوء مكانها القيادى فى توجيه الحياة وقيادة الإنسانية بسلطان خلافة المجتمع الإسلامى فى الأرض .

والمتأمل فى سياق هذه المدحة الكريمة وموقعها من الآية التى وردت

---

(١) سورة فاطر آيات (٢٨) .

فيها ، ومن الآية السابقة عليها يدرك أن العلم الذى كان منبع خشية العلماء لله التى تفردوا بها ونالوا بها هذه المنزلة الرفيعة إنما هو العلم بالله علماً يقوم على النظر فى آياته الكونية ، وتعرف ما فيها — عن طريق البحث بشتى وسائله — من بديع صنع الله تعالى ومحكم تدبيره ، وماأودع فيها من أسرار الخلق والتكوين . وهى مسخرة للإنسان ، يستثير منافعها لصالحه وصالح الحياة ، يقول الله عز شأنه (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور)[1] .

ولا يمكن أن يكون مقصود الهداية القرآنية بالعلم الذى أثنى به على العلماء فى آية الخشية لله لون من ألوان العلم دون سائر ألوانه وفنونه ، وإنما يراد كل علم فى مناسبته وموضعه .

والظاهر من سياق الآية وسياقها أنها تقصد إلى نوع من العلم والمعرفة يكشف عن آيات الله فى إنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان بهذا الماء ، وفى اختلاف أحوال الجبال وألوانها وتركيب ذراتها ، وفى اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام ، من كل بحث يكشف عن آيات الله فى هذه الكائنات .

يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره (روى أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطى على عمر الأبهرى ، فقال بعض الفقهاء يوماً . ما الذى تقرؤنه ؟ فقال : أفسر آية من القرآن ، وهى قوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) فأنا أفسر كيفية بنيانها .

---

(١) سورة فاطر آيتى (٢٧ — ٢٨) .

قال الرازى : ولقد صدق الأبهرى فيما قال ، فإن كل من كان أكثر توغلا فى بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علماً بجلال الله تعالى وعظمته .

ونحن نقول مع الإمام الرازى : إن الغوص — لمن يحسن السباحة — فى بحار الكون أبلغ فى الوصول إلى لآلىء المعرفة بجلال الله الخلاق العظيم ، وهذه المعرفة البرهانية التى تُشهد صاحبها عظمة الله فى صنائعه الكونية هى أسمى مراتب الهداية القرآنية التى يجب أن يكشف عنها من يتعرض لتفسير القرآن العظيم .

الأصل الثامن

التربية السلوكية

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية يستهدف بيان منهج القرآن وطريقته فى التربية السلوكية للفرد والجماعة ، وأسلوب الهداية القرآنية فى هذا الأصل أسلوب يجعل من الفضائل الإنسانية دعامة لبناء المجتمع الإسلامى على قواعدها .

والمجتمع فى حقيقته التكوينية بناء بشرى لبناته الأفراد الذين تتألف من ترابطهم الاجتماعى عناصره الحية التى يتهيأ بها للمجتمع أن يتبوأ مكانه فى الحياة ، بقدر مافى تلك العناصر من قوة وحيوية . وخصوبة فى التفكير :

ولهذا نجد الهداية القرآنية تعطى الفرد عناية بالغة فى التربية السلوكية التى تُعِده إعدادا روحيا وعقليا وماديا ليستقيم له بهذا الإعداد التربوى فى السلوك استقلاله الذاتى الذى تتجلى فيه إرادته الحرة ، ومشيئته القادرة فيما يصدر عنه من فعل أو رأى .

بيد أن الهداية القرآنية مع هذه العناية البالغة فى تربية الفرد السلوكية لا تطلق له العنان فى الفردية إطلاقا يعزله عن مجتمعه الذى يعيش فيه ، ويحيا بين أحضانه ، ويأخذ منه ويعطيه ، لكنها تجعل من استقلال الفرد ، وحرية إرادته مظهراً لقوة انطلاق المجتمع فى حياته بقوة أفراده ، حتى يستطيع أن ينهض بعبئه فى بناء الحضارة الفكرية والاجتماعية ، ويؤدى واجبه فى خدمة البشرية بدفعها إلى آفاق جديدة فى مجالات العلم والمعرفة ،

ومطالعة آيات الله فى حقائق الوجود الكونى الملىء بالأسرار الإلهية المسخرة للإنسان ليحقق بالنظر فيها أكبر قسط لمصالحه ومنافعه المادية والروحية .

وأول عامل من عوامل التربية السلوكية تبرزه الهداية القرآنية ، وتجعله موضع عنايتها فى البيان القرآنى هو تحمّل المسئولية ، والشعور بهذا التكليف شعورا يجعل من الفرد قوة دافعة للمجتمع فى طريق البناء والعمل لصالح الحياة والأحياء والأشياء ، ويجعل من الجماعة قوة موحدة العناصر والأهداف .

وأسلوب الهداية القرآنية فى إشعار الفرد بتحمّل مسئولية عمله كاملة يقوم على ربط الجزاء بالعمل ، فلا جزاء على غير عمل ، ولا عمل بغير جزاء .

وفى تقرير ذلك يقول الله تعالى (لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)(١) وقد تضمن هذا النص من البيان القرآنى قضيتين :

القضية الأولى : تصوير السماحة فى الهداية القرآنية وأنها لا تتعنت فى تكاليف العباد بشرائعها وآدابها ، ولا تشتط فى المطالبة بالعمل التكليفى ولكنها تنظر إلى طاقة الإنسان واستعداده الفطرى ، والعقلى ، والروحى ، والبدنى ، فتكلفه من العمل مايطيق فى حدود هذا الاستعداد جبلة وكسبا ، وهذه القضية هى مضمون قوله تعالى (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) وهى قضية تصور سماحة الشريعة ويسر تكاليفها ، تحقيقا لما ألهمه المؤمنون فى مناجاة الشكر لله ، ودعاء التعبد ، من رفع أثر التكاليف فى حالتى النسيان

---

(١) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

والخطأ الذى لا يتجه إليه القلب والضمير بعقدونية، ورفع الآصار والأثقال فى مطلق التكاليف ، لتكون فى حدود الطاقة والاستعداد ، كما حكى الله عنهم هذه المناجاة فى قوله تعالى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القـــوم الكافرين)(١).

والقضية الثانية تبين أن كل نفس عاملة فى الحياة إنما تنال جزاء عملها ، فلها جزاء ما كسبت من خير وبر وإصلاح ، وعليها جزاء ما اكتسبت من شر وفجور وإفساد .

وهذا تقرير لقانون العدل الذى تقوم على أساسه مسئولية الأفراد وروابطهم الاجتماعية ، فلا تظلم نفس شيئاً من جزاء عملها ، ولا تتحمل نفس آثار عمل نفس أخرى لم تعمل ذلك العمل ، فتبوء بجزائها .

وفى إطار هذا القانون الذى تقرره الآية الكريمة فى طرفيها ، من يسر التكاليف ، وعدالة الجزاء ساق البيان القرآنى آيات الهداية التى تقصد إلى تربية الفرد تربية سلوكية فى تحمل مسئولية العمل تحملا كاملا يربطه بالجزاء كسباً واكتساباً .

يقول الله تعالى (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً)(٢) وهذه الآية تفرد عمل السوء وكسب الإثم والشر بالذكر فى ربط الجزاء بالعمل ، وكأنما ذلك ـ فيما يظهر والله أعلم ـ لملاحظة جو القصة

---

(١) سورة البقرة آية (٢٨٦)   (٢) سورة النساء آية (١١١)

التى نزلت الآية فيها(*) ولأن عمل السوء فى الحياة أشبه بالمرض الذى يجد

(*) والقصة كما يرويها الطبرى عن قتادة بن النعمان الانصارى قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق : بشر وبشير ، ومبشر ، وكان بشير رجلا منافقا ، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينحله إلى بعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا ، وقال فلان كذا ، فاذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث فقال :

أو كلما قال الرجال قصيدة أضموا وقالوا : ابن الابيرق قالها

قال قتادة بن النعمان : وكانوا — أى بنو ابيرق — أهل بيت فاقة وحاجة فى الجاهلية والاسلام ، وكان الناس إنما طعامهم التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار — فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك — ابتاع الرجل منها فخص به نفسه ، فأما العيال فانما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام ، فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرمك ، فجعله فى مشربة له ، وفى المشربة سلاح له : درعان وسيفاهما وما يصلحهما فعدى عليه من تحت الليل ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح ، فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ؛ تعلم أنه قد عدى علينا فى ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا فذهب بسلاحنا وطعامنا ، فتحسسنا فى الدار ، وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا فى هـذه الليلة ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم .

وقد كان بنو أبيرق قالوا — ونحن نسأل فى الدار — والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل — رجلا منا له صلاح وإسلام — فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بنى أبيرق فقال : والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبيننن هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها ، فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال عمى : يا ابن أخى لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له . فقلت يا رسول الله ، إن أهل بيت منا أهل جفاء ، عمدوا إلى عمى رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظر فى ذلك ، فلما سمع بنو أبيرق بذلك أتوا رجلا منهم يقال له (أسير بن عروة) فكلموه فى ذلك ، واجتمع إليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته ، فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر عنهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فأتيت عمى رفاعة ، فقال : يابن أخى : ماصنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، =

بيئة مهيئة لسريانه بالهيضة والفساد ، فهو أحوج إلى التنبيه إلى أن عامل السوء وصانع الشر مربوط جزاؤه بعمله ، فعليه وحده عاقبة ماصنع ، وكل من ضعفت نفسه أمام عمل السوء والشر فصنع مثله كان عليه وحده جزاء ماصنع ، دفعا لما يتوهم أن العمل الذى يقع بطريق سريان الفساد يكون جزاؤه على من أصّل السوء وبدأ به .

ويقول عز شأنه (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا)[1].

وفى هاتين الآيتين إلى جانب قانون العدل وتحمل المسئولية ردع للذين يعيشون أحلاس الكسل والاستهانة بالعمل فى زوايا الإهمال ، ويتمنون على الله الأمانى ، فهم كلٌ على أنفسهم ، وعلى الحياة ، وعلى المجتمع الذى يحيون بين جنباته دون شعور بتحمل مسئولية عمل من الأعمال .

وهؤلاء جرثومة إفساد فى حياة الأمة ، قصدت الهداية القرآنية أن تلفت إليهم بهذا الأسلوب الزاجر أنظار المجتمع ليقتلع جذور التواكل من أنفسهم ، تصحيحا لبناء الأمة ، ودفعا لها إلى العمل الجاد فى مجال المسئولية

= فقال : الله المستعان ، فلم يلبث أن نزل القرآن « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » ـ يعنى بنى أبيرق ـ « واستغفر الله » أى مما قلت لقتادة « إن الله كان غفورا رحيما » « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » ـ أى بنى أبيرق ـ « إن الله لايحب من كان خوانا أثيما » . . . فلما نزل القرآن أتى رسول الله صلى الله عليه بالسلاح فرده إلى رفاعة ، قال قتادة : فلما أتيت عمى بالسلاح ، وكان شيخا قد عسا فى الجاهلية ـ أى أسن وكبر فيها ـ وكنت أرى إسلامه مدخولا ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخى هو فى سبيل الله قال قتادة : فعرفت أن إسلامه كان صحيحا .

(١) سورة النساء آيتى (١٢٣ ، ١٢٤)

الكاملة ويقول ربنا تبارك وتعالى (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ)(١)

وفى هذه الآية الكريمة تتحدث الهداية القرآنية عن حقيقتها ، فتبين أنها نور وبصائر منزلة من عند الله ، لتكشف للناس أسرار الكون ، وتفتح لهم مغاليق الحياة ، فمن استضاء بها وجعلها شمس هدايته ، وفتح لها بصر بصيرته ، وعين عقله كان أعرف بمواقع صالح العمل ، وكان أقدر على تحمّل مسئولية عمله ، وكان أرضى بجزاء كسبه الذى هو له وحده لا يتحداه إلى غيره .

ومن أغلق منافذ عقله ، وأغمض بصر قلبه عن مواقع الهداية فعميت بصيرته ، واحتبس وراء أسوار الجهالة عقله عاش مختلط الفكر ، لا يدرى ماتتطلبه حياته وحياة مجتمعة من عمل صالح تعظم به قيمة الحياة ، تقوده الحيرة إلى غير هدف ، ولكنها تروح به وتجىء ، يشك فى كل حقيقة ، ويرتاب فى كل يقين ، مهزوز الشخصية لا يستطيع أن يتحمل مسئولية مايقع منه من عمل ، يسخط على حظه من جزاء عمله الذى يحيط به وحده فلا يشاركه فى حمله أحد ، كما قال ربنا تبارك وتعالى (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى)(٢) وهذه الإجمال فى هذه الآية فصلته آيات أخرى فى قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا * من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)(٣) وتتعدد مواضع هذا الأسلوب فى البيان القرآنى ، ولكنه لا يكون محض تكرار ، وإنما

(١) سورة الانعام آيه (١٠٤)

(٢) سورة الانعام آية (١٦٤)   (٣) سورة الإسراء آيات (١٣ ، ١٤ ، ١٥)

يرد حيث يرد لاقتضاء المقام له ، ولا بد فيه من اختلاف بزيادة المعنى ، يقول الله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير)[١] . ويقول جلا وعلا (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)[٢] وهذا تقرير لحرفية قانون العدل . ويقول عز شأنه (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين)[٣] وفى هذه الآية بيان أن كدّ الإنسان وكدحه ، عائد عليه بآثاره إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والله لا يكلف العباد شيئاً يعود عليه منه نفع أو يلحقه ضرر لأنه غنى عنهم بكبرياء جلاله .

وفى البيان القرآنى أسلوب آخر فى بيان الهداية القرآنية التى تقصد إلى تربية السلوك بتحمل المسئولية يجرى بين الترغيب والترهيب ، يقول الله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[٤] ويقول سبحانه (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون)[٥] ويقول عز وجهه (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)[٦] .

وقد جمع الأسلوب البيانى خلاصة الهداية القرآنية فى التربية السلوكية بتحمّل الفرد المسئولية فيما يصدر من عمل بالجوارح ، أو بالضمير والقلب ، أو بالعقل والروح فى هـذه الآية بإيجاز هو الغاية فى الإعجاز قال تعالى

---

(١) سورة فاطر آية (١٨)
(٢) سورة فصلت آية (٤٦)
(٣) سورة العنكبوت آية (٦)
(٤) سورة النحل آية (٩٧)
(٥) سورة النحل آية (١١١)
(٦) سورة يونس اية (٤١)

(ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)[١] .

* * *

أما المسئولية الجماعية فهى التى تتحملها الأمة كلها متضامنة متكافلة فى عملها الجماعى لصيانة المجتمع عن الهزات الاجتماعية التى تزعزع الثقة فى أنفس الأفراد ، مما يؤدى إلى انهيار الترابط الجماعى ، ويقوى تيار الانعزالية الفردية فى الأمة فتستحكم فيها الأنانية والأثرة ، وتختل نتيجة لذلك موازين العدالة ، ويشيع بين عناصر المجتمع التظالم والخصومات ، وتفقد روح التعاون الأخوى بين أبناء الأمة .

وهذا اللون من التربيةالسلوكية فى تحميل الجماعة مسئولية عملها الجماعى كثير فى البيان القرآنى متعدد الأنحاء فى أسلوب الهداية القرآنية ، وطرائقها فى مخاطبة الأمة خطاب التكليف الجماعى باعتبارها القيم على موازين العدالة بين الأفراد .

فكل خطاب فى البيان القرآنى يتجه إلى الجماعة بعنوانها الإنسانى العام (يا أيها الناس) أو بعنوانها الإيمانى (يا أيها الذين آمنوا) هو شاهد من شواهد التربية السلوكية فى تحميل الجماعة مسئولية العمل الجماعى .

وتحميل المسئولية للفرد والجماعة هو أساس التربية السلوكية التى تحقق العدالة ، وتنشر التراحم بين أفراد الأمة ، لأن إحساس الفرد أو الجماعة بالمسئولية يربى الضمير ، ويوقظه ليكون دائماً هو الحارس من داخل النفس الإنسانية ، الحريص على سلامة ما يصـــدر من الأعمال فى إطار المسئولية ، إلى جانب إشعاره بالكرامة الشخصية وحرية الإرادة .

---

(١) سورة الاسراء آية (٣٦) .

والهداية القرآنية لا تقف فى التربية السلوكية عند منزلة العدل المطلق التى كان تحمل المسئولية مظهرها الأول ، ولكنها فى سبيل إعداد الفرد والجماعة لحياة اجتماعية فاضلة تقوم على أساس الترابط الأخوى فى الأسرة الإنسانية كلها على وجه العموم ، وفى الأسرة الإيمانية منها على وجه الخصوص — تتسامى إلى آفاق مكارم الأخلاق التى لا تتقيد فى إقامة العلاقات الاجتماعية بقيود الحق الواجب ، وإنما تذهب منطلقة مع السماحة وروح التواد والمحبة والإيثار .

وهذه المرتبة فى التربية السلوكية تجىء ثانية بعد مرتبة العدل تعظيما لحقه وبياناً لعموم فضله ، حين نجد الهداية القرآنية توصى بالإفضال ومحاسن الشيم ، بل إنها تستعلى فى سموها فتوحى بالإيثار الذى كان سمة من سمات أفضل نماذج الإنسانية ممثلة فى المجتمع الإسلامى الأول الذى تولت الهداية القرآنية تربيته تربية سلوكية ، تؤذن أن تكون فى نبلها مثالية من عالم الخيال ، لولا أنها كانت فى واقع الحياة المشهود أثراً من آثار الفضائل العملية فى وجود المجتمع المسلم (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[١].

وإذا كانت هذه الآية الكريمة نصاً فى الإيثار فإن روحها يجرى فى قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[٢] .

والإيثار ليس عطاء مادياً ، ولكنه خلق روحانى تفنى فى حقيقته الاعتبارات المادية ، فلا يقام لها وزن فى حساب الفضائل .

ومن هنا كان امتثال الأوامر الثلاثة فى الآية باباً من أبواب الإيثار ،

---

(١) سورة الحشر آية (٩) . (٢) سورة الاعراف آية (١٩٩) .

ويروى المفسرون أن هذه الآية لما نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عنها ، فقال له « إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » وهذا إيثار بالفضل فى مكارم الأخلاق ، نجده مصوراً تصويراً بارعاً فى قوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)[١] وفى قوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل)[٢] .

ومن لطائف هذا النوع فى الأسلوب البيانى أنه فى الأغلب يبدأ بمرتبة العدل حقاً واجباً ، ثم يعطف إلى ذكر مرتبة الفضل تفضلا ، مرغباً فيها ترغيباً يحبب القلوب فى مكارم الأخلاق .

ومن جوا معه هذه الآيات التى تصف المؤمنين بالاستجابة لربهم حين دعاهم رسوله إلى الإيمان به ، وتعبدهم لجلاله بأخلص منازل العبودية فى أرفع مراتبها بإقامة الصلاة ، وهذا بيان لفضلهم أفراداً مؤمنين ، ثم ذكر لهم فضلهم الجماعى فوصفهم بأفضل ما توصف به الجماعات من أخلاق اجتماعية هى الشورى فقال تعالى : (والذين استجابو لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)[٣].

وهذا اللون من التربية خليق أن يجمع للأمة عناصر القوة ، يقيم بها

---

(١) سورة فصلت آية (٣٤) . (٢) سورة الحجر آية (٨٥) .

(٣) سورة الشورى آيات (٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣)

موازين العدل ، وعناصر الرحمة ترفع بها منار الفضل ، والأمة إذا عاشت قوية بالعدل رحيمة بالفضل كانت المثال الأقوم والنموذج الأعلى للمجتمع الأفضل فى واقع الحياة ، وهذا ما تستهدفه هداية القرآن التربوية من اعداد أمة الإسلام حتى تكون ـ كما أرادها الله فى مكانها من قيادة المجتمع البشرى وكما وصفها ـ خير أمة أخرجت للناس ، قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(١) وقال سبحانه (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) (٢)

ونحن اليوم نعيش فى عصر لا مقياس له فى سرعة الانتقال من شيء إلى شيء ، ومن حال إلى حال ، فهو عصر السرعة المسعورة التى شردت عن الضوابط والمقاييس ، حتى أشبهت الطفرة فى توثباتها وهو عصر مادى انفلت فيه زمام العقل بدافع الغرور العلمى ، وطغت فيه ظلمات الالحاد على نور الايمان وانحسرت فيه القيم الروحية والأوضاع الخلقية ، وخنست الفضائل إلى زوايا الانعزاليين السلبيين الذين أرمضهم ما سمعوا وما رأوا وعجزوا عن النهوض بالعبء ولن يغنيهم ذلك من الله شيئا وسوف يسألون

عصر أصبح فيه التنكر للدين والسخرية من القيم الروحية والفضائل الانسانية (أفيون) الشباب المثقف الذى يعيش تحت سلطان هذا المخدر المجلوب من وراء البحار وخلف السهوب ساهما تائها ، يمشى فى حياته وحياة الناس إلى غير هدف ، عبدا لغرائزه الحيوانية وشهواته البدنية ، منطلقا من قيود الفضائل منخلعا من وشائج القيم الخلقية التى جاءت بها جميع الأديان السماوية ، لأنه يجهلها ، ولا يعرفها معرفة نظر باحث ، ولا معرفة عمل تطبيقى صادر عن يقين يملأ جوانحه ، ويعمر قلبه .

---

(١) سورة آل عمران اية (١١٠)

(٢) سورة البقرة آية (١٤٣)

ولو عتبت على هذا الشباب حاله لوجدت عنده من الحجة التى تلقى الذنب على القوامين بتنشأته وتربيته وخاصة القوامين على دراسة القرآن وبيان هداياته والمكلفين الدعوة إلى الله وإلى دينه وتبليغ رسالة الإسلام، مما يبعث الأسف والاشفاق على ضياع هذه الثروة البشرية من شباب المسلمين لأن هذا الشباب وفيه جميع طاقات البشرية الروحية والعقلية والبدنية مفرقة فى جماعاته وأفراده لم يجد أمامه الأسلوب السهل الرغيب الذى يوجهه ويحبب إليه النظر فى علوم الإسلام ومعارفه من مصدرها الأصيل القرآن الحكيم، كما أنه لم يجد القدوة الحية التى تسامت بالفضائل علماً وعملا حتى كانت فى حياة الناس المثل المضروب لطلب التأسى والاقتداء.

وهذا الضرب من الهدايات القرآنية ينزل منها منزلة العروة التى تجمع حلقات المجتمع الإسلامى، فإن هى تركت حتى تراكم عليها صدأ الإهمال تفتت ذراتها، وتحللت عناصرها وانفرط عقد هـــذا المجتمع إلى فئام من الناس كأنها حبات من الرمل منثورة فى صحراء الحياة تتلاعب الرياح بها هنا وهناك.

وإن هى لقيت من العناية البيانية فى القرآن الكريم ما يلفت إليها الأنظار عادت كما كانت دافعاً من دوافع النهوض والتقدم، ودعامة من دعائم بناء المجتمع المسلم على أسس من الفضائل ينهض بها إلى مكانه من الحياة حاملا أمانة الفكر المؤمن وهو يجول فى معترك الوجود.

الأصل التاسع

المجتمع البشرى

بين عناصر التماسك وعوامل الانحلال

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية يرمى إلى الكشف عن طريقة البيان القرآنى فى نظرته إلى المجتمع البشرى فى أصل نشأته ، وعناصر بنائه بناء اجتماعياً : يصور تفكيره ولون حياته فى أخلاقه وعاداته وطريقة عيشه فى صورة موحدة الوسائل والغايات .

وفى نظرته إلى الأطوار التى مر بها هذا المجتمع فى مراحل الحياة بين مد واتساع ، يعتمد على دعائم التمازج بين قوى أفراده تمازجاً يجعل من تلك القوى الفردية قوة موحدة العناصر الفعالة فى توجيه المجتمع كله إلى آفاق التقدم الحضارى باعتبار هذا التقدم هدفاً من أهداف الحياة الإنسانية فى هذا الوجود .

وفى نظرته إلى الأطوار الانحدارية التى مر بها هذا المجتمع بين جزر التفتت ، وانحسار الفناء الجزئى فى جانب من جوانبه فى زمن معين أو مكان محدود ، بسبب العوامل الانحلالية التى جعلها الله سبحانه وتعالى فى طبيعة الحياة معاول هدم لبناء أى مجتمع من المجتمعات التى قام بناؤها فى أصل وجودها على دعائم اجتماعية سليمة من فضائل الأخلاق ومحاسن العادات، ثم انحرف بهذا المجتمع قادته وسائقوه فى قافلة الحياة عن هذه الفضائل والعادات ، إلى بُنيّات الطريق ، ومتعرجات المسالك ، فارتطم فى هوة الانحلال الاجتماعى ، وغاص فيها إلى مهالك الفناء فى عملية مد وجزر . قد

تطول ، وقد تقصر تبعاً لقوة عناصر البناء الأصيلة لهذا المجتمع أو ضعفها وتغلب عوامل التحلل الخلقي عليها .

والهداية القرآنية فى هذا المقام تنبه إلى لون من ألوان عوامل الانحدار والتفتت فى المجتمع فى صورة مجملة ، ولكنها متكررة فى محافل المجتمعات من الحياة ، يقول الله تعالى : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون)[1] .

ويقول عز اسمه (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فالآيتان بينتا أن فساد المجتمعات إنما يبدأ من تفتت القمة الاجتماعية فى الأمم والشعوب ، وفساد القادة والزعماء نذير صارخ بإفساد المجتمع ، وهذا الإفساد إذا وقع لا يخص جانباً أو طائفة ، وإنما ينصب عاماً شاملا مغرقا .

وتزيد الآية الثانية إفادة أن الترف عامل من أقوى وأسرع عوامل التفتت والهدم والانحلال فى المجتمعات البشرية ، لأن الانغماس فى مراتع الشهوات وإشباع نهم الغرائز يميت الاحساس بالنخوة ويقتل الشعور بالغيرة ، ويجعل الرذائل من مألوفات الحياة ، بل يجعلها ميداناً للتنافس ، فلا يهتم أحد برفع رأسه إنكاراً لها ، بل يجد المجتمع فى قادته المترفين من ينكر على من ينكر هذه الرذائل ، وتصبح الفضائل والقيم الروحية ومعالم الأخلاق غرائب فى نظر هذا المجتمع المنحل المتحلل ، وعندئذ تحل كلمة الله ويتعرض هذا المجتمع لعوامل الإفناء والإبادة يقول الله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن

---

(١) سورة الانعام آية (١٢٣) .

أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)(١) .

وهذه الآية تبين أنه تعالى يأخذ بالإفساد الاجتماعى وشيوع المعاصى أسرع مما يأخذ بالكفر والإشراك به ، وتبين أن أهل الخير والصلاح لو قاموا بواجب النهى عن الفساد بصدق وإخلاص وشجاعة فى الحق وللحق دون تشنيع وشماتة لنجا المجتمع وسلم من انتقام الله تعالى ، لأن سنة الله فى خلقه أنه لا يهلك المجتمعات بكفرها ما دام أهلها صالحون للحياة المستقيمة .

والهداية القرآنية تحذر المجتمعات البشرية من الوقوع فى الانحرافات الاجتماعية بالإشارة إلى أحداث التاريخ الاجتماعى ، ووقائع الإبادة والاستئصال التى جعلتها الحياة مثلا مضروبا للأمم والشعوب . وتصوير ما نال أولئك المنحرفين عن مهيع الهداية من مساخط الله ونقماته .

وفى قصص الأمم السابقة فى البيان القرآنى مواضع للعبرة والعظة ، ففى قصة عاد وثمود وأخذهم بعذاب الإبادة والإفناء ، وفى قصة أهل المدائن وقوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وأخذهم بما أخذهم الله به آيات على أن الهداية القرآنية فى بناء المجتمع وتصوير عناصر صيانته وحفظه ، وتصوير عوامل إفنائه وتفتيته تضع للناس دعائم بناء المجتمعات الصالحة وتضع لهم وسائل الوقاية من الانزلاق الاجتماعى حتى لا تتسرب إليهم عوامل الهدم والإبادة .

والقانون العام لهداية القرآن فى هذا الأصل من أصولها يصوره قول الله تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً)(٢) .

---

(١) سورة هود آيتى (١١٦، ١١٧) (٢) سورة النساء آيتى (١٣٢، ١٣٣) .

وقوله تعالى (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)(١) وقوله تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز)(٢) .

فالآيات الثلاث تقرر كمال اقتـــدار الله تعالى على إفناء ما يشاء من المجتمعات البشرية واستبدال غيرها بها من عباده الصالحين لخلافته فى الأرض وعمارة الكون والنهوض بالحياة ، وفى الآية الثانية تقرير لعدل الله وقاهر قدرته ومحكم تدبيره ، وقضائه بحكمته ألا يهلك قوماً حتى يتقدم إليهم بالموعظة والإنذار والبلاغ ، بمن يبعث إليهم من الرسل مبشرين ومنذرين كما قال تعالى (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون)(٣) فإذا انحرفوا عن دعوة هؤلاء الرسل ، وأفسدوا فى الأرض ،كانوا قد أحلوا بأنفسهم سخط الله ونقمته ، كما تقرر أن لكل عامل نصيباً من عمله ، يحصى عليه فى كتاب حفيظ ، لا يضل ولا ينسى ، والله غنى عن الخلق ، قدير على إفنائهم ، حكيم عدل ، لا يهلكهم إلا إذا دفعتهم نفوسهم الشريرة إلى الانحراف والعدول عن سنن الفطرة ، بما يرتكبون من أعمال الفساد والإفساد ، ليستبدل بهم خلقاً جديداً ، يرثون الأرض لإصلاح الحياة ، قياماً بشكر الله الغنى عن العالمين ، وأن الناس هم الفقراء إلى الله وأن له سبحانه كمال الاقتدار على أخذ المنحرفين ، بما يشاء من ألوان عقابه ، وإحلال من يشاء محلهم ممن صفت فطرتهم ولم يدنسوا بكبرياء الغرور وميوعة الترف وبطر النعمة كما هى

(١) سورة الانعام آيات (١٣١، ١٣٢، ١٣٣) .
(٢) سورة فاطر آيات (١٥ ، ١٦، ١٧) .
(٣) سورة القصص آية (٥٩) .

سنته فى خلقه ، قال عز شأنه (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين)[١].

وفى منهج الهداية القرآنية ألوان من التأديب الجزئى الذى نال بعض الأمم والمجتمعات المنحرفة يقصد به إلى تنبيه المجتمعات التى لا تزال فيها بقية من عناصر الخير وصلاحية البقاء ، لتعدل عن الانحراف الاجتماعى الذى يصيبها فى طريق سيرها فى الحياة وتصحح أوضاعها الاجتماعية وتزيل ما علق بها من أوضار الفساد حتى تستقيم قناتها أو يتولد منها جيل لم تلحقه عدوى الأمراض الاجتماعية والأدواء الفكرية ، والاستهتار بالقيم الروحية .

وهذا الضرب من الهداية القرآنية كثيرة شواهده فى بيان القرآن الكريم ، لاتخلو منه سورة من السور المكية ـ على الخصوص ـ وهو فى السور المدنيات غير قليل ، وهو فى حاجة شديدة إلى أقلام خبيرة بفنون الاجتماع البشرى وأطواره ، وسياسة الأمم والشعوب ليعالج معالجة تبين منازل الهداية فى رحابه ، وتفسر آياته من القرآن الكريم بطريقة تجعل من الهداية القرآنية فى بناء المجتمع الصالح نبراسا يستضىء بنوره المصلحون الاجتماعيون فى صورة تبرز الهداية الاجتماعية فى بيان القرآن الحكيم باعتبارها لونا من ألوان الإصلاح الاجتماعى الذى لا تستغنى عنه الحياة ، وتضعها موضعها من وجود الناس بما فيها من العبرة الواعظة والأسوة الهادية الجيدة .

واستقصاء شواهد هذا اللون من الهداية القرآنية يطول ولا يحصى ، ونحن نذكر من ذلك ما يسنح للخاطر كنموذج لهذه الشواهد .

ويستطيع الناظر أن يأخذ جملة ما تحدث به القرآن الحكيم عن الأمة

---

(١) سورة القصص آية (٥٨) .

العربية فى عصر نزوله الذى تجددت به حياة تلك الأمة بعد صهرها فى مساعر الأحداث ، وما وصف من حالها التى كانت عليها يوم بعث فيها رسول الهداية القرآنية ، وما كانت عليه من فوضى اجتماعية وانحلال يصفه الحبر ابن عباس رضى الله عنهما فيقول: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) .

والمراد الآيات التى تبدأ بذكر قانون اجتماعى عام يبين مايجرى على المجتمع البشرى من أطوار الإفناء والتجديد ، وذلك فى الآيات الثلاث التى سبق ذكرها ، ثم تأخذ الآيات فى تعديد قبائح الجاهلية الجاهلة التى كان يحياها العرب قبيل الإسلام ، وذلك قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساءما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين)(١).

وكذلك يستطيع الناظر أن يأخذ جملة ماتحدث به القرآن الحكيم عن هذه الأمة العربية بعدما جددت الهداية القرآنية ديباجة حياتها ، فصنع

---

(١) سورة الانعام آيات (١٣٦ ــ ١٤٠)

منها أمة رائدة ، وضع فى يدها زمام خلافة الله فى الأرض لتقود الإنسانية إلى آفاق جديدة من الحضارة الاجتماعية والفكرية ، ويخاطبها القرآن وهى فى مكانها من الطليعة فى قيادة كتائب البشرية ، تمضى بها مع الحياة فى مدارج التاريخ بقوله عز شأنه (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[١] وبقوله جـــل وعلا (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم)[٢] وبقوله تبارك اسمه (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)[٣].

وخصيصة الأمة العربية فى هذا النحو من البيان القرآنى تختص بأصالتها فى المواجهة بالخطاب ، لا فى اختصاصها بالخطاب ، تحقيقاً لعموم الرسالة الإسلامية الخاتمة .

ويجرى مجرى هذه الآيات كل ما جاء فى البيان القرآنى من آيات الدفع القيادى لهذا المجتمع باعتباره الدعامة الأولى التى قام عليها بناء المجتمع الأكبر لهداية القرآن العظيم التى تشير إلى أن هذا المجتمع مطلوب لقيادة الإنسانية بإعداد نفسه إعداداً كاملا يقوم على قوة الحق ، ويعتمد على دعائم الفضائل الخلقية ، يقول الله تعالى مخاطبا لهذا المجتمع فى عموم أفراده ، وجماعاته (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)[٤].

---

(١) سورة آل عمران اية (١١٠) (٢) سورة النور آية (٥٥)
(٣) سورة البقرة آية (١٤٣) (٤) سورة آل عمران (١٠٣،١٠٤،١٠٥)

فأمر هذا المجتمع بجميع إفراده بالاعتصام بحبل الله والتمسك بكتابه الذى أنزله هدى ورحمة ، وتأكيد ذلك بالنهى عن التفرق والتبدد إلى شيع وأحزاب ومذاهب وآراء ، وتذكيرهم بنعمه الله عليهم فى أنه هدى قلوبهم بعد ضلالة ، وألانها بعد قساوة ، وغسلها من أوضار الحقد الجاهلى ، وملأها بالألفة والمحبة بعد الفرقة والبغضة ، وأنه أنقذهم برسوله وهدايته القرآنية من هلاك كان يحيط بهم . وكانوا منه على مزلقة القدم ، وأنهم صاروا إخوانا متآلفين متحابين ، يجمعهم الإيمان ، وتضمهم الهداية ، كل ذلك يوجب على هذا المجتمع أن يشمر إلى الغاية التى طلب أن ينهض إليها ، ولهذا جاءه الأمر يحتم بغير ثنيا على جميع أفراده أن يعدوا أنفسهم للقيام بواجب ما ناط الله بهم من إصلاح ، حددت الهداية القرآنية مجاله ، فهو دعوة إلى الخير ، كل الخير ، لكل الناس ، وكل الحياة ، وأمر بالمعروف الذى تعرفه هذه الهداية فى البيان القرآنى والشرائع المبينة لهدايته من السنة المطهرة ، ونهى عن المنكر الذى تنكره الهداية ، وتنكره معها العقول السليمة والطبائع المستقيمة .

والهداية القرآنية لا تقف بمجتمعها عند وضع المقدمات فى مواضعها ، ولكنها تعطيه ضمان النتيجة إذا وفى بتصحيح وضع المقدمات (وأولئك هم المفلحون) وهى أيضا لا تتركه دون حافز من حوافز النهوض ولكنها تصور له حال من كانت بيدهم مقاليد توجيه الحياة قبله ولكنهم ضلوا الطريق ، وانحرفوا عن صراط الهداية ، وتفرقوا طوائف ، واختلفوا مذاهب ، ولم يثبتوا مع ما جاءهم من البينات من ربهم ، فاستحقوا نقمة الله وعذابه ، فغضب الله عليهم ، وسلبهم ما كان لهم من خصائص اجتماعية وفكرية صالحة ، فأهلك منهم من أهلك ، وأبقى للعبرة من أبقى مشردا فى أرض الله مسخا من الخلق فى صورة الأناسى .

وكان من أبقى الله منهم كنموذج للمجتمع الذى توافرت له فى مطالع بنائه عناصر الإصلاح الفكرية والاجتماعية ، ثم انحرف عنها متحللا من قيود الفضائل والقيم الروحية ومكارم الأخلاق ، المجتمع العبرانى اليهودى ، وقد جعلته الهداية القرآنية مثلا مضروبا ، فتحدثت عنه فى البيان القرآنى حديثا ضافى الزيول عجيباً غريباً فى أحاديث القرآن الحكيم الإنسانية التى التى يراد بها تصوير الإنسان فى مراحل التدرج الاجتماعى فى الحياة .

لقد بين القرآن الكريم فى حديثه عن المجتمع العبرانى الذى يسميه القرآن مرة بالمجتمع الإسرائيلى ، ومرة بالمجتمع اليهودى ما كان لهذا المجتمع من حياة الاستقامة فى عهود بعض أنبيائه ، استقامة وصفهم القرآنى لأجلها بأنهم كانوا أفضل مجتمع فى عصرهم ، ثم بين القرآن مادب إليهم من عوامل الانحلال الاجتماعى ، والتحلل الخلقى ، والجمود الفكرى ، حتى أفسدت فيهم كل شىء ، أفسدت عقولهم وتفكيرهم ، وأفسدت عقائدهم وتعبداتهم ، وأفسدت أخلاقهم وقيمهم الروحية ، وأفسدت حياتهم الاجتماعيـــة والشخصية ، وقتلت فيهم النخوة والغيرة ، وأماتت فيهم الإحساس بالخير ، والشعور بالكرامة مما أوصلهم إلى حال من الفساد الذاتى لا يمكن معها أن تقوم لهم قائمة يعود بعدها مجتمعهم إلى طبيعة المجتمعات الإنسانية فى رجاوة الإصلاح ، لأن الله تعالى أيأس الحياة من إصلاح حالهم فقال عز اسمه : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)(١) وقال جل شأنه (ضربت عليهم الذلة أين ماثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)(٢) .

---

(١) سورة البقرة آية (١٠٦) .	(٢) سورة آل عمران آية (١١٢)

وقد كرر القرآن الحكيم ذكر قصص هذا المجتمع فى سور كثيرة متعددة من سوره ، وأورده بأساليب متفاوتة فى العرض حسبما يقتضيه مقام الإيراد ، وقد يذكر فى السورة طرفا من هذا القصص ، ثم يكمل حديثه فى سورة أخرى ، لأن المقصد الأسنى للهداية القرآنية تسجيل العبرة من القصص ، وبيان مناط الاهتداء فيه .

ففى سورة البقرة يجد الناظر فى رياض القرآن الحكيم أكثر من مائة آية تتحدث عن هذا المجتمع العبرانى ، اليهودى ، الإسرائيلى ، فتصف ما كان له من مقومات الحياة وما أمده الله به من نعم كفرها ولم يقم بحق شكرها ، والكفر ألوان وفنون ، كما أن الإيمان درجات وضروب ، وقد أبانت الهداية القرآنية مافى كفر المجتمع العبرانى الإسرائيلى اليهودى من تهافت وسخف ، ومهانة وبلادة ، وجحود وفجور ، وخور وصغار .

ففى مطلع هذه السورة العظيمة تسجل آياتها أن هذا المجتمع هو الذى زرع النفاق فى الأرض : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ...)[١] .

فهم أصل النفاق ، وبؤرته ، عنهم أخذ دراية ورواية ، وعلماً وعملا ، ونظراً وتطبيقاً ، وهم أئمته ، ومنافقو الدنيا عنهم تتلمذوا ، ولهم اتبعوا ، والنفاق شر ألوان الكفر وفنونه : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً)[٢] .

ثم تأخذ الآيات الكريمة فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وأنه فضلهم

---

(١) سورة البقرة آيات تبدأ من الآية الثامنة .

(٢) سورة النساء آية (١٤٥) .

على العالمين بما أعطاهم من ضروب الحفاوة والتكريم : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أف بعهدكم وإياى فارهبون)(١) .

ولكنهم استبدلوا بهدى الله وفضله وإنعامه الاستجابة إلى غرائزهم الفاسدة ، واندفعوا فى الفساد والإفساد ، لا يرجون لله وقاراً ، ولا يذكرون له عهداً .

وهكذا ظلت الآيات تذكرهم بفضل الله عليهم وإسباغ نعمه عليهم لترفع من معنويتهم ، لكنهم لفساد فطرهم يأبون إلا أن يخلدوا إلى الأرض متبعين أهواءهم ومستعبدين لشهواتهم ، متهالكين على الدناءات حتى فى مطالب غرائزهم الخبيثة من المطعم ، فقد ردوا نعمة الله عليهم بأطيب أنواع الطعام من أيسر وأقرب طرقه ، والصقوا بطونهم إلى الأرض ، يطلبون فومها وعدسها وبصلها .

ثم تصف الآيات عنادهم البليد ، وطبعهم الصفيق ، وجمودهم الغريب فى قصة بقرتهم ، إلى أن وصفت الآيات افتراءهم على الله وتحريفهم لكتابه التوراة الذى أنزله على كليمه موسى عليه السلام هدى ونوراً إخفاء للحق وحسداً من عند أنفسهم لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، ولأمته عامة ، حتى يجىء وصفهم فى جبنهم وخور عزائمهم عن ملاقاة أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأبنائهم : (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين)(٢) .

وفى سورة آل عمران ، والمائدة ، والأعراف ، والإسراء ، والقصص وغيرها صور كثيرة لهذا المجتمع الذى أكرم فلم يشكر ، وأنعم عليه فكفر ، وهدى فضل وانحرف ، وتبلد ، واستهتر بالقيم الذاتية

---

(١) سورة البقرة آية (٤٠) .

(٢) سورة البقرة آية (٢٤٦) .

لفضائل الحياة حتى انتهى أمره إلى هذا التصوير الذى دمغه به البيان القرآنى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين)[١] .

ومن بارع تصوير الهداية القرآنية لحال هـذا المجتمع الاسرائيلى ما وصفته به من أنه مجتمع لا يعيش إلا على الإفساد والضلال ، ليس فيه بقية من خير وليس فيه من يترفع عن الدنايا فينهى المفسدين عن الإفساد ، بل إنهم فى سبيل إشباع غرائزهم يستعينون على الإفساد فى الأرض بموالاة أعداء الله وأعداء للحق ، وذلك فى قول الله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) .

* * *

هذان أنموذجان للمجتمع البشرى الذى قام بناؤه فى أصل نشأته على عناصر إجتماعية متماسكة ، وأوتى من الحوافز الدافعة ما مكنه من تبوىء مكان القيادة فى قافلة الحياة ، ثم دبت إليه عوامل الإنحلال والتفكك ، وانحرف عن مهيع الفضائل ، ومنابع الهداية ، فتفتت عناصره الواشجة ، وانحلت عراه الرابطة .

بيد أن أحد الانموذجين بقيت له أصول حوافزه الدافعة التى تمده بقوى مقاومة عوامل الهدم والإفناء ، وترده — إذا أراد وتيقظ — إلى أصل وجوده المتماسك فى عناصر أفراده وشعوبه حتى يعود قوة قيادية فى مراحل الحياة الإنسانية .

---

(١) سورة الجمعة آية (٥) .

ذلك هو المجتمع العربي الذى ترعاه الهداية القرآنية — فى إطار رعايتها للعالم الإسلامى — بما تضفيه عليه من عوامل البعث الجديد ، فى صورة تربط حاضره بماضيه ، ومستقبله بأصل أمجاده وحوافزه فى الحياة .

أما الأنموذج الثانى فقد عبث هو بنفسه ، وبمقوماته الاجتماعية الحقيقية التى كانت مصدر تماسك عناصره فى بنائه الأصيل ، وليته اكتفى بهذا ، بل اختلق لحياته مقومات أبعدته — على مدار الزمن وأطوار التاريخ — كل البعد عن أصل تكوينه الذى تحدثت عنه الهداية القرآنية ، وبما خلعت عليه حين كان مستمسكا من فضل ليس لأحد من العالمين فى عصره .

بل إنه أضاع ما كان فى يده من هداية ونور ، ولم يقبل هدى الله الذى جاءه على يد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بل رد هذا الهدى والنور حسداً وكفراً عنيدا (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)[١] وبقى هذا المجتمع فى الحياة بغير رصيد من مقومات الحياة الصالحة ، فلا هو موجود ، ولا هو قد ذهب مع الفناء فى الفانين .

ذلك هو المجتمع العبرانى الإسرائيلى ، اليهودى ، الذى يصلى نار التشرد فى حياته ، لا يموت فيها ولا يحيى ، (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا إنهم لا يؤمنون)[٢] .

إنه مجتمع لا يعيش لنفسه ، ولا بنفسه ، وإنما يحيى هذه الحياة التى تستهدف الأوهام والسراب من أجل مستغليه ، وسيستنفدون أغراضهم من وجوده ، ويومئذ يحل به وعيد الله ، (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٦ .

(٢) سورة يونس آية (٣٣) .

إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) [١] .

* * *

وفى البيان القرآنى شواهد عامة على هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية ، لا تخص مجتمعاً من المجتمعات البشرية ، تتحدث عن المجتمع وعن عوامل تفتيته وانهياره ، يقول الله تعالى (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذنا بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) [٢] .

فهذه الآيات تبين سنن الله فى الأمم والشعوب والمجتمعات البشرية التى تتنكر للخير والهدى والاصلاح ، وتعرض عن الحق ، وتركب مطايا الإفساد والفساد ، وتوغل فى الضلال والشرور ، فيأخذهم الله بالابتلاء والمحن ليثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم متعبدين لله ، متذللين لجلال كبريائه ، ولكن هذه الانذارات لم تفد بعهم شيئاً لأن قلوبهم تحجرت فلم يعد فيها للهداية منفذ ، فكان لا بدمن استئصالهم وتطهير الحياة من أرجاسهم بقطع دابرهم ، غير أن من سنة الله الإملاء للمفسدين معاملة لهم بمكرهم وأخذهم وهم على متع الحياة مقيمون ، ففتح الله عليهم باب هذه المتع ، وبدل فقرهم ثراء ، وسقمهم صحة ، وسوء عيشهم رغدا وترفا ، حتى إذا انغمسوا فى هذه المتع ، وغرقوا فى الشهوات ، وفرحوا بها بطراً وأشرا

---

(١) سورة الأعراف آية (١٦٧)

(٢) سورة الانعام آيات (٤٢ — ٤٥)

واستكباراً على الله فاجأهم أخذ الله ، وهم أشد ما يكونون غروراً بالنعمة فأهلكهم وعفى آثارهم ، وذهبوا مع حسراتهم خاسرين .

ويقول تبارك وتعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون)(١) .

وهذه الآيات صريحة فى أن الإيمان والعمل الصالح واتقاء المخاطر الاجتماعية دعامة من دعائم بناء المجتمع السليم الذى يحيا حياة طيبة سعيدة، وأن تكذيب الرسل ، والكفر برسالاتهم عامل من عوامل هدم المجتمع ، لأنه يعرضه للتفكك والانحلال منطلقا عن قيود حبس النفس وتهذيبها ، وسبب من أسباب انتقام الله وسخطه ، وأن هذا الانتقام يأتى بغتة ، يفاجىء المفسدين وهم غارون غافلون لاعبون .

وفى الآية الثالثة إنذار وتخويف لمن يخلف هؤلاء المفسدين الذين أوقع الله بهم نقمته ليحذروا أن يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ، وهذا كقوله تعالى (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال)(٢) .

ومن شواهد هذا الأصل قول الله عز شأنه (ولقد أخذنا آل فرعون

---

(١) سورة الاعراف آيات (٩٦ — ١٠٠)

(٢) سورة ابراهيم آيتى (٤٥ ، ٤٦) .

بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون)[١] وقوله جل وعلا (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، ونادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين)[٢] ،

وخلاصة الروعة فى هذه الآيات تتجمع فى قوله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) لأنه تصوير لأحط درجات المهانة التى تنحدر إليها الشعوب إذا حلت بها عوامل التفتيت والانهيار . وتصوير لأبشع درجات الظلم والتعالى الأجوف ممن يحس من قادة الشعوب المفسدين بما وصلت إليه شعوبهم من الانحدار والتهالك متهاوية إلى قرار الفناء .

ومن سنن الله تعالى التى نبهت إليها الهداية القرآنية أن أخذ الله المفسدين الظالمين لا يتنقاهم من سائر من يحيون معهم ، ولكنه إذا أخذ بانتقامه عم وشمل ، ثم يحشرون إلى ربهم على قدر نياتهم ، يقول الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب)[٣] .

ومن ألوان التأديب الاجتماعى الذى جاءت به الهداية القرآنية هذا اللون الذى يقصد إلى تقوية روح المقاومة فى عباد الله الصالحين المصلحين ، وأنهم أمام سنن الله سواسية مع غيرهم ، لا تجرى بهم ريح الحياة رخاء سرمداً ، ولكنهم يتداولون الشدة مع غيرهم حتى لا تتميع نفوسهم باستمرار

---

(١) سورة الأعراف آية (١٣٠) (٢) سورة الزخرف آيات (٥٠ ، ٥٦)
(٣) سورة الأنفال آية (٢٥)

الراحة وظفر الانتصار على كل حال ، قال تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)(١) وقال تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)(٢) .

والهداية القرآنية لا تترك المجتمع فى مضيعة من أمره دون أن تضع بين يديه دعائم الحصانة التى تعصمه من الانزلاق فى منحدرات التفتت والانهيار ، إذا هو تمسك بها وتعطيه ضماناً اجتماعياً يحميه من مفاجآت أهل الشر والفساد من الضالين الغافلين عن سنن الله فى خلقه الذين يأخذهم بذنوبهم بعد أن يقدم إليهم كل أنواع التحذير والإنذار ، فإذا أعرضوا واندفعوا فى الظلم والفساد لم يبق إلا أن يهلكهم بعدله وحكمته ، يقول الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)(٣) والذى يجب أن يفهم من هذه الآية الكريمة أنها تضع للناس قانوناً اجتماعياً عاما تدعو الى الاستمساك به ليكون فيه نجاة المجتمع من عذاب الاستئصال والدمار ، فقوله تعالى (وأنت فيهم) معناه فيما يبدو أن الله لا يعذب مجتمعاً بعذاب الإفناء والمفاجأة مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته وخلقه وآدابه ومعاملته موجوداً بينهم ، ومحكماً فى حياتهم ، فاذا وقعت منهم السيئات وهم ليسوا بمعصومين من وقوعها سارعوا الى الإنابة والرجوع الى الله بالاستغفار والتوبة ، ويكون هذا الاستغفار غسلا لحوبتهم وتطهيراً لنفوسهم .

---

(١) سورة آل عمران آيات (١٣٩ ، ١٤٢)

(٢) سورة آل عمران آية (١٧٩) (٣) سورة الانفال آية

وتجمع الهداية القرآنية هذا القانون العام الى جانب نظيره فى بيان أثر عوامل الهدم، وبيان أن الظلم أشدها أثراً فى الأخذ به انتقاماً للمظلومين اذا شاع فى المجتمع ، ولم يجد فى المجتمع من يأخذ على يدى الظالم فيرده الى حظيرة العدل ، فيقول الله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)(١) .

---

(١) سورة النمل ايات (٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .

الأصل العاشر

إعجاز القرآن

بين الهداية وروعة البيان

هذا الأصل من أصول الهداية القرآنية هو المحور الذى تدور عليه فكرة هذا الكتاب ، وهذه الفكرة تقصد إلى وجوب تبيين معالم إعجاز القرآن فى تفسيره تبييناً يجعل منه لكل من يطلبه أو يُطلب إليه نصيباً منه قل أو كثر ، على حسب استعداد الناظرين واختلاف درجاتهم فى العلم والمعرفة ، والثقافة والتفكير ، وفراهة العقل واستنارة الضمير ، وفقه النفس ولطف الحس ، وإشراق الروح وصفاء القلب .

ونحن لا نزعم أننا سنفسر القرآن الكريم لنحقق هذا الذى نقصد إليه ، وإنما نطلب إلى المشتغلين بتفسير القرآن ممن لهم أهليته أن تكون نظرتهم إلى إعجاز القرآن نظرة مجددة وفهم عميق .

بيد أن هذه النظرة الغائصة مع أبعاد الجلال القرآنى الفاحصة لأسراره يجب ألا تتجاوز المقصد الأسنى من نزول القرآن وهدايته ، فلا تندفع مع الحماسة الفوارة التى تضع القرآن فى تفسيره بين يدى نظريات العلم المتقلبة الحائلة ، ورغائب النفوس الواهمة الخائلة والعقول الساهمة الحالمة .

وإنه ليجب على القيمين بفهم القرآن أن يشبعوا نَهَم المتطلعين إلى هداية القرآن فى إعجازه بطرائق علمية ، لها يقين العلم ، وفيها علم اليقين ، ليكون هذا الإعجاز حجة قطعية على وجوب الإيمان به كتاباً منزلا من عند الله لهداية الخلق ، وإرشادهم إلى ما يصلح أمورهم ، ويحقق سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وهذا الضرب من الإعجاز فى الهداية هو لباب هدايات القرآن وزبدة رسالته ، لأنه يحقق :

أولا — حجية القرآن لنفسه بوجوب اعتقاد صحة وصدق جميع ماجاء به من ضروب الهداية علما وعملا ، فهو بهذه الحجية شاهد نفسه لنفسه ، وذلك يتطلب وضوح البرهان حتى لا يختلج فيه أدنى ريب .

ثانياً — حجيته على صدق من أرسل به ، النبي العربى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ووجوب متابعته فى جميع ما ثبت عنه من قول أو فعل أو تقرير ما لم يكن هناك صارف قطعى عن وجوب المتابعة والاقتداء يصرف النص إلى الخصوصية الشخصية أو البيئية أو إلى مطلق العادة الجبلية .

والقرآن أنزل برسالة خالدة ، لا تقبل فى جملتها وتفصيلها ، كلياتها وجزئياتها رداً وهى خالدة عامة إلى جميع البشر فى كل زمان ومكان ، فكل من بلغته دعوة هذه الرسالة عاقلا عقل تكليف بلاغاً بينا يفهم المراد ويبلغ القصد ، فهو مخاطب بأصولها خطاب إيجاب ، يقول الله تعالى (قل يا أيها الناس أنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)(١) وقال عز شأنه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(٢) وقال تبارك وتعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)(٣) .

ومن ثم كان لا بد لثبوت حجية القرآن لنفسه وحجيته على صدق من أنزل عليه وبعث به أن يثبت إعجازه لجميع الأمم والشعوب من كافة الأجناس على اختلاف ألسنتهم فى جميع الأزمنة والأمكنة أفراداً وجماعات عامة

---

(١) الأعراف آية (١٥٨) . (٢) الأنبياء آية (١٠٧)
(٣) أول سورة الفرقان .

وخاصة ، حتى تثبت حجيته على جميع من أرسل إليهم ، وهم كافة الناس منذ أنزل إلى أن لا يبقى على وجه الأرض من يعقل الإيمان بالله ورسوله . وحينئذ يجب أن يكون تبيين معالم إعجازه بما يلائم العرب الذين نزل بلسانهم وغير العرب من عامة الناس وخاصتهم ، تحقيقاً لعموم رسالته .

وقد نزل القرآن عربياً مبيناً جرياً على سنة الله تعالى فى إرسال المرسلين بألسنة قومهم حتى يمكنهم الفهم عنهم والإفهام لهم بالطريق المألوف بين عامة البشر ، قال الله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) [١] .

وإرسال الرسل بلغات أقوامهم وألسنتهم ضرورة اجتماعية بالنسبة إلى كل رسالة ودعوة إلى الله تعالى ، يحتمها التفاهم الذى لا يمكن أن يتم بين الداعى والقوم المدعوين إلا بلسانهم الذى يتخاطبون به ، وبهذا احتج القرآن لعربيته التى أنزله الله تعالى بلسانها فقال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لو لا فصلت آياته . ءأعجمى وعربى)[٢] .

كما يحتمها العقل والمنطق ، ذلك أن الرسول سيواجه أول من يواجه بدعوته أقرب المقربين من أهله وأسرته وقومه وعشيرته أنساً بقربهم وقرابتهم ، وحرصاً على إيصال الخير اليهم قبل غيرهم ولهذا قال تعالى لخاتم النبيين فى مشرق الدعوة (وأنذر عشيرتك الأقربين) [٣] .

ولهذا قال نبى الله لوط عليه السلام حينما جاءه قومه يهرعون اليه لإيذائه فى ضيفه (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) فكأنه عليه السلام تمنى أن لو استطاع الدفاع عن ضيفه بقوة المقاومة المادية الشخصية ، أو بمن

---

(١) ابراهيم آية (٤) (٢) فصلت آية (٤٤) (٣) الشعراء آية (٢١٤)

يأوى اليه عصبية لحمايته والدفاع عن كرامته بالذود عن ضيفه وهو عليه السلام قد كان فى واقع أمره يأوى إلى ركن شديد من كنف الله وحفظه ومن ثم قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد) .

ولا شك أن استجابة الأقربين أرجى عند صاحب الدعوة ليكونوا عدته وأعوانه عند مواجهة من هم أبعد منهم ، والقرابة تطمع الداعى فى وقوف أقربائه الى جانبه حمية لعصبيتهم وأنفاً أن تغمز قناتهم فى ضيم شخص منهم ، لأن القرابة فى مألوف الحياة هى حصن الأفراد الذى اليه يلجأون عند اشتداد الخطوب ، وركنهم الذى اليه يأوون اذا أدلهمت الكروب .

فلو خاطبهم الداعى بغير لحنهم ، وكلمهم بلسان سوى لسانهم لم يفهموا عنه ما يقول وربما كان ذلك سبباً يباعد بينه وبينهم ، ويغض من حميتهم لدعوته .

والحمية للقرابة عند جميع الأجناس والأمم طبيعة جبلوا عليها ، وهى عند العرب خاصة تحتل أرفع مكان فى حياتهم وأخلاقهم ، يصورها شاعرهم بقوله :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

والتاريخ ملىء بالشواهد على ذلك ، وأظهر آثار الحمية العصبية موقفُ أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبى طالب ، والعباس ، وحمزة من حمايته وحماية دعوته فى أول بعثته ولم يكن واحد منهم قد آمن برسالته يومئذ فقد حدب عليه أبو طالب حدباً شديداً ، ووقف فى وجه قريش حمية له ، وعرض نفسه لأقسى أنواع الأذى والإضرار ، وظاهره العباس بحضوره معه ليلة العقبة ليشد ظهره ، والعباس يومئذ على دين قومه ، وقال للنفر

من الأوس والخزرج الذين حضروا البيعة تلك الليلة،وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، وكانوا يعرفون العباس لمروره عليهم تاجرا : إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

ونصره عمه حمزة حين علم أن أبا جهل أساء إليه نصراً استخذى له أبو جهل على ملأ من قريش فى ندّيها حول البيت المحرم ، وحمزة يومئذ فتى من فتيان قريش على دين قومـــه وكان فى متصيد له ، فلما بلغه أذية أبى جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على جمع قريش متوشحاً قوسه فضرب به رأس أبى جهل فشجه شجة منكرة فقال أبو جهل : ألم تسمع يا أبا عمارة إلى تسفيهه أحلامنا وشتمه آلهتنا ؟ فقال حمزة وهل أحد أسفه منكم ؟ تعبدون أحجاراً لا تسمع ، أشهد ألا إله إلا الله واشهد أن محمداً رسول الله ، فردّ علىّ ذلك أن استطعت ، فخسىء أبو جهل ولم يرد بشيء .

ولم يقتصر أمر هـذه الحمية العصبية على عمومة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأدنين من أبناء جده عبد المطلب ، ولكن تعـداه إلى سائر بنى هاشم وبنى المطلب ، فإنه لما اشتد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش مشى رجال من أشرافهم إلى بنى هاشم وبنى المطلب يعرضون عليهم — سفها — تسليم النبى صلى الله عليه وسلم إلى قريش على أن يأخذوا ديته مضاعفة فأبوا أن يجيبوهم وكادت تنشب بينهم حرب،فتعاقدت قريش على مقاطعـة بنى هاشم وبنى المطلب وكتبوا ذلك فى صحيفة ، وانحاز

أبو طالب ومعه سائر بنى هاشم وبنى المطلب مؤمنهم ديناً ، وكافرهم حمية ، إلا ماكان من أبى لهب فإنه انفرد عن آله ومالأ قريشاً عليهم ، وقد احتمل بنو هاشم فى هذا الحصار من الشدة والبلاء ما يدل على قوة عصبيتهم حمية لقرابتهم .

* * *

والقرآن الكريم قد أبان عن نفسه فى حجيته لنفسه وفى حجيته للنبوة الخاتمة فقال رداً على الذين تعنتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلب الآيات المادية من مثل معجزات الأنبياء السابقين كناقة صالح ، وعصا موسى ، وطير عيسى ليفهمهم أنه ليس من شرط صحة النبوة فى ذاتها إنزال المعجزات على من أدعاها ، ولا من شرطها إذا أنزلها الله رحمة بعباده أن تتساوى فى نوعها ، وإنما المعجزات شرط فى إلزام التصديق بالنبوة ، والله تعالى إذا شاء أنزلها ، وإذا أنزلها جاءت على مقتضى سنة الله فى الرسالات إلى الأمم فكل آية تنزل على حسب استعداد الأمة المرسل إليها وحالها ، وقد كانت الأمم السابقة تحمل عقولا مادية لا تؤمن إلا بخرق قوانين المادة فجاءت معجزات رسلها مناسبة لحالها واستعدادها .

أما محمد النبي الأمى خاتم الأنبياء فحسبه أن الله أنزل عليه كتاباً هاديا ، هو آية نبوته ومعجزة رسالته ، لأن الله بعثه وقد بلغ العقل الإنسانى رشده وتحرر من أغلال التقليد وأسر الغرائز المادية وأتيح له الانطلاق فى آفاق الكون يفكر ويستنبط ، ويعلم ويستخرج ويستكشف .

فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم على ما كان من أميته التى لا ريب فيها معجزة علمية وآية صدق نبوته آية فكرية ، فهى أدل على صدقه ، قال تعالى : (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من

يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الـكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الـكتاب يتلى عليهم أن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بينى وبينـكم شهيداً يعلم ما فى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون)[1] وفى هـذا المعنى جاء الحديث الصحيح الذى يرويه البخارى وغيره ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « ما من الأنبياء نبى إلا أوتى ما على مثله آمن البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

على هـذا النمط جاء تحدى القرآن فى سوره وآياته ليثبت بإعجازه حجيته لنفسه وحجيته على صدق من أنزل عليه مرسلا به وداعياً إلى هديه .

وهو تحد عام لم تعين فى آية من آياته الجهة التى من قبلها كان التحدى ، فيجب أن يبقى على عمومه ، ويبين فيه الإعجاز بياناً عاماً لـكل فرد وطائفة وأمة وشعب فالتحدى بالبراعة فى الأسلوب والفوق البيانى وبلوغ الذروة البلاغية حتى لا يلحق به فى درجته وعلو طبقته أسلوب ، ولا يساميه فى مرتبته كلام ولا ينافسه فى براعته وفصاحته بيان .

هذا التحدى لون من ألوان الإعجاز التى اشتمل عليها القرآن وهذا اللون يختص به العرب ، لأنهم أهل العربية التى نزل بها القرآن ، ويدخل معهم تبعا لهم مَنْ تعرب من أذكياء الأمم الأخرى ، فعرف من أساليب

---

(١) سورة العنـكبوت آيات (٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) .

العرب - وطرائقها فى كلامها وأداء أغراضها ماعرفه مصاقع خطبائها والمقاويل من حكمائها وشعرائها حتى بلغ الغاية البشرية فى التعبير عن أغراض الكلام .

أما التحدى بما وراء ذلك من صنوف الهداية التى تضمنها القرآن ونزل بها داعيا إليها فهو أمر يعم الناس جميعا ، فيجب أن يبين فيه الإعجاز بيانا يثبت حجيته على كل من بلغه مدعوا إليه .

وجميع آيات التحدى فى القرآن شاملة للتحدى بالبراعة البيانية والفوق البلاغى وللتحدى بسائر ضروب الهداية من المعانى والمقاصد التى قصد إليها القرآن فى إصلاح البشرية .

وقد تدرج القرآن فى تحديه ليقطع ريب كل مرتاب ، ونحن نذكر نماذج من شواهد كل مرتبة ، فالمرتبة الأولى تحديه بنفسه جملة . وذلك فى نحو قول الله تعالى (أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين . أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون)[١].

فالله تعالى بعد أن ذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم ونزهه عما يرمونه به مما لا يناسب حاله التى يعرفونها منذ كان بينهم وليدا وشابا ورجلا وكهلا، ورسولا داعيا إلى الله ودعاهم أن يقلبوا عين بصائرهم ويرددوا فكرهم فى حاله حتى يصلوا بالبرهان إلى معرفة حقيقة أمره ، وحقيقة مادعاهم إليه من الهدى ودين الحق ، ومعالى الأمور ومكارم الأخلاق مع ماهو عليه ومتصف به من محاسن الشيم وسمو الفضائل مما لا يمكن أن يقع مثله من إنسان غير كامل العقل ، وبعد أن عاد الله بهم إلى ذكر دلائل قدرته

---

(١) سورة الأعراف آية (١٨٥) .

وتوحيده بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، والنظر فيما خلق الله من شيء من الأشياء فى غير السموات والأرض ، بينهما أو فوقهما أو تحتهما مما يليق بجلال ملك الله وعظمته ، ثم حثهم على المبادرة بهذا النظر خوف مفاجأة أجلهم فيفوتهم مالا يمكن تداركه - بين أنه ليس هناك حديث له من خصائص البراعة البيانية وشمول الهداية الإلهية التى يصلح على مثلها أمر البشر فى معاشهم ومعادهم بعد القرآن الكريم الذى جاءكم به هذا النبى الأمين فإذا لم تؤمنوا بهذا الحديث فلن يكون هناك حديث مثله تؤمنون به ، فقول الله تعالى (فبأى حديث بعده يؤمنون) إنكار يتضمن التحدى بطلب الإتيان بحديث مثله فى خصائصه البيانية وهداياته الإلهية ومن هنا كانت الضرورة قاضية بتبيان تلك الخصائص التى هى مناط التحدى بالقرآن الكريم فى سوره وآياته .

وقول الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)[١] وفى هذه الآية يقول الإمام الرازى فى تفسيره (كون القرآن أحسن الحديث أما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه ، وكونه أحسن الحديث بحسب لفظه لأجل ما فيه من الفصاحة والجزالة ، وسمو النظم فى الأسلوب .

وكونه أحسن الحديث لأجل معناه فلأنه كتاب منزه عن التناقض كما قال تعالى فى وصفه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ومثل هذا الكتاب إذا خلا من التناقض كان ذلك من المعجزات ، ولأنه مشتمل على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل ، ولأنه مشتمل

---

(١) سورة الزمر آية (٢٣)

على علوم كثيرة جدا ، ثم أخذ الإمام الرازى يفصل تلك العلوم واشتمال القرآن عليها فى أسهاب عجيب بأسلوبه الفلسفى الذى يستغلق فهمه والإحاطة به على الكثير من الناس .

ومقصودنا من إيراد كلامه بيان أن أئمة المفسرين فهموا أن الآية من مواطن التحدى بالإعجاز فى اللفظ والأسلوب والمعنى والهداية ، وبيان منهج المفسرين فى بيان إعجاز القرآن بما هو ملائم لعصورهم وبيئاتهم وعلومهم ومعارفهم ، وبيان أن القرآن لا يزال فى حاجة ماسة إلى أسلوب سهل رغيب يبين هدايته فى الإعجاز البيانى وغيره من ضروب الهداية والآداب والتشريعات والعلوم والمعارف ويجرى مجرى هذه الآية قوله عز شأنه (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)(١).

والتحدى فى هذه الآية واضح فقد طلب من المخاطبين أن يأتوا بحديث مثل القرآن إن كانوا صادقين فى زعمهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقول القرآن على الله ، وتكلف الإتيان به من نفسه ، ونسبه إلى الله ، ومحمد بين أظهرهم بشر مثلهم ، أمى من أنفسهم ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا جلس إلى معلم ، ولا ثافن العلماء ، ولا ثاقف الحكماء والفلاسفة فلا يعجزكم إن كنتم صادقين فى زعمكم أن تأتوا بحديث مثل القرآن الذى جاءكم به ودعاكم إليه ولكنكم لا تؤمنون بما تزعمون ، وإنما تباهتون أنفسكم وتخدعون عقولكم.

والتحدى فى الآية عام يشمل التحدى بالبراعة البيانية والفوق فى الأسلوب البلاغى ويشمل التحدى بما تضمنه القرآن من ضروب الهداية الإلهية فى شتى مقاصد الحياة .

ومثلها قوله جل جلاله (فبأى حديث بعده يؤمنون)(٢).

---

(١) سورة الطور آية (٣٤)　　(٢) المرسلات اية (٥٠)

هذه الآية تسق من معين آية الأعراف، فهى أختها فى اللفظ والأسلوب ومثيلتها فى المعنى الأولى ، وإن اختلفتا فى موقع كل منهما فى سورتها ومناسبتها لسياقها وسباقها ، وهذا الاختلاف فى موقع الآية له مدخل فى الإعجاز ، ويحتاج إلى بيان خصائص كل آية اتفقت ألفاظها وصياغتها مع آية أخرى ، ولكنها جاءت فى موضعها من سورتها مجيئا غير مجىء أختها فى سياقها ، لأن القرآن لا يمكن أن يقع فيه التكرار المحض الذى لا يفيد فيه الثانى غير ما أفاده الأول ، وهذا مايحتاج إلى دقة النظر فى استخراج المعانى من الكلام وفحواه .

ومن التحدى بجملة القرآن قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[1] هذه الآية من أقوى آيات التحدى العام بجملة القرآن وأصرحها فى الإعجاز، وهى فى حاجة إلى بيان وجه إدخال الجن فى التحدى مع الإنس أ كان ذلك لأن الجن مدعوون لرسالة القرآن ومكلفون بها فدخلوا فى التحدى لإقامة الحجة عليهم كما تقام على الإنس بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن؟ أم جاء ذكر الجن فيها على سبيل المبالغة فى التحدى، فيكون من قبيل ما ورد فى الآيات الأخرى من نحو قوله تعالى : (وادعو من استطعتم من دون الله) وقوله (وادعوا شهداءكم من دون الله) ويكون المراد من الجن عقلاء عالم الغيب ، ومن الإنس عقلاء عالم الشهادة ، وكذلك هى عامة فى مناط التحدى، فتحتاج إلى بيان الجهة التى قصدت اليها فى تحدى الإنس والجن، هل هى براعة البيان وفوق الأسلوب وعلو الطبقة البلاغية، واتساق النظم ودقة الأداء فحسب، أو هى ذلك كله مع ضروب الهداية، وثروة المعانى المبدعة وغزارة العلوم والمعارف؟ وما نصيب الجن من ذلك ؟ وكيف يخاطبون ، وبم يكون التفاهم معهم ؟ .

---

(١) سورة الاسراء آية (٨٨)

كل ذلك وغيره مما يجب أن يشتمل عليه تفسير القرآن حتى يكون بيان هدايته فى الإعجاز حجة له ولمن أرسل به ودعا للإيمان به .

* * *

والمرتبة الثانية من مراتب التحدى هى تحديه بعشر سور مثله ، وأطلق لهم العنان فى اختراع المعانى إمعاناً فى امتهانهم وإظهار عوار عجزهم : فلم يطالبهم بأن تكون السور العشر التى يجيئون بها على حده فى استواء المعانى ، بل عشر مفتريات لا يرجع فيهن إلى أصل سديد ، وحينئذ يبقى الكلام فى المقصود من المثلية هل هى مثلية علو الطبقة البلاغية فقط ، أو هى مع المعانى التى يحاولونها إن استطاعوا ؟ هذا ما يحتاج إلى بيان ليقع التحدى فى الآية موقعه من هداية الإعجاز .

يقول الله تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [1] وهنا لطيفة من لطائف تاريخ آيات القرآن التى وردت فى معنى واحد .

ذلك أن التحدى ورد على مراتب ، فالمرتبة الأولى هى التحدى بجملة القرآن ، ويجب أن تكون آيات هذه المرتبة أسبق نزولا من آيات سائر المراتب التى وقع بها التحدى ، والمرتبة الثانية هى آيات التحدى بمرتبة التحديد فى عدد السور المتحدى بها ، وهى هنا عشر سور .

ويجىء بعد ذلك مرتبة ثالثة وهى مرتبة التحدى بأقل من عشر سور وقد نزل بها القرآن إلى التحدى بسورة واحدة ، وذلك ورد فى سورة البقرة وسورة يونس ، ومعلوم أن سورة البقرة مدنية النزول ، وسورتى هود ويونس مكيتان ، فهما أسبق نزولا من سورة البقرة ، وسورة هود جاء

---

(١) سورة هود آية (١٣)

التحدى فيها بعشر آيات فتكون أسبق نزولا من سورة يونس التى جاء فيها التحدى بسورة من مثله .

وتاريخ آيات القرآن علم عظيم جداً فى بيان هداية القرآن ولكنه قليل الوجود ، وقليلة العناية به .

وقد أشار إلى هذه اللطيفة الإمام الرازى فقال : واعلم أن التحدى بعشر سور لا بد أن يكون سابقاً على التحدى بسورة واحدة ، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره ، اكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب ، فإذا ظهر عجزه عنه قال قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله .

ثم قال الإمام : إذ عرفت هذا فنقول التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة وفى سورة يونس ، والتحدى بعشر سور ورد فى سورة هود ، وتقدم سورة هود على البقرة ظاهر لأن سورة هود مكية وسورة البقرة مدنية والمكى متقدم على المدنى فى النزول ، وكذلك سورة يونس بالنسبة لسورة هود متأخرة النزول عنها لأن مرتبة التحدى التى جاء فى هود تقتضى تقدمها عليها اه ملخصا .

وقال تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[١] .

هاتان الآيتان سبقتا بآيات من هذه السورة تنتظم جميعاً فى سلك التحدى والإعجاز وأول ذلك قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات

---

(١) سورة يونس (٣٧ ، ٣٨) .

قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ؟) [١] .

ثم حكى عن المعاندين تعنتهم باقتراح نزول آية لعدم اقتناعهم بأن القران هو الآية العظمى فقال : (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) [٢] .

وانتظام هذه الآيات فى سلك التحدى يتطلب بيانها فى تحقيق هداية الإعجاز فى القرآن بياناً يجمع شملها ويبين حكمة ما جاء فى البين منها حتى انتهت إلى نهايتها فى التحدى بآيته التى أشارت إلى بعض وجوه الدلالة على صدق من أنزل عليه وأرسل به ، وذلك فى قوله : (وما كان هـذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب) ووجه الدلالة فى قوله : (تصديق الذى بين يديه) أى ما تقدمه من الكتب الإلهية ، وفى قوله (وتفصيل الكتاب) والنظر فى هذا التفصيل من أى الوجوه يكون ؟

وقال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) [٣] .

هاتان الآيتان أقوى ما جاء فى التحدى ، وأصرح ما ورد فى آيات الإعجاز ، لما فيهما من القطع بعجز المتحدين مع التقريع والتهديد بالوعيد

---

(١) سورة يونس (١٥ ، ١٦) (٢) سورة يونس آية (٢١)
(٣) سورة البقرة آية (٢٤ ، ٢٥) .

المرعب البالغ حداً لا يبقى معه شيء من ساكن العداوة إلا تحرك . ولا عامل من عوامل المعارضة ـ لو كانت ممكنة ـ إلا هاج وأرعد ، ولا بقية من نخوة الانتصار للنفس والمعتقد إلا ثارت وغبّرت .

وفى الآيتين وراء ذلك من فنون التحدى وهداية الإعجاز أمور كثيرة ، تحتاج إلى بيان يقيم حجة النبوة نيرة مشرقة . وقد أطال العلماء فيهما نفس القول . ولكنها جولات فى أودية الفصاحة وبراعة البيان إلى إشارات خفيفة تطير هنا وهناك بين فصول القول فى الإعجاز العلمى وغيره من فنون هداية الإعجاز فى القرآن .

الإعجاز بالهداية

وهناك مرتبة من مراتب التحدى وهداية الإعجاز جاءت نصاً فى مناط التحدى ، وبياناً للجهة التى منها أعجز القرآن ويعجز جميع الذين تحداهم ويتحداهم من أبناء البشر قاطبة فى كل زمان ومكان من كل جنس وأمة ، وعلى أية درجة من العلم والمعرفة .

هذه الجهة هى التى سما بها القرآن وتعالى إلى ذروة الفضل والإحسان ، وبها سبق فلا يلحق ، وانفرد محلقاً فى آفاقها فلا يدرك وهى الجهة التى تحقق رسالته وخلودها لأنها خالدة بخلوده ، عامة بعموم رسالته ولا سيما فى عالمنا المعاصر الذى فتن بالعلوم التجريبية والمعارف المادية . وفتن بجولات العقل فى ظواهر الطبيعة وبعض حقائق الكون فى هذا الكوكب الأرضى الصغير المحدود .

وقد أعمته ظواهر الحياة المادية عن النظر فى القيم الروحية وهداية السماء ، فضل الطريق حتى كاد يهوى إلى منحدر لا يعرف له نهاية . وفى القرآن

الحكيم دواؤه لو وجد المهرة من الأطباء ، تلك الجهة هي الهداية ، وهي أساس دعوة القرآن ، وأصل أصوله ، عنها تفرعت جميع آدابه وشرائعه ، وبها قامت أركان علومه ومعارفه ، وعلى دعائمها نهضت حكمته وأحكامه ، فيها نزل ، وإليها قصد ، وهي الحق الذي أنزله الله به (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)[1] وهداية القرآن دروس في التربية للأفراد ، والجماعات والأمم والشعوب ، ودروس التربية إنما تكون على حسب الاستعداد والتقبل فلا تكون جملة ولابد فيها من التفصيل والتدرج .

والهداية بلفظها وحروفها وصياغتها وروح معناها توفيق ورحمة ، ويقين وإيمان ، وطمأنينة وسكينة ، وعلم وعمل ، وتحصيل أقصى ما يمكن من البر والخير ، وتحقيق لحكمة الله وسنته في الإفادة من حقائق هذا الكون العظيم ، ووشيجة تعبد بين الخالق والمخلوق ، ووسيلة لبلوغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في تحقيق خلافته عن الله تعالى في الأرض .

والتحدي بهداية القرآن — لو أتيح بيانها في تفسيره على أوسع مدى معقول ، ولا يعدل بالقرآن عن غايته وهدفه — قائم ينادي هذه البشرية المغرورة بما وصلت إليه من ذروة العلم والمعرفة فيخرجها من الظلمات إلى النور ، ويفتح أمامها أبواباً من البحث في حقائق الكون وأسراره ، لم تهتد إلى فتحها وهي سائرة على غير هدى وبصيرة ، (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[2] (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي

(١) سورة الاسراء اية (١٠٥ ، ١٠٦) .
(٢) سورة إبراهيم اية ١ .

إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)[١] . (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور[٢] .

والتحدى بالهداية نقتصر منه على ذكر آيتين كنموذج يرمز إلى غيره . واختيارنا لهاتين الآيتين لأنهما أصرح فى إبراز التحدى بالهداية .

يقول الله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين)[٣] .

والذى نريد أن نلفت إليه النظر هنا هو أن الآية الأولى من هاتين الآيتين وردت على المعهود من موقف المعاندين للرسالة الإلهية من التعنت بعدم النظر فيما بين أيديهم من الآيات العقلية المعجزة الدالة على صدق من أرسل إليهم واقتراح آيات مادية سمعو أنها أنزلت على الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فهنا لما جاءهم محمد بالحق من عند الله قالوا متعنتين هلا أنزل عليه من الآيات مثل ما أنزل على موسى من قلب العصا حية وفلق البحر وتفجير الماء من الصخرة فرد الله عليهم ، بأنهم لم يكونوا صادقى العزيمة فى هذا الطلب ولم يطلبوه بإخلاص وجد ، وإنما هو محض تعنت وعناد ، لأنهم لم يؤمنوا بالذى أنزل على موسى وكفروا به ، ولما رأوه متوافقاً مع القرآن فى أصول الهداية أشاحوا بأعطافهم وانغضوا رءوسهم وقالوا : توراة موسى وكتاب محمد سحران تعاونا على الموافقة ، ثم سجلوا على أنفسهم الكفر بهما فقالوا : إنا بكل منهما كافرون .

(١) الشورى من آيتى ٥٢ ، ٥٣ (٢) سورة المائدة آيتى ١٥ ، ١٦
(٣) القصص آيتى ٤٨ ، ٤٩

وهنا تجيء الآية الثانية على سنة القرآن ومعهود أسلوبه البديع رداً لتعنتهم وكسراً لشوكة عنادهم صارخة فى وجوههم متحدية ، والتحدى هنا بالهداية ولكنهما هداية لا ينفرد بها القرآن الكريم بل يدخل فيها معه توراة موسى عليه السلام ، وهذا من أدل الدلائل على أن القرآن الكريم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ذلك لأن اليهود أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأمته ، وذكر التوراة بالهداية يرفع رءوسهم ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالقرآن من عند نفسه ويحكم الهوى والتشهى — حاشاه صلى الله عليه وسلم — لكان الموقف أدعى إلى عدم ذكر التوراة بهذه المدحة المنيفة مقرونة فى الذكر مع القرآن — لكن الأمر أمر رسالة إلهية ونبوة خاتمة ، وكتاب حكيم نزل بالحق والعدل والإيمان بسائر الرسل وتعظيمهم وعدم التفرقة بين أحد منهم ، وسياق الآيتين اقتضى ذكر موسى عليه السلام وتوراته المنزلة عليه من عند الله بالهدى والنور لأن السورة فى قصته مع فرعون وهامان وقارون وإيتائه التوراة وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم بذلك والامتنان عليه بأنه لم يكن من شاهدى هذه القصة ، ولكن أخباره بها رحمة من الله لتكون دليل صدقه إذا أنذر قومه وأخبرهم بها فكان من المحتم ذكر التوراة فى قرن الهداية مع القرآن فلذلك جاء التحدى بهداية الكتابين السماويين ودخلت التوراة مع القرآن .

وهداية التوراة خاصة بأمته وزمنه ، فيجب ألا تتساوى مع هداية القرآن زمناً ومكاناً وأمة ، ويجب أن يكون لهداية القرآن ميزة ترفعها إلى مرتبة تنفرد بها ولا تشاركها فى ذروته هداية من الهدايات لتتناسب مع خلود كتابها وصلاحيته لتحقيق مطالب الحياة فى سائر أطوارها الفكرية

والاجتماعية فإذا أدخلت التوراة مع القرآن فى التحدى بالهداية فى سياق قصة موسى عليه السلام ، فليس ذلك إلا تحقيقاً لهداية سائر الكتب الإلهية التى يؤمن بها المؤمنون بالقرآن متى وصلت إليهم صحيحة لم يثبت عندهم نسخها فى القرآن أو فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم .

والقرآن الكريم نفسه ينص على امتيازه فى نوع الهداية بعد أن جرى على سنة النصفة والمعدلة بتقرير هداية غيره من الكتب الإلهية .

يقول الله تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه)[1] فوصف القرآن بالهيمنة على الكتب التى كانت قبله مع تصديقه لها هو درجة امتيازه على سائرها ضرورة بقائه ببقاء رسالته ، وانتهاء التكليف بتلك الكتب بانتهاء رسالاتها ، وبقاء القرآن ببقاء رسالته يقتضى أن تكون هدايته أكمل فى تحقيق مصالح العباد .

ويقول الله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً)[2] .

وأقوم أفعل تفضيل يقتضى اشتراك غير القران معه فى أصل الهداية ويقتضى أن طريقة القران فى الهداية أسد وأرجح ، وهذا يدل بالفحوى على أن التحدى بطريقة القران فى الهداية ، لإخباره أنها أفضل الطرق وأعدلها فمن لم يؤمن بهذا الإخبار فليعارضه وليأت بطريقة مثلها فى بيان الهداية وأسلوب أداء المعنى .

ومن تمرس بالنظر فى طريقة هداية القران وأسلوبه فى عرض الحقائق وتمرس بالنظر فى طريقة هداية الكتب الإلهية الإخرى يدرك بالبرهان أرجحية طريقة القران على غيرها من طرائق الهداية .

---

(١) سورة المائدة آية ٤٧ .   (٢) الاسراء آية ٩ .

وحسبنا أن ننظر فى طريقة الهداية إلى العقيدة ، وهى أصل الأصول التى يشترك فى عرضها على وجه البلاغ والغاية القصوى جميع الكتب الإلهية الهادية إلى توحيد الله وباهر قدرته وعظيم حكمته ، فلا نجد أبداً مثل القرآن فى عرض العقيدة بأسلوب سهل واضح ، يمس الوجدان ويثير العواطف ويحرك القلوب ، ويوقظ العقل ويوجهه الى التفكير فى جلال ملك الله وعظيم ملكوته ومحكم تدبيره وبديع صنعه . بمنطق الفطرة بعيداً عن تعقيدات التفلسف واصطلاحات العلوم .

وهكذا يجرى على هذا السنن فى عرضه لقضية النبوة وحاجة البشر اليها ، وقضية البعث وضرورة وقوعها ، ووصفه اليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء ، وعرضه لاصول العبادات وقواعد المعاملات وسياسة البشر ، وتحقيق العدالة بينهم بميزانها الذى لا يستثنى ، وترغيبه فى مكارم الأخلاق وسائر الأغراض التى تقصد اليها الرسالات الإلهية .

إعجـــاز القرآن

بفنون الهداية أبقى وأشمل

تلك عشرة أصول من أصول الهداية القرآنية قبسناها من النظر فى آياته، وفيه كثير غيرها مكنوز فى سوره، ولم نقصد إلى الاستقصاء والإستيعاب، لأن ذلك لا يقع فى مقدور فرد من الأفراد، وإنما أردنا التنبيه إلى ذكر نماذج من أصول الهداية فى القرآن العظيم لنعرف حظها من الرعاية والعناية فى مناهج التفسير والمفسرين الذين وصلت كتبهم، معظمها إلى دارس القرآن العظيم، وطالب هدايته، ولتكون موضعاً للاهتمام من القوامين على دراسة القرآن وبيان هدايته فى هذا العصر الفوار بنظريات العلوم التجريبية، والمزدحم بالمذاهب الاجتماعية والآراء الفلسفية، التى صرفت الناس ـ فى الشرق على جهل وتقليد، وفى الغرب بالحاد وجحود ـ عن النظر فى الهداية الإلهية، ومعرفة حقائقها والتمسك بها والدعوة إليها.

ونحن نرى أن هذا العصر وما ظهر فيه من ذرور المعارف والعلوم هو إرهاص لما سيأتى بعده من انقلابات فكرية ونظريات علمية قد تحيل بعض ما وسم بالحقائق إلى أباطيل وخرافات وأساطير، وقد تأتى بأشياء من حقائق العلم الكونى تغير أوضاع العالم وتبدل أفكار العلماء، وتحير عقول العقلاء.

وهداية القرآن عامة باقية، تتجدد فى أسلوبها بتجدد حياة المجتمع الإنسانى، ضرورة أن هذا القرآن العظيم هو كتاب الله الذى أحاط بكل شىء علماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أودع الله فيه من الهداية والمعارف والحقائق الكونية ما يكفل صلاح

البشرية ، ويحقق لها سعادتها ما دامت قائمة بخلافة الله فى الأرض ، تقيم موازين الحق والعدل ، وتستكشف أسرار الطبيعة بوسائلها العلمية المتجددة .

وكل جيل من البشر يقبس من هذه الهداية الإلهية ما يناسبه فى عصره ومجتمعه وبيئته الخاصة والعامة ، ودرجته من العلوم والمعارف ، وانطلاق تفكيره فى دائرة أصول القرآن الثابتة التى لا تقبل التغيير والتبديل ، ولا تخضع إلى تعسف التأويل الذى قد ينقلب إلى تحوير وتحريف .

فلا يمكن أن يقبل القرآن من جيل من الأجيال فى أى عصر من العصور المقبلة أن يفسر هدايته بما يخالف أصوله الثابتة فى العقيدة والتعبد أو فيما تولاه الله بنفسه ونص عليه نصاً صريحاً لا يقبل التأويل والتحوير كتقسيم المواريث وتحديد أنصبتها ، وتحريم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وما وصى الله به عباده من إقامة العدل والوفاء بالعهد وسائر أصول الفضائل

ولما كانت الهداية فى عمومها هى الغاية القصوى من الرسالات الإلهية وهى فى القرآن عامة شاملة لجميع العقلاء المكلفين من الأفراد والجماعات والأمم والأجناس فى كافة الأزمان والأماكن لعموم رسالة القرآن وبقاء دعوته ببقاء النوع الإنسانى على هذه الأرض ـ كان بيانها بياناً يلائم كل بيئة فى كل بلد وأمة هو الوسيلة الناجحة لتبليغ رسالة الإسلام تبليغاً عاماً بأسلوب يجذب القلوب إلى تقبلها واعتناقها ، ويدعو العقول إلى النظر فى حقائقها ، ويقرب إلى نفس العامة والخاصة فهم أصول الإسلام نقية خالصة ، بعيدة عما ألصق بها من الشوائب والخرافات والأساطير .

وهذا البيان للهداية القرآنية هو الوسيلة الصحيحة لإصلاح حال العالم الإسلامى وجمع شمله وتصحيح وضعه فى الحياة بين الأمم الناهضة فى العلوم

والمعارف والتقدم فى الافادة من الكشف عن الحقائق الكونية ، وأخذ حظه من التمتع بطيبات ما أنزل الله من رزق ونعم لتكون داعية إلى الشكر والمزيد .

وهذا البيان للهداية القرآنية هو الدواء الناجع للأمراض الإنسانية المعذبة ، تلك الأمراض الاجتماعية والسياسية والخلقية والإلحادية التى ألقت بها بين أحضان الرعب والقلق ـ والإضطراب والشك وكراهية التدين ، كما ألقت بها بين أحضان الحرب التى تأكل شبابها والقادرين على العمل فيها لغير هدف سوى سلطان الاثرة المادية وسيطرة الانانية والغرور على عقلية قادة الشعوب وزعمائها ـ نعم أن هذا البيان للهداية القرآنية هو الدواء الناجع لشفائها من هذه السراطانات وهو الذى يخرجها من ظلمات هذا الجو الخانق الذى تعيشه هذه الإنسانية باكية دامية إلى آفاق فسيحة من الرضا والاستقرار والاطمئنان فى ظل معرفة الله الرحمن الرحيم ، وفى ظل معرفة سنن الله فى خلقه ليقام على دعائمها موازين العدل والاخاء والمحبة والتعاون على البر والتقوى .

وكما يقتضى عموم دعوة القرآن ، وخلود رسالته أن بيان هدايته هو الغاية القصوى لتحقيق رسالته وهو الطريق الصالح لتبليغ رسالة الإسلام على ما يستطاع من بلاغ ، يقتضى عموم الدعوة وخلود الرسالة أن التحدى بالهداية ـ كما جاء بها القرآن ـ يجب أن يكون هو الطريق الأعم لبيان إعجاز القرآن كما تحدى بها خالصة منفردة من دون التحدى بروعة النظم وبراعة الأسلوب صراحة فى بعض ما سقناه من آياته ، ومشاركة للتحدى بعلو طبقة النظم القرآنى ، وفوق أسلوبه فى جميع آيات التحدى والاعجاز

فالتحدى بالهداية الشاملة لمعانى وأفكار القرآن ، وعلومه ومعارفه وطرائقه فى توجيه العقل إلى النظر فى حقائق الكون ، وذكره لبعض

خصائص الآيات الكونية ، ورسمه لسياسة الاقتصاد ونظام الحياة ، ووضعه لقواعد علاقات الأفراد والجماعات والأمم فى السلم والحرب ، واعتماده فى تلك العلاقات على القيم الخلقية ، يجب أن يكون قائماً فى كل بيان لمعانى القرآن وتفسيره ما كان القرآن داعياً إلى رسالة عامة خالدة تحتاج إلى برهان يناسب عقلية كل جيل فى كل عصر ومجتمع وبيئة .

* * *

أما التحدى بعلو طبقة الكلام فى البلاغة ، وبلوغه الذروة من براعة البيان ، وفوقه فى الأسلوب مع أصالته فى التحدى ، وبقائه طريقاً لإقامة الحجة باعجاز القرآن على من عسى أن يكون بلغ فى مراتب الذوق العربى وملكة التعبير بالفصحى مرتبة عليا ، يدرك بها لطائف الأسلوب ، ويقف على مواطن الاحسان والاجادة فى تأليف الجملة ، فانه يشبه أن يكون خاصاً بجيل العرب الذين عاصروا نزول القرآن وشوفهوا به ، لأنهم كانوا أقدر على نظم الكلام فى صورته البشرية العليا ، كما كانوا أقدر على إدراك ، مواطن الإعجاز فى سلوب الكلام المعجز ، روى أن أعرابيا سمع قول الله تعالى (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً) [1] فسجد ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنما سجدت لبلاغته وأشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا .

وسمع بعض بلغائهم قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) [2] فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه ، وما يقول هذا بشر .

وعالمنا اليوم شرقه وغربه ليس فيه قوام أصيل بالذوق العربى وإدراك أسرار التعبير الذى ينبع منه الإعجاز البيانى فى القرآن ، ولو وجد هذا

---

(١) يوسف آية ٨٠ (٢) النحل اية ٩٠

العبقرى فى عصرنا فإنه لا يخرج عن كونه حاكياً ومقلداً لأصلاء العرب وفحول الخطباء والمترسلين فى الجاهلية وصدر الإسلام ، والتقليد مهما بلغ به صاحبه فإنه عقيم ليس فيه افتنان ابتكار ، ولا تنوع ابتداع فهو محدود المدى والغاية ومثل هـذا لا يرتفع إلى درجة التحدى بإعجاز القرآن المبين (تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)(١) .

بيد أن هـذا الإعجاز البيانى — مع عناية حذاق العلماء ، ومهرة المترسلين ومداره البلاغة العربية به عناية فائقة كما تراها ماثلة فيما ألف من كتب ورسائل خاصة ببيان الإعجاز — فى كتب التفسير لم يخرج عن لفتات عابرة ونظرات طائرة لا تشبع المتعطشين إلى بلاغة القرآن ليعرفوا منها سر إعجازه البيانى .

ومن هنا كان من اللازم أن يظهر هذا الجانب الإعجازى فى تفسير القرآن ظهوراً بينا بأسلوب تفهمه الأجيال الذين باعدت الحياة بينهم وبين ذوق جمال الجملة العربية بالسليقة والطبع ، كما باعدت بينهم وبين معرفة طرائق تأليف الكلام العربى على مقتضى استدعاء المعانى لكل لفظ فى مكانه من جملته ، إلا عن طريق التقليد للكلام الموروث ، أو المحاكاة لصدى القواعد المدونة فى فنون اللغة العربية .

ومن السذاجة أن ننتظر من فن البلاغة — الموؤد — والمدون أشلاء من قواعد ومصطلحات مستعجمة فى الكتب الدراسية القديمة ، أو المنزوع منها نزعا فى ورق أبيض مصقول — أن ينهض بعبء بيان الإعجاز بياناً يقنع الذين يريدون أن يعرفوا علميا الإعجاز الفنى فى القرآن معرفة يقوم على أساسها الإيمان بأن هـذا الكتاب الكريم أنزله الله تعالى من عنده آيات بينات

(١) أول سورة الرعد

وهدى للعالمين ، ليس فى طوق مخلوق أن يأتى بمثله ولو ظاهره عالم الغيب وعالم الشهادة (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١] .

فعلى العلماء المتعمقين فى دراسة النصوص الأدبية ، وعلى حذاق الأدباء الجادين فى فهم التراث الأدبى وعلى صيارفه النقد الأدبى من الذين يؤمنون برسالة القرآن الكريم وهدايته أن يفكروا جدياً فى لون من الدراسة يمكن به معرفة إعجاز القرآن إعجازاً بيانياً من الوجهة الفنية المقنعة للعقول والأذواق .

طريق إدراك إعجاز القرآن

وقد صحبت القرآن تلاوة ونظراً فرأيت أن أقرب الطرق لإدراك الإعجاز البيانى فيه هو إدمان النظر فى سوره وآياته ، والوقوف مع تعبيراته والتأمل فى نظمه ، وإقامة دراسة مستوعبة لآياته على ضوء هذا النظر لوضع مبادىء من القواعد المرنة والأصول الأدبية الفسيحة تكشف عن بعض وجوه الإعجاز البيانى بطريق فنى محرر .

والقرآن كتاب لا يزال للباحثين فيه مجالات علمية ، وأدبية ، ودينية ، وخلقية ، وسياسية ، واجتماعية ، تتسع مناحيها حتى يخيل للناظر أنها لا تلتقى لشدة ما يترآى بينها من تباعد واختلاف ، ولكنها تتجمع فى ظله متماسكة كأنها فن واحد من المعارف الإنسانية .

فهذا الفقه الإسلامى على سعته وتعدد مدارسه واختلاف مذاهبه فى صور الاجتهاد الإسلامى ليس فيه حكم متفق عليه أو مختلف فيه ألا وهو ينزع إلى القرآن بعرق يستند به إلى آياته ..

---

(١) سورة الاسراء اية ٨٨

وهذه الفرق الإسلامية التى لا يكاد يحصرها العدد ، وما لها من نحل ومذاهب وآراء فى العقائد ونظام وسياسة الدولة ، كلها يلجأ إلى القرآن يستنطقه بحجته ، ويستعينه للظفر على خصمه بآياته .

الإعجاز بروعة البيان

والقرآن راسخ فى عزته أمام هذا النزاع العلمى يجرى من حوله بين متباين الآراء والمذاهب رسوخ العلم الأشم تزوى فى سفحه هوج الأعاصير وتتكسر على صخره أفكار المقاويل .

ولعل هذه القوة الكامنة فى أسلوب هذا الكتاب هى السر فى إعجازه البيانى ، ذلك السر الفنى الذى يملأ الإحساس به نواحى الشعور الإنسانى دون أن يستطيع أبرع الناس بياناً وأبلغهم عبارة ، وأفصحهم مقالا التعبير عنها بعبارة محدودة مضبوطة بقواعد العلم ، ومن هنا قال الشيخ السكاكى فى كتابه مفتاح العلوم : (إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن التعبير عن وصفه) .

اقرأ ماشئت من آى القرآن فلن تجده إلا مشيداً لصرح الخير والإصلاح ، أو هادماً لدعائم الشر والفساد ، وهو فى كليهما عبقرى البلاغة والبيان .

انظر إليه وهو يدعو إلى تحرر العقل من ربقة الاستعباد الفكرى ، ويهدم التقليد ويدعو إلى الاجتهاد والنظر فى ملكوت الله وآياته فى الآفاق فيقول ناعياً على قوم اهدروا نعمة الله عليهم بالعقل وهو مناط كل فضيلة فى الإنسان (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[١] ويقول عز شأنه

---

(١) سورة البقرة اية ١٧

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير)(١) .

فهل ترى أسلوباً أبلغ فى إيلام النفس الإنسانية وإيقاظ العقل من سباته من هذا الأسلوب اللاذع المرير فى النعى على أولئك الأغبياء الذين استهانوا بعقولهم ، وركنوا إلى التقليد البليد .

ثم انظر إلى ماختمت به الآيتان من التقريع الساخر الذى ينادى عليهم بالبلادة والجهالة والضلال المبين ، فالتقليد شر كله ، ولكنه كان يمكن أن يكون شراً محتملا لو كان التقليد لقوم يعقلون شيئاً أى شيء ، لو عقلوا لاهتدوا إلى الحق ، فخاتمة الآية الثانية تفسر خاتمة الآية الأولى ، وتبين أن عدم العقل وسيلة من إضلال الشيطان يدعوهم بها إلى عذاب السعير لأنهم أهدروا إنسانيتهم واستهانوا بعقولهم واتخذوا من دون الله آلهة من الحجارة يعبدون (الذين تدعون من الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)(٢) .

فالعقلاء كلهم يعلمون أن أخص خصائص الألوهية الحقة الخلق والإبداع ، وهذا الذباب يرونه أخس طائر وأحقره وأضعفه ، فهل يستطيع معبودوكم الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله أن يخلقوا هذا الطائر الضعيف ؟ لا ، لن يستطيعوا أن يخلقوا هذا المخلوق الضعيف ولو اجتمعوا له وظاهر بعضهم بعضاً ، لا ، بل أن هذا الذباب الضعيف أقوى من معبوديكم الذين لا يستطيعون رد ما يسلبهم عنوة وقهراً ، فهل رأيت أوجع فى التهكم وآلم للنفس من هذا التقريع ؟ .

ثم استمع إلى ضرب آخر من هذا الأسلوب اللاذع المتهكم (ان الذين

---

(١) سورة لقمان اية ٢١ (٢) سورة الحج اية ٧٣

تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين .
ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها
أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون)(١) .

فهل هناك تسفيه لأحـــلام هؤلاء المخاطبين أشد إيلاماً لعقولهم .
إن كانوا يعقلون من هذا التحقير الذى سيق مساق التحدى (قل ادعوا
شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) بعد أن قدم بين يديه قضية من قضايا
البداهة التى لا يختلف فيها إنسان وإنسان تلك القضية التى سيقت للتنبيه
على أنهم لو استعملوا عقولهم أدنى استعمال لما وقعوا فى هذا الخطأ العقلى
المهين لإنسانيتهم ، حيث تعبدوا أنفسهم لما لا يستحق الحياة بله العبادة
والتقديس هم يعلمون أن أصنامهم ليست لها أرجل تمشى عليها ، ولا أيد
تبطش بها ولا أعين تبصر بها ولا آذان تسمع بها ، ولـكن فى نفى هذا
المعلوم بداهة بطريق الاستفهام الانكارى استهزاء بهم وازدراء بعقولهم
بأبسط تعبير وأوضح أسلوب .

والدارس للقرآن الحـكيم يرى أنه انفرد بطريقة بديعة فى أداء المعانى
لا تجارى ، وأسلوب فذ محكم لا يبارى ، فأنت تقرأ فيه قصص الأنبياء
وسيرهم مع أممهم ، والقصة الواحدة تتكرر مرات كثيرة بعبارات وأساليب
لولا ما فيها من الأسماء والأشخاص والأماكن لظن السامع أنها فى كل
موضع قصة مستقلة بذاتها ، لاستقلال أسلوبها وألفاظها ، وورودها
بين البسط تارة ، والاجمال تارة أخرى مع المحافظة على سر القصة وحكمتها
والمحافظة على جمال الأسلوب القصصى الذى يقرر حقائق الأحداث
الواقعة فى حياة الناس ، بعيداً عن الخيال الفضفاض مع مراعاة المناسبة
التامة بين مقام الكلام ونهجه ، واضطراد ذلك إلى النهاية مما انفرد به القرآن

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٥ .

وإذا وجد من ريحه شيء فى كلام فحول الخطباء والمترسلين من البلغاء فلا يمكن استمراره طويلا ، وإن الناقد ليدرك الفرق الحريض بين الفقرات فى القوة والضعف ظاهراً فى كلامهم ، ولكن القرآن العظيم إذا تحدث فى مقام جرى فى أسلوبه على سنن من القوة لا يختلف أوله عن آخره ، ولا وسطه عن طرفيه ، والاختلاف الذى قد يبدو للناظر هو اختلافٌ فى مقامات الكلام .

ومن بدائع أسلوب القرآن أنه لا يطيل الحديث فى مقام واحد دون أن يجعل فى البين حكمة بالغة أو موعظة حسنة ، لأن الإطالة على سنن واحد مدعاة — فى الغالب — إلى الألفة والفتور ، والألفة ماحية لأثر الكلام فى النفس ، والفتور خدر للعقل يعيقه عن متابعة المعانى واستيفاء الإحاطة بها .

تأمل هذه الآيات التى وردت فى وصف ما يحيق بالظالمين من الفزع المرهب وأليم العذاب يوم القيامة : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار)[١] .

---

(١) سورة إبراهيم آيات ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠ .

فتأمل كيف جاء بدء الآيات جامعاً بين الوعد الضمنى والوعيد الصريح، ووصف حال الظالمين بأوصاف لو وضع مكانها غيرها من ألفاظ التفظيع ما جاءت هذا المجىء ثم أخذت تذكر ندمهم على ما فرط منهم ولات حين مندم ، كما تصف تمنيهم تحسرا لو أخرت آجالهم فيجيبوا داعى الله ويتبعوا الرسل، فأكذبهم الله لأنهم كانوا يقسمون أنهم لا يزولون عن الحياة الدنيا مع أنهم عاينوا ما حل بالظالمين من انتقام الله وبطشه، بل سكنوا مساكنهم وعرفوا بما عاينوا من آثارهم ما نزل بهم من عذاب الله، ولكنهم لم يعتبروا بهم.

ثم عاد إلى ذكر أوصاف هول يوم الحساب بعد أن وصف مكرهم وشدة كيدهم لرسل الله وإن هذه سبيل الظالمين مع المصلحين .

ثم انظر إلى تصوير هذا المقام نفسه فى موضع آخر : (يا أيها الناس اتقوا ربكم أن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)[1] .

المقام واحد فى الجملة من غير شك ، ولكن الأسلوب والألفاظ هنا غير الأسلوب والألفاظ هناك ، لا يستطيع أحد أن يزعم أنها متفقة أو متحدة مكررة ، واختلاف الأسلوب والألفاظ يحدث فى النفس أثراً مختلفاً فى نوعه والشعور به ومداه .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ)[2] .

---

(١) سورة الحج آية (٢٠١) .
(٢) سورة إبراهيم آيات (١٥ ، ١٦ ، ١٧) .

هذا تصوير مفظع تنخلع لهوله قلوب السامعين ، فتصور خيبة الجبار العنيد التى تحيق به فتذله حتى تجعله سخرية الساخرين : (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون)[1] ومع هذه الذلة وذلك الصغار للجبابرة المعاندين من ورائهم جهنم ، وحسبهم ألا توصف لتكون حاوية فى صورتها لجميع ألوان العذاب ، ومع هذا العقاب فى نار جهنم يسقون من ماء وأى ماء ؟ أنه الصديد ، وتأمل قوله (يتجرعه) بهذه الصيغة التى تدل على منتهى التكلف والعلاج والمشقة ، ومع ذلك لا يكاد يسيغه . وتصور حالته وفى هذا التصوير إنه (يأتيه الموت) فيغير حاله ويكفهر وجهه وتتقلص عضلاته ويدخل بعضه فى بعض يتقبض وينتشر ، وليته يجد مكاناً يفر إليه أو جهة من الجهات لا يأتيه الموت منها ، بل (يأتيه الموت من كل مكان) وقد يتوهم إن فى الموت راحة له ، ولكنه لا يموت ، ثم ماذا ؟ (ومن ورائه عذاب غليظ) وفى كلمة (غليظ) التى وصف بها العذاب جمع كل وصف من أوصاف الهول والبشاعة وما عليك لتعرف مكانها من براعة البيان إلا أن تديرها مع ما ترى من أساليب الخطباء والمترسلين وانظر هل تجدها إلا قلقة نابية ، تحاول أن تتمطى لتمزق نظام الكلام لكنها فى مكانها من الآية لم تكن مجرد لفظة قصد بها أداء معناها السطحى الذى تمليه أوضاع اللغة بل هى صورة مستقلة كاملة وضع فى إطارها كل ما تتطلبه صورة العذاب الذى ينتظر الجبار العنيد من ألوان منكرة سوداء فى خطوط متعرجة بشعة .

وتأمل المناسبة بين الجبار العنيد ووصف عذابه بالغلظ والجبار العنيد فى الدنيا أكثر ما يكون حاله أن يكون عتلا جواظاً غليظ الكبد عريض

---

(١) سورة الأنعام آية (١٢٤) .

القفا ، ثم تأمل بعد ذلك كيف تم التلاؤم بين العذاب والغلظ حتى وقع الوصف موقعه من الموصوف فكان من بديع التصوير .

وطرز آخر من أسلوب القرآن تراه فى تصوير العمل الذى لا يقوم على أساس صحيح ، فيذهب هباء لا يفيد منه صاحبه وهو أحوج ما يكون إلى الإفادة منه .

وأكمل نماذج هذا النوع من العمل عمل من كفر بمن هو أصل جميع النعم الذى ربى عباده على موائد فضله وإحسانه : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد)[١] انظر إلى تسجيل عنوان الكفر عليهم ، وجعلهم بهذا العنوان الكريه مضرب المثل ثم انظر إلى ربط الكفر بهذا الاسم الكريم (الرب) وخصيصته التعطف والتحنان والتفضل بأنواع التربية والتعهد بالفواضل والنعم ، فالكفر به أبشع من الكفر بغيره كما هو مركوز فى طبائع البشر ، ألا ترى أن النفوس البشرية أشد كراهية وبغضا لمن أساء إلى من أحسن إليها .

ثم ألقت الآية الكريمة بذواتهم وأشخاصهم فى مهب رياح الإهمال وطوت كشحها عنهم وانصرفت بهمها إلى أعمالهم التى قدموها فى حياتهم من الإحسان والبذل والإصلاح دون أن يقيموا لها دعائم من الإيمان بالرب الكريم الذى أعطاهم ما مكنهم من هذه الأعمال فهى كرماد ، والرماد أخف وألين من التراب والرمل ، وهذا الرماد وقع فى مهب ريح فى يوم عاصف فهل يبقى ذلك الريح فى اليوم العاصف من هذا الرماد الذى استقبله زروراً من كل جانب أثراً من بقية تتماسك ، ولذلك جاءت النتيجة

(١) سورة إبراهيم آية (١٨) .

طبيعية تنساق إلى الأذهان دون كد أو تعب : (لا يقدرون مما كسبوا على شيء) ثم جاءت الفاصلة وكأنها تحمل بين أطوائها كل ما صورته الآية من خيبة وحسرة وندم ، فهم كما قال الله تعالى : (عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغنى من جوع)[١] ولون آخر يسوقه القرآن لهذا الموقف من التصوير : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)[٢] .

والبحث يتجاوز مبتدا الآية الأولى فهى كأختها السابقة فى تسجيل عنوان الكفر عليهم وطى ذكرهم إلى ذكر أعمالهم لأن التمثيل مسوق لتصويرها ، وإنما ذكروا بعنوانهم تمهيداً إلى ذكر أعمالهم ، غير أنه هنا حذف المتعلق فاطلق الكفر إطلاقاً ليكون أعم يسد عليهم منافذ الأمل .

وهنا جاء التمثيل فى الآية الأولى لأعمال الكافرين التى لا أساس لها من الإيمان بالسراب والسراب وهم من نسج الخيال منتشر فى صحصح من الأرض متسع ، لا نبات فيه ولا حياة يتخيله الظمآن الذى عضه حر المفاوز فضاعف ظمأه فيخاله ماء ، فيمشى إليه على أقدام الأمل حتى إذا أنهكه العطش والتعب وقف حيث ظن مكان ماء فلم يجد ما تخيله شيئاً أى شىء لا ماء ولا شبه ماء من حقائق الأشياء ، ولكنه وجد الله له بالمرصاد ، ينصب له ميزان العدل فيحاسبه كما يشاء بعدله وحكمته فى أسرع من رد الطرف .

---

(١) سورة الغاشية آيات (٣، ٤، ٥، ٦، ٧) .
(٢) سورة النور آية (٣٩، ٤٠) .

ثم جاء التمثيل فى الآية الثانية لأعمال الكافرين بظلمات متراكمة ، وهى فى بحر لاقرار له يعلوه موج يغطيه فيستتر عنه كل شىء ، ومن فوق هذا الموج المتكشف موج أشد كثافة منه ، ومن فوق هذا الموج الثانى سحاب . يالهول ، ويالضياع والهلاك ، ظلمات بعضها فوق بعض ، تميت كل أمل فى النجاة ، وتذهب بكل خيال فى طمع، وأنى يكون ذلك ولو أن ناظرا أخرج يده وهى أقرب الأشياء إليه وعرضها على ناظريه ليراها لم يقارب رؤيتها بله أن يراها ، وهؤلاء القوم سدوا ما بينهم وبين الله من منافذ الإيمان فلا سبيل إليهم لأن يروا النور بالخروج من هذه الظلمات المتفاحشة كثافة ورعباً (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

وانظر إلى تصوير القرآن لحال المنافقين الذين استبطنوا أخبث الكفر وأظهروا الإيمان خديعة وجبنا (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون — صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير)[١] .

يحسب المنافقون أنهم بتظاهرهم بالإيمان يخدعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فمثل الله حالهم بحال رهط وقعوا فى ظلمة واقبة ، فاتخذوا أهبتهم وجمعوا كل ما يملكون من وسيلة لإيقاد نار يستضيئون بها ليكونوا بمنجاة من الأخطار الحائقة بهم فى غمرة هذه الظلمات ، وأوقدوها فيما أعدوا لها وتأهبوا به لإشعالها ، فلما أضاءت ما حولهم ، وكشفت لهم

(١) سورة البقرة آيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

عن موضع أقدامهم وهموا بما لم ينالوا ذهب الله بنورهم وتركهم حيارى في تيههم يعمهون .

فالتعبير بلفظ (استوقد) دون (أوقد) أبلغ في تصوير المثل ليدل على حقيقة حال الممثل له ، فليس معنى استوقد رديفاً لمعنى (اوقد) متحداً معه في المعنى ، وإنما معنى استوقد أوسع وأدق في دلالته على المعنى المقصود الذي وضع في مكانه ليدل عليه لأن (استوقد) يشعر بالإعداد والأهمية وقوة الإيقاد مما ينشأ عنه عموم الإضاءة من سائر الجوانب وعلماء اللغة يقولون : إن زيادة المبنى تدل على زياد المعنى ، وهذا لازم في القرآن مطرد فلن تكون فيه كلمة بلغت في البناء منتهى صيغتها مساوية في أداء المعنى لكلمة أخرى من مادتها لم تقع فيه وقصرت في بنائها عن صيغة أختها ، على أن حذاق العلماء يرون أن الترادف مطلقاً معدوم في القرآن قال ابن تيمية: وأما الترادف في ألفاظ القرآن فنادر أو معدوم ، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه بل يكون فيه تقريب لمعناه ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن ، فإذا قال القائل (يوم تمور السماء مورا) إن المور هو الحركة كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة وكذلك إذا قال الوحي الإعلام ، أو قيل وأوحينا إليك ، أنزلنا إليك أو قيل (وقضينا إلى بني اسرائيل) أي أعلمنا وأمثال ذلك فهذا كله تقريب لا تحقيق ، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي والقضاء إليهم أخص من الإعلام فإن فيه إنزالا إليهم وإيحاء إليهم .

ثم انظر إلى قوله (ذهب الله بنورهم) دون أن يقول ذهب الله بنارهم لأن المقصود لهم من استيقاد النار هو النور ، فإذا غافصهم ذهاب النور ، وبقيت لهم النار بين أيديهم لا نور لها تأكل أنفسهم أبلسوا ووقعوا في تيه من الحيرة وأخذهم الدهش واستولى عليهم الرعب والفزع ، وهم يرون أصل

النور ولا نور ، وفى قوله (ذهب الله بنورهم) دون أن يقول (أذهب الله نورهم) لطيفة بيانية من لطائف التعبير القرآنى لأن قوله (ذهب الله بنورهم) يفيد أن الله انتزع النور منهم وأخذه إلى حيث شاء ، فلا مطمع لهم فى رده عليهم لأنهم يعلمون أنهم لا سبيل لهم إلى الله ، بل إن معنى التعبير القرآنى أدق لأنه يفيد أن الله ذهب بالنور وحجبوا عنه بظلمات النفاق - ولله المثل الأعلى - أما التعبير الثانى فإنه يفيد أن الله تعالى أزال النور عنهم بإطفائه ، وذلك لا يقطع طمعهم فيما يتعللون به من أسباب يستعيدون بها النور ، ولذلك جاء تعقيب تعبير الآية بما يفيد تيئيسهم من رجع النور (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) .

وهذا تصوير بارع لحال المنافقين يكشف عن خبيئة قلوبهم المريضة ، وعمى بصائرهم وجمود أحاسيسهم ، وخمود شعورهم ، فهم صم لا يسمعون نداء الحق ، وإذا سمعوه أشاحوا عنه معرضين ، بكم لا ينطقون الحق ، وإذا نطقوه أصابهم عىّ البله ، وحصروا فلم يستطيعوا أن يبينوا عن ذات أنفسهم وهم عمى لا يبصرون طريق الحق ، فهم فى غيهم سادرون ، لا يرجعون عن ضلالتهم ، ولا يفيئون إلى ظل من الأمل فى الخلاص .

ثم أدار القرآن الحديث فى الآية الثانية إلى لون آخر من التمثيل لتصوير حال المنافقين فشبه حالهم فى تظاهرهم بالإيمان ليفيدوا منه عصمة دمائهم وأموالهم ونيلهم حرية المشاركة فى أعمال المسلمين . وقسمهم معهم فى غنائمهم إذا حضروا الجهاد معهم ، وكانوا يحضرونه طمعاً فى الغنيمة متربصين بالمؤمنين الدوائر كما ذكر الله حالهم هذا فى قوله (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين)(١) وحالهم فى إضمارهم أخبث الكفر

---

(١) سورة النساء آية (١٤١)

وما يدبرون فى الخفاء من مكر سيء وكيد للمؤمنين إذا خلوا إلى شياطينهم من أخابث اليهود ورؤوس الكفر وزعماء الشرك ، واستيلاء الخوف على قلوبهم لئلا تنكشف حالهم،ويفتضح أمرهم ويبدو للمؤمنين عوارهم وتظهر لهم حقيقة أمرهم فيؤخذوا بكفرهم ومكرهم — شبه حالهم هذا بالسحاب الأسحم الشديد المطر فى الليل البهيم الأدهم بما فيه من ظلمات متراكمة ، ورعد قاصف مرهب وبرق خاطف مرعب الذى أصاب قوماً لا يستطيعون اتقاء آثاره المخيفة إلا بأضعف الوسائل يجعلون أصابعهم أطرافها فى آذانهم رهباً من الهلاك وحذراً من الموت توهما منهم أن ذلك يمنعهم من سماع صوت الرعد الهادر ، أو يحول بينهم وبين الصواعق المهلكة التى تنزل عليهم مع هدير الرعد وومض البرق ، ولكن الله محيط بعلمه وقدرته بهم لا يعجزونه هرباً من عذابه (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)[1] اتقاء بطش الله وانتقامه .

ثم وصف حيرتهم وصفا أشبه بوصفها فى الآية السابقة مع اختلاف الإطار التى وضعت فيه الصورة فى الآيتين ، فهناك كما قلنا على ماقلنا ، وهنا شدة وومض البرق تكاد تخطف أبصارهم وتذهب بالبابهم إذا لمع لهم منه بريق ضوء مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم وقفوا حيارى مشدوهين ولو شاء الله أن يضاعف عليهم ومض البرق ولمعانه ليذهب بسمعهم وأبصارهم ويتطابق خبرهم مع مخبرهم كما وصفهم فى الآية السابقة (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) لكان قديرا على أن يفعل مايشاء ، لأن قدرته لاتحدها الحدود ، ولا يعجزها شيء فى الوجود ، وإنما يمهلهم أملاء لهم وكيدا بهم حتى إذا أخذهم فإن أخذه أليم شديد (وأملى لهم أن كيدى متين)[2].

---

(١) سورة التوبة آية (٥٧)

(٢) سورة ن آية ٤٥ .

وفى هذه النماذج التى اخترناها للنظر والإبانة عن بعض خصائصها البيانية فى مقام الوعيد والترهيب والتصوير النفسى للنفوس المعقدة المخبوءة وراء تعاريج النفاق ـ غناء لمن أراد أن يتابع البحث ويجول فى ميدان الإعجاز البيانى للقرآن العظيم .

ونتجاوز هذا المقام إلى مقام الترغيب والوعد لنذكر بعض النماذج الغنية عن إطالة النظر فى تحليلها . ويكفى لإدراك براعتها التى لا تعارض أن توضع فى إطارها جملة لتؤلف صورة واضحة تعبر عن نفسها تعبيرا قد يكون أصدق من تعبير الحديث .

فاستمع إلى وصف السابقين الأولين من عباد الله المتقين المقربين ، واستمع إلى وصف ما أعده الله لهم من كرامته وجزيل إنعامه ، فستجد فى الأسلوب سلاسة ورقة وفى الألفاظ لطفاً وحلاوة ورنة فى الفاصلة، واتساقاً فى الفقرات ، وتسبق معانيها إلى قلبك ألفاظها لأذنك (والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما * وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا * لأصحاب اليمين * ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين)[١].

---

(١) سورة الواقعة آيات من ١٠ إلى ٤٠

(وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * فى جنة عالية * لاتسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة)[١].

أسلوب هامس ناعم مطمع ، ولفظ رقيق لين حلو ، وفواصل موسيقية ذات رنين مبهج ، فمن من الناس الذين نالوا حظا من علم وأدب ، وتمرسوا بنصوص فصاحة العرب لايطمعه هذا الأسلوب فى مباراته ؟ هذه السماحة المعبرة فى أسلوب الآيات ، وهذه الرقة الباسمة فى ألفاظها ، وهذه الحلاوة فى رنين فواصلها ، تغرى بالجرى على سننها ، لا بل أنها تطمع فى معارضتها ، ولكنه طمع فى غير مطمع ، فوعزة القرآن لو أن أبيناء الناس وحكماءهم اجتمعوا على قلب أبينهم وأحكمهم وأفصحهم ما استطاعوا أن يأتوا بمثل آية من آيات القرآن بله سورة من سوره .

ليس هذا كلاما خطابيا تدفع إليه عصبية دينية أو تقليد ، ولكنه البحث والدراسة والنقد الفاحص ، وتردد النظر المتامل ، روى أن أحد تلاميذ أبى العلاء المعرى قال : دخلت على أبى العلاء فى وقت خلوة بغير علم وكنت أتردد إليه لأقرأ عليه فسمعته ينشد :

كم بودرت غادة كعوب وعمرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفا والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطىء المنايا والخلد فى الدهر لايجوز

ثم تأوه مرات وتلا (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود .

---

(١) سورة الغاشية آيات من ٨ إلى ١٦

يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فنهم شقي وسعيد)(١) ثم صاح وبكى بكاء شديدا وطرح وجهه على الأرض زمانا ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من تكلم بهذا فى القدم ، سبحان من هذا كلامه ، ثم صبرت ساعة ، ثم سلمت عليه فرد على ، وقال : متى أتيت ؟ فقلت الساعة ، ثم قلت : ياسيدى أرى فى وجهك أثر عيظ ؟ فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئا من كلام المخلوق وتلوت شيئاً من كلام الخالق فلحقنى ما ترى .

وكيفما يكن حال هذه القصة فإنها تصور سلطان البيان القرآنى على النفوس المؤمنة والجاحدة على سواء .

ثم نوع آخر من الأسلوب يختص بالمحاورة ، أتى فيه القرآن العظيم بما يملأ القلوب مهابة وجلالا ، ونبه فيه على دقائق نفسية من أصدق ماينطبق على حقائق الناس فى واقع وجودهم فى الحياة .

استمع إلى قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهدينا كم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم)(٢).

فانظر إلى تصوير حال الأتباع الضعفاء مع المتبوعين الأقوياء ، بعد أن ارتفعت عنهم أوهام القوة فى يوم تجردوا فيه من كل سبب من أسباب الدنيا التى كانوا يتيهون بها على عباد الله استكبارا فى الأرض وعتوا على الضعفاء المحرومين ، ثم انظر إلى خبث الشيطان وسخريته من جنوده ممن قلده فى استكباره وصلفه فى صراحة مريرة ، وتبكيت خبيث بعد أن

(١) سورة هود آيات (١٠٣ — ١٠٥) (٢) سورة ابراهيم آيتى (٢١ ، ٢٢)

تكشف له ولهم عواقبهم من مقت الله وغضبه ، وتأمل قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا) لتدرك ما فى التعبير عن ظهورهم مجتمعين ليوم الحساب بهذه الصيغة ، صيغة الفعل (برزوا) وكانوا فى الدنيا لا يظهرون مجتمعين لأن القادة المستكبرين كانوا يانفون أن يظهروا مع الأتباع الضعفاء، وفى هذا التعبير إشارة إلى ما كان عليه القادة المستكبرون من التخفى والتستر عن الأنظار فى أحوالهم الخاصة التى كانوا يقضون فيها أوقاتهم من العبث والفجور وارتكاب الفواحش والإفساد فى الأرض اعتمادا على ما كان لهم من أسباب الدنيا مما يسترهم من القصور المشيدة والصروح الشامخة عن أنظار الناظرين .

وفى ربط الفعل (برزوا) بلفظ الجلالة بحرف اللام إشارة إلى ما كانوا عليه من استهتار برقابة الله عليهم واطلاعه على خفايا أحوالهم متوهمين أنهم كما استتروا عن الناس استتروا عن رب الناس العليم الخبير ، فلما ذهب عنهم ما كانوا به يستترون خرجوا من مخابىء أوهامهم إلى ساحة الحساب والعرض على الله عراة من كل سبب كان لهم فى دنياهم لا تخفى عليه منهم خافية .

ثم تأمل عنوان كل طائفة فى المحاورة ، فالاتباع هم الضعفاء الأذلاء ، والمتبوعون هم الأقوياء المستكبرون وفى التعبير عنهم بالذين استكبروا ما يدل على أنهم استحدثوا هذا الاستكبار ولم يكن لديهم من أسبابه سبب وصيغة (استكبروا) تدل على التعجرف الفاجر وتكلف الكبرياء والتشامخ الأجوف .

فكلمات القرآن المفردة صور من المعانى والحقائق ، فكل كلمة رسالة أو كتاب فى تحليلها وتفصيل ما طوى فيها ، وقد تجرى بعض كلمات القرآن فى كلام بعض المترسلين ولكنها لا تقع موقعها الذى يخلع عليها هذا اللون من البراعة البيانية فى أسلوب القرآن ، وهذا ضرب من ضروب الاعجاز فى القرآن لو تتبع لخرج منه علم كثير .

ثم تأمل خذلان قائد المستكبرين ومقدمهم فى الضلال والتضليل لأتباعه المتكبرين وتبريه من جريمة اضلالهم ، وهو الذى خيل إليهم الاستكبار فضيلة ، بأنه ما كان له عليهم من سلطان يقسرهم به على الكفر والفجور بالاستكبار والغطرسة على خلق الله وكشف لهم عن عجزه ، وأنه واياهم فى ضلال مبين ، ولم يكتف بخذلانهم وعجزه عن مؤاساتهم بل ذهب يوبخهم على أنهم قد انقادوا له دون تعقل فلم يتدبروا ما كان حولهم فى الدنيا من عظات وعبر فاللوم واقع على أنفسهم لا على شيطانهم وابليسهم وهو يعترف أمامهم زيادة فى التنكيل بهم بأنه أعجز عن أن يقدر على اغاثتهم كما أنهم عاجزون عن إغاثته وكل فى العذاب مشتركون .

وقد جاء هذا اللون من أسلوب المحاورة بين الأتباع والمتبوعين فى صور متعددة من آيات القرآن ، فمن ذلك قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)(١) .

ومنه قوله تعالى (قال أدخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)(٢) .

ومنه قوله تعالى(وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا

---

(١) سورة البقرة آيتى ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) سورة الاعراف آيه (٤٧، ٤٨) .

إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد)(٢) .

ونكتفي بهذه النماذج عن عرض بعض آيات الكتاب الكريم ، والنظر في أسلوبها وما يكمن فيه من براعة البيان والتنبيه على مواطن الاعجاز البلاغي فيها لتكون أمثلة لدراسة مستفيضة مستوعبة لمن تواتيه الفرصة للبحث في مستقبل الأيام .

وهناك ظاهرة انفرد بها أسلوب القرآن ، نرى أن نعرض لها عرضا إجمالياً على نمط ما عرضنا له من النظر في نماذج الاعجاز البياني في هذا الكتاب الكريم .

تلك الظاهرة هي تفصيل آياته وتقسيمها تقسيماً يتفاوت طولا وقصراً ويختلف في مقاطعه وفواصله باختلاف المعاني التي تؤدى بها .

فآيات الأحكام والتشريع يغلب عليها الطول والبعد عن السجع ورنين الفواصل ويكثر ذلك في السور المدنية فسورة البقرة أطول سور القرآن وأعظمها اشتمالا على الأحكام التشريعية ، لا تكاد ترى فيها سجعاً أو فقراً قريبة الفواصل ولعل السبب في ذلك - كما يبدو لنا - أن المقصود الأهم فيها هو من هذا القبيل من سور القرآن الكريم إنما هو أداء الأحكام. وصرف الهمة إليها صرفاً كاملا حتى لا يشغل السامع بغيرها وتتطلبا الإقبال على فهمها والعمل بها فلو جاء الكلام في هذه السور والآيات التشريعية مسجوعاً قصير الفقرات لكان في رنين السجع وحلاوته في السمع ، وتقسيم الفواصل ما يشغل الذهن عن الاستجماع إلى المعاني والأحكام التي هي المقصود الأول الأهم هنا .

---

(١) سورة غافر ايتى (٤٧، ٤٨) .

أما غير آيات الأحكام والتشريع فليس ثمة ما يمنع فيها من السجع والتقسيم ورنين الفواصل، وربما زادها ذلك جمالا وحلاوة فى السمع على ما نراه فى كثير من سور القرآن ولكل مقام مقال .

ومن هنا اختلف العلماء ونقدة الأدب فى دخول السجع فى أسلوب القرآن، هل تعد فقر القرآن وآياته التى تجرى على استواء ما عرف عند العرب بالسجع سجعاً فيكون حينئذ السجع من أساليب القرآن أو لا يعد ذلك سجعاً، فلا يكون حينئذ السجع من أساليب القرآن ؟ .

فذهب القاضى أبو بكر الباقلانى وجماعة من علماء الكلام إلى أن القرآن كله خارج عن أسلوب كلام العرب، فلا يقال له مرسل ولا مسجوع وشددوا النكير على من زعم أن فى القرآن سجعا، قال الباقلانى فى كتاب الإعجاز : لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز . . . . والذى يقدرونه سجعا فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعا لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع . وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لان اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع، كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى .

وهذا الكلام الذى تأثر فيه الإمام الباقلانى بمنطق المتكلمين موضع للبحث، لا تسلم قضاياه وقد رده عليه كثير من العلماء ونقاد الأدب .

وقد ذهب إلى نفى السجع عن القرآن العلامة ابن خلدون فقال فى مقدمته

(وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يسمى مرسلا مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية ، وهو معنى قوله (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم[1]) وقال (قد فصلنا الآيات) ويسمى آخر الآيات منها فواصل ، إذ ليست أسجاعا ولا التزم فيها بما يلتزمه السجع .

وقد تأثر بهذا الرأى بعض المحدثين من الأدباء والكتاب ، والقضية التى يجب أن يدور حولها البحث : هى هل فى القرآن سجع أى جمل متوازنة لها فواصل من غير وزن كوزن الشعر؟ وليست القضية أن القرآن كله سجع أو غير سجع ولم يقل أحد مطلقاً بان القرآن كله سجع، ولا يعقل أن يقوله عاقل، بله عالما أديبا ، ووجود السجع فى القرآن فى بعض سوره وآياته لا يدخله فى أساليب كلام البشر دخولا يستوى به معها حتى يخرجه عن الإعجاز، ومن الذى زعم أن أسلوب السجع كله متحد فى درجته البيانية ومرتبته البلاغية؟ أفلا يجوز أن يوجد من كلام البشر كلام مسجوع ، وهو متفاوت فى درجات البيان والبلاغة ؟ وهل يكون سجع حكماء العرب وعقلائهم من ذوى الفصاحة واللسن مماثلا لسجع الكهان الذين يقصدون إلى التعمية فى المعانى برصف الألفاظ ؟ وإذا تفاوت السجع فى كلام البشر فما الذى يمنع أن يكون السجع الذى جاء فى القرآن بلغ فى البراعة البيانية درجة يعجز عنها البلغاء ، وقد كان جنسه فى مقدورهم ، وهذا موقف القرآن من سائر أنواع الكلام وأساليب البيان ، فجنسه كلام مؤلف من ألفاظ عربية كأى كلام عربى ،

---

(١) سورة الزمر آية (٢٤).

ولكنه سما إلى الذروة البلاغية بطبيعته الخاصة فى الأداء ويعلو طبقته فى براعة البيان ، وهذا أبلغ فى تحقيق الإعجاز ،

أما الزعم بأن السجع دائما يتبع فيه المعنى اللفظ ، فهو زعم غير سديد لأنه إذا صح فى سجع الكهان وسجع الصنعة والتكلف فلن يصح فى سجع الطبيعة وسماحة الطبع .

قال ابن الأثير فى (المثل السائر) : فإذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فان وراء ذلك مطلوباً آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ . . . . ثم قال : لو كان السجع مذموما لما ورد فى القرآن الكريم ، فانه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسور جميعا مسجوعة كسورة الرحمن والقمر .

وقال أبو هلال العسكرى فى الصناعتين : ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ولو استغنى عن الازدواج لكان القرآن ، لأنه فى نظمه خارج عن كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما ازدوج فى الفواصل منه .

والظاهر أن المسألة نشأت من اختلاف منهج المتكلمين مع منهج الأدباء والبلاغيين وهو اختلاف تعبير وليس اختلاف جوهر فى حقيقة علمية أو قضية فنية ، فالمتكلمون لا ينكرون أن فى القرآن فقراً وآيات متوازنة مقفاة غير موزونة بأوزان الشعر ، يسمونها فواصل وآيات ، ولا يسمونها سجعا وازدواجا ، والبلاغيون والأدباء لا يتوقفون فى تسمية تلك الفقر سجعا ، والجميع متفقون على أن هذه الفقر مما كان اللفظ فيها تابعاً للمعنى موجود فى القرآن ، فالخلاف ـ كما يقول علماؤنا ـ لفظى .

وخلاصة الرأى أن القرآن العظيم كلام من جنس منثور كلام العرب فى ألفاظه وعباراته ولكنه مباين فى علو طبقته وسمو درجته لجميع كلام

الخلق فى نظمه وأسلوبه فهو من المنثور الجامع لخصائص أبلغ فنونه وأعلى طبقات أنواعه، فيه سجع يقتضيه المقام، وفيه ترسل يبلغ غاية المرام. وهو فى كليهما معجز خارج عن طوق البشر.

التفسير بالمأثور

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين، منجما على حسب مقتضيات الأحوال ومجرى الحوادث، ووقوع الأحداث وظهور القضايا والوقائع فى مدى ثلاث وعشرين سنة، وهى عمر الرسالة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو مروى عن ابن جريج، ويقول قتادة. كان بين أوله وآخره عشرون سنة قال الله تعالى: (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)[1] وهـذا رد على المشركين فى تعنتهم وطلبهم أن يكون نزول القرآن جملة واحدة كنزول الكتب السابقة فبين الله الحكمة فى نزوله منجما مفرقا مفصلا، وذلك ليكون حفظه أسهل وعلم معانيه أيسر وأثبت.

وقال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا[2]) وفى هذه الآية تصريح بشبهة الكافرين مسندة إليهم وفيها دحض لهذه الشبهة وبيان للحكمة فى التنزيل مفرقاً، وهى تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم والتيسير عليه وعلى أمته فى حفظه والإحاطة بمعانيه وأسراره والامتثال لأوامره ونواهيه، والعمل بأخلاقه وسياسته، وتحقيق إعجازه على أبين وجه وأكمله فإن المعارضة للكلام المفرق نجوما أيسر من المعارضة لكتاب جملة واحدة،

---

(١) سورة الاسراء اية (١٠٦). (٢) الفرقان اية (٣٢).

والتحدى بإعجازه بدأ مع نزوله ، فكأنه تحداهم بكل نجم منه قل أو كثر فعجزوا وتحيروا ولم يأتوا بشيء (وكانوا يقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا)، وهم كاذبون مكابرون ، لأنه كان يقرعهم ويمعن فى تعجيزهم بأنهم لن يستطيعوا معارضة القرآن فلو كانت المعارضة ممكنة لطاروا إليها ، ولو وقعت لطارت إلى الناس فى الشرق والغرب .

وكذلك تلقاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيه مشافهة، لحفظه كله حفاظهم فى صدورهم ، وكتبه كله كتابهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سمعه وبصره ، وبتعليمه وإرشاده ، وتدارسه مع جمهورهم تفقها لهم فى دستور دينهم وبيانا لنظام دنياهم ، يسألونه عما خفى عليهم من فقهه ومعانيه فيجيبهم مبيناً فى غير إسهاب لأنهم لم يكونوا فى حاجة إلى إسهاب وهم أهل لسانه القيمون على لغته العارفون بمعانيه بسليقتهم ومشاهدتهم لنزوله وحذقهم لحقيقته ومجازه ، يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم تفسيره فيعلمون مطلقه ومقيده ، وعامه وخاصه ، وناسخه ومنسوخه ومجمله ومفصله ، ومبهمه ومفسره ، ومحكمه ومتشابهه ، وكانوا أقدر الناس على فهم أسلوبه ، يدركون بفطنتهم إشاراته ومراميه، لا يختلفون عليه، ولا يختلفون فيه . وإذا تنازعوا فى علم من علمه ردوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم وهو بين أظهرهم عملا بإرشاد الله تعالى : (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)[1] .

وقد ذكر الإمام ابن تيمية فى مقدمة أصول التفسير ان اختلاف السلف فى التفسير اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد وذلك نوعان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المعنى المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم

(١) سورة النساء ايه (٥٩)

الصراط المستقيم ، فسره بعض بالقرآن ، أى اتباعه ، وبعض بالإسلام ، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو إتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ الصراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال : هو السنة والجماعة ، وقول من قال هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاته .

النوع الثانى: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على الحد المطابق المحدود فى عمومه وخصوصه . مثاله ما نقل فى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير)[١] ومعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات فالمقتصدون هم أصحاب اليمين والسابقون أولئك المقربون ثم أن كلا يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات كقول القائل : السابق الذى يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار .

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بهذا التوجيه وأهله لأنهم صدر السلف وعنهم أخذ من بعدهم وكان النزاع بينهم فى تفسير القرآن قليلا جداً ، لأن ما تكلموا فيه منه قليل ، وما نقل عن رسول الله فى التفسير قليل موجز ، يقصد به إلى تبيين مواضع العبرة ومعقد الهداية فى آيات الذكر الحكيم . روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : لم

---

(١) سورة فاطر اية (٣٢)

يكن النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل .

وشاهد ما ورد من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ماروواه الطبرانى من حديث سفيان بن عيينه أنه لما نزل قول الله تعالى (خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين)[1] .قال النبي صلى الله عليه وسلم : ماهذا يا جبريل؟ قال : إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك .

ومن شواهده أيضاً ما رواه الإمام أحمـــد فى المسند عن أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة .

ومنها ما أخرجه الخطيب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (يتلونه حق تلاوته) قال : يتبعونه حق اتباعه .

ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن على بن طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله (لا ينال عهدى الظالمين) قال : لا طاعة إلا فى المعروف ، ويعضده ما جاء موقوفا عن ابن عباس قال : ليس لظالم عليك عهد أن تطيعه فى معصية الله .

ومنها ماروواه البخارى ومسلم فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال النبي صلى الله عليه وسلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك ؟ فيقون محمد وأمته قال النبي صلى الله عليه وسلم فذلك قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم .

---

(١) سورة الأعراف آية (١٩٩) .

ومنها ما أخرجه أبو الشيخ والديلمى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (فاذكرونى أذكركم) فيقول : اذكرونى يامعشر العباد بطاعتى أذكركم بمغفرتى .

ومنها ما أخرجه الترمذى وصححه عن أبى أمية السفيانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام .

ومنها ما أخرجه الفريابى قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا : كيف يشرح صدره ؟ قال نور يقذف به فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من إمارة يعرف بها ؟ قال : الأنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت .

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد فى المسند عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يارسول الله ؟ الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال : يا ابنة الصديق ، ولكنه الذى يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف الله .

ومنها ماأخرجه ابن جرير والطبرانى من طريق موسى بن على بن رباح عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ما ولد لك ؟ قال : ما عسى أن يولد لى ؟ أما غلام أو جارية ، قال : فمن يشبه ؟ قال : من عسى

أن يشبه ؟ أما أباه أو أمه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مه ؟ لا تقولن هذا ، إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم ، أما قرأت : (فى أى صورة ما شاء ركبك) قال : سلكك .

هذه نصوص التقطناها من فصل طويل أثبته السيوطى فى إتقانه ، وقد توخينا فيها ما رجحت عندنا صحته بمؤيد أو سند وقد تتبع السيوطى فى هذا الفصل سور القرآن سورة سورة ، وهى تؤكد ماقلناه من أن التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم كان موجزا ، يقصد إلى بيان موطن الهداية فى الآية وكذلك ماجاء عن خواص أصحابه وعلمائهم من مأثور التفسير فإنه ذهب هذا المذهب ، أما التفاسير المطولة المنسوبة إلى ابن عباس وتلاميذه فأكثرها مما أخذ عن مسلمة اليهود أو من تتلمذ لهم من غيرهم تأثرا بما ورثوه من شروح التوراة وسائر كتبهم ، وهذا يحتاج إلى نظر محص .

وكان صلى الله عليه وسلم يجيب أصحابه إذا سألوا ، ويرشدهم إذا سكتوا ، يعجبه منهم أن يسألوا فيما ينفعهم فى دينهم ودنياهم وأن يعملوا بما علموا ، ولا يعجبه أن يستكثروا من المسائل رحمة بهم وشفقة عليهم والوحى ينزل عليه ، يخشى أن يشدد الله عليهم فيضعفوا عن العمل ، وهو الرؤف الرحيم بهم ، الحريص عليهم وعلى سلامتهم ، العزيز عليه عنتهم ومشقتهم ، فلما أكثر عليه من لم يرسخ من حدثائهم وسألوا فيما يفيد ومالا يفيد حتى قال بعضهم : من أبى ؟ أدبهم الله فأنزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)(١) .

وشاهد ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول

---

(١) سورة المائدة (آيتى ١٠١ ، ١٠٢) .

الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا) فقال رجل : كل عام يارسول الله ، فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال : (ذرونى ماتركتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ، « فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) .

وقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى والقرآن الكريم محفوظ فى الصدور مكتوب فى الألواح والصحف ، مرتب الآيات توقيفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كثر الاستشهاد فى حملة القرآن فى حروب الردة أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق أن يجمع القرآن لئلا يذهب كثير منه بذهاب حفظته ، فتوقف أبو بكر قليلا ثم شرح الله صدره لما رآه عمر ، فعهد إلى ألزم كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم كتابة لوحى القرآن ، الفحل لا يقدع أنفه ، والعيلم لا تغمز قناته : زيد بن ثابت الأنصارى ، أن يقوم بمهمة جمع القرآن تحت سمعه وسمع عمر وبصره وبصر عمر وبمشهد من الأجلة السابقين الأولين وبعلم جميع من حضر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم على وأبى وابن مسعود ممن اشتهر بجمع القرآن كله فى صدره حفظا كما تلقاه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغير عليه أحد منهم ولم تنقل كلمة عن واحد منهم فى الإنكار عليه .

وتوقف زيد قليلا تهيبا لمهمته التى كلف القيام بها حتى شرح الله صـــدره للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، وتم الجمع فى صحف كانت عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم كانت عند عمر حياته ثم كانت عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر حتى طلبها عثمان رضى الله عنه فى خلافته من حفصة حينما اختلف قرأة الأقطار الإسلامية من الصحابة فى أحرف

القراءات المنزلة نخشى حذيفة عاقبة هذا الاختلاف ، وأشار على عثمان بتدارك الأمر قبل أن يستفحل ، فعهد عثمان إلى صاحب الجمع الأول زيد بن ثابت صاحب جمع أبى بكر وضم إليه نفرا من قريش وأمرهم بنسخ صحف أبى بكر التى كانت موجودة عند حفصة ، ولما تم نسخ المصاحف رد عثمان الصحف إلى أم المؤمنين حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، فكانت تلك المصاحف هى الأمام فى حفظ القرآن مكتوبا باتفاق جميع الصحابة ومن عاصرهم من سائر المسلمين .

فالقرآن كما وصفه رسول الله صلى الله عليه فى حديث الترمذى وأبى نعيم (كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه فقد هدى إلى صراط مستقيم) .

والتاريخ الصادق لايتردد فى تقرير أنه لم يعرف أن كتابا إلهيا أو كتابا بشريا فى مدى حياة المجتمع الإنسانى ، عاصر أحداث تطور الإنسانية الفكرية والاجتماعية ، وعاصر المد الحضارى فى العصور المختلفة حظى بمثل ما حظى به القرآن من العناية فى تلقيه وحفظه وضبطه، ونقله ، وروايته جيلا عن جيل ، وعصرا بعد عصر .

فهو الكتاب الفذ الذى حفظ فى صدور قرائه من جماهير المسلمين

فى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ، يحفظه ألوف الألوف ماهرين به فى حذق التلاوة ، لا يفوتهم منه حرف ، بله كلمة أو آية .

وهو الكتاب الفذ الذى كتب كله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفقد منه حرف .

وهو الكتاب الفذ الذى أجمع المسلمون بجميع فرقهم واعصرهم ، وبلدانهم على شرط التواتر القاطع فى نقله سورة سورة ، وآية آية ، وكلمة كلمة .

وهو الكتاب الفذ الذى انفرد فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم بالكتابة بأمره صلى الله عليه وسلم حتى ينفرد بالتعالم ، ويشتهر بالعرفان لدى الخاصة والعامة ، فلا يشتبه بغيره لأول وهلة ، وإن كان بأسلوبه البيانى الخاص لا يمكن فيه الاشتباه عند أدنى تأمل . روى الأئمة وأخرجه مسلم من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن .

وهو الكتاب الفذ الذى دون تاريخه مرحلة مرحلة ، فقد عرف متواترا طريق نزوله ، وأمكنة نزول آياته وسوره وأزمنة نزولها ، وحال نزولها ، وأسباب نزولها ، وعرف منه أول ما نزل ، وآخر ما نزل ، وما نزل منه مفرقا ، وما نزل جميعا ، وعرف عدد سوره ، وعدد كلماته ، وعدد حروفه ولغاته ، وإعجازه ، وسائر خصائصه التى امتاز بها عن جميع الكلام .

ذلك لأن القرآن منذ نزوله آية آية ، وسورة سورة ، كان له تاريخ مشهود فى تلقيه ونقله بالتواتر القاطع وحفظه فى الصدور وكتابته فى الصحف والمصاحف فلم يعرف التاريخ القرآنى أن وقتا من الأوقات أو لحظة من لحظات الزمن فقد المسلمون سورة من سوره ، بل آية من آيه وكانت خصيصة القرآن فى تلقيه ونقله التواتر القطعى ، فهو بهذا

محفوظ حفظا تاما تحقيقا لوعد الله تعالى فى قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وكان إجلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنون أشد العناية بحفظ القرآن فى صدورهم لأنهم عرب أميون لا يكتبون ولا يقرأون فى كتاب وكانوا يعنون بعلم ما يحفظون ، ويعملون بما يعلمون ، كان إذا حفظ أحدهم عشر آيات وقف عندها ، يتفقه فيها ويتعلم معانيها ويعمل بما علم ، وكان أحدهم يلبث زمناً طويلا فى حفظ السورة الطويلة . ويقول أنس ابن مالك كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا ، وأخرج الإمام مالك فى الموطأ : أن عبد الله بن عمر مكث فى حفظ البقرة ثمان سنين .

وهم على ذلك متفاوتون فى الحفظ والعلم فمنهم من حفظ القرآن كله وعلم بقدر طاقته علمه وتفسيره واشتهر من هذا القبيل عدد قليل من أشهرهم الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود ، وهذان هما اللذان نقل عنهما أكثر ما يدور بين الناس من التفسير المنقول بالرواية .

على بن أبى طالب

وأكثر الخلفاء الأربعة رواية عنه فى التفسير الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنه وقد اختلط فى النقل عنه الحق بالباطل ، والصحيح بالزيف ، لأن شيعته وأكثرهم من الأعاجم وفيهم دخلاء من اليهود ، كذبوا عليه وكذبوا له حتى رووا عنه أنه قال (لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت) ومن العجيب أن يتكلف بعض العلماء تخريجاً لذلك أو شرحاً ليدخله فى دائرة الإمكان وهو لو كان على الصورة التى حاول بها هذا العالم توضيح الرواية عن الإمام لما كان فيه فضيلة للإمام لأن كل أحد

يقدر على أن يذكر من أحوال العالم وكمالات الله التى لا تتناهى ما يملأ ما لا يحصى من الدواوين والأسفار . ويجعل ذلك تفسيراً لقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) فقط وقد نقل السيوطى هذا التكلف عن ابن أبى جمرة، قال بعد أن ذكر نص الرواية : وبيان ذلك أنه إذا قال الحمد لله رب العالمين يحتاج إلى تبيين معنى الحمد وما يتعلق بالاسم الجليل الذى هو الله وما يليق به من التنزيه ، ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وإعداده وهى ألف عالم أربعمائة فى البر وستمائة فى البحر فيحتاج إلى بيان ذلك كله . ثم أخذ يفصل القول على هذا النحو فى جميع آيات فاتحة الكتاب . إلى أن ختم كلامه بقوله : فعلى هذه الوجوه يكون ما قاله علىّ من هذا القبيل .

وأخرج أبو نعيم فى الحديث عن ابن مسعود أنه قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن وأن على بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن . كما أخرج أبو نعيم أيضاً أن علياً قام على المنبر فقال : سلونى ؟ فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ، واسألونى عن كتاب الله فوالله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت إن ربى وهب لى قلباً عقولا ولساناً سئولا .

والحق الذى يؤمن به المؤمنون أن الإمام رضى الله عنه كان على خصيصة من الفضل والعلم والحكمة والفقه فى الدين ونفاذ البصيرة تضعه فى الذروة من طليعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان رضى الله عنه فى غُنْية بفضله الحق عن المبالغات التى أضاعت الحق فى غمارها رضى الله عنه وأرضاه .

ابن عباس

أما الحبر عبد الله بن عباس ، فهو تلميذ على ووارث علمه ، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال . (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) وكان

عمر بن الخطاب يؤثره ويقرب مجلسه، ويحضره مشاهده مع الأكابر من ذوى شوراه من الصحابة ، ويقول فيه : ذاكم فتى الكهول ، إن له لساناً سئولا وقلباً عقولا .

روى البخارى عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ؟ وأن لنا أبناء مثله ، فقال عمر : انه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ،قال ابن عباس: فما رأيت أنه دعانى إلا ليريهم، فقال : ماتقولون فى قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ماتقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه الله له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا . فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

وروى البخارى من طريق ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال : قال عمر ابن الخطاب يوماً لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيمن ترون هذه الآيات نزلت (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء . فقال عمر : يا ابن أخى قل ولاتحقر نفسك ، قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل ، فقال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله .

وكان ابن عباس يسمى ترجمان القرآن ، ويسمى الحبر والبحر لسعة علمه وعن عبد الله بن عمر أن رجلا أتاه فسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، فقال : اذهب إلى ابن عباس فاسأله ثم تعال اخبرنى ، فذهب

الرجل فسأل ابن عباس ، فقال كانت السماوات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات ، فرجع إلى ابن عمر فأخبره ، فقال : قد كنت أقول مايعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن فالآن قد علمت أنه أوتى علماً ، وكان على رضى الله عنه يقول فيه : كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وابن عباس لم يدرك من عمر النبي صلى الله عليه وسلم ما أدرك غيره من نظرائه فى العلم ولكنه لازمه فيما أدركه من الزمن وعقل وفقه وجد واجتهد ، واستعاض عما فاته بملازمة أكابر الصحابة وعلمائهم مثل عمر وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت ، وكان حريصاً على العلم جداً يأخذه حيث وجده ، ويسعى إليه أنى كان ويحتمل فى سبيله من الجهد والمشقة ما يحتمل وهو يقول معبراً عن حاله فى ذلك (وجدت عامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار ، فإن كنت لآتى الرجل فأجده نائماً ، لو شئت أن يوقظ لى لأوقظ ، فاجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى يستيقظ ، واسأله عما أريد ثم انصرف) .

قال السيوطى فى الاتقان ، وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير مالا يحصى كثرة ، وفيه روايات وطرق مختلفة ، فمن جيدها طريق على بن أبى طلحة الهاشمى عنه ، وفيها يقول الإمام أحمد بن حنبل : بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً لما كان كثيراً .

وقد اعتمد البخارى على هذه الصحيفة فى صحيحه فيما علقه عن ابن عباس ونقل السيوطى عن الخليلى صاحب الارشاد أنه قال: وهذه التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية ورواتها مجاهيل . إلى أن يقول السيوطى : وأوهى طرق التفسير عن ابن عباس طريق الكلبى عن

أبي صالح عن ابن عباس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهي سلسلة الكذب .

والظاهر أنه لشهرة هذا الحبر رضى الله عنه بالعلم والفضل ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم وطول عمره وأخذه عمن أسلم من اليهود وكونه جد العباسيين الذين دُوِّن أشهر التفاسير المعروفة فى ظل خلافتهم حُمل عليه كثير ، وكثرت عنه الرواية فى التفاسير عن الذين دخلوا الإسلام من اليهود والنصارى فى قصص الأنبياء وتفسير الحوادث الماضية .

ومن شواهد تفسيره الموثوق به المشاكل لعلمه وعصره ماذكر السيوطي أنه أخرجه ابن أبي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عنه فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) الآيات قال : هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ، ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار الضوء وتركهم فى ظلمات . يقول : فى عذاب ، كصيب هو المطر ضرب مثله فى القرآن فيه ظلمات يقول: ابتلاء ورعد وبرق تخويف ، يكاد البرق يخطف أبصارهم يقول : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين فإن وجدوا فى الإسلام عزا اطمأنوا ، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر .

ومنها ماأخرجه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق ابن أبي طلحة عنه فى قوله تعالى (أنزل من السماء فسالت أودية بقدرها) الآية قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الزبد فيذهب جفاء ، وهو الشك ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض وهو اليقين ، كما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ، ويترك خبثه فى النار ، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك .

ومن شواهد ما نسب إليه ويشبه أن يكون مما حمل عليه ، وهو — كثير —

ما ذكره الأستاذ أحمد أمين فى فجر الإسلام قال : ومن أدلة الوضع أنك ترى روايتين نقلتا عن ابن عباس أحياناً وهما متناقضتان لا يصح أن تنسبا إليه جميعاً فترى فى ابن جرير مثلا عند قوله تعالى (فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا) عن معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : إنما هو مثل قال : قطعهن ثم اجعلهن فى أرباع الدنيا ، ربعا ههنا وربعاً ههنا ثم ادعهن يأتينك سعيا . وقال بعد قليل : حدثنا محمد بن سعد قال حدثنى أبى قال : حدثنى عمى قال : حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس : فصرهن إليك ، صرهن أوثقهن .

قال الأستاذ أحمد أمين : فهو يفسر صرهن مرة بقطعهن ، ومرة بأوثقهن ، ومن العسير أن نتكلف القول بأنه فسر هذا زمنا ، وفسر ذلك زمناً آخر .

ونحن نرى أنه من المجازفة التى لا تنتظم فى سلك العلم الحكم بالوضع على التفسيرين لما يرى فيهما من التنافى والتضارب ، وكانت قواعد العلم تقضى بالنظر فى سند الروايتين ما دامتا من طريقين مختلفين فترجح نسبة أوثقهما سنداً إليه وتطرح الأخرى ، ورواية قطعهما أوثق سندا لأنها عن طريق على بن أبى طلحة ، وقد وثقها البخارى والشافعى وحسبك بهما.

وإن كنا نميل من ناحية تفسير الآية وبيان معناها المناسب لسياقتها أن المفهوم من هذه السياقة أن المعنى (فصرهن إليك) ميّلهن إلى ذاتك بالاستئلاف والتحبيب والتعويد ، ثم فرقهن عنك فى أمكنة مختلفة ، ثم أدعهن بما تعودن منك من ألوان وسائل الدعاء ، فإنهن بحكم التعود القائم على التحبيب إليك يأتينك إذا سمعن دعاءك سعيا ، مسرعات فى إقبالهن شوقاً إليك واستجابة لدعائك ، فإذا وقع هذا منها إليك بما كان منك إليها ، فاعلم أن الله تعالى هو العزيز الحكيم .

ابن مسعود

أما عبد الله بن مسعود فهو من السابقين الأولين ، يقول عن نفسه : لقد رأيتنى سادس ستة ماعلى ظهر الأرض مسلم غيرنا ، وكان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب نعله وطهوره وسواكه ، يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير حجاب ، يوقظه من نومه ، ويلازمه فى بيته . روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا لا نرى عبد الله بن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول صلى الله عليه وسلم ، من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه .

كان ابن مسعود من أعلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وتفسيره يقول عن نفسه : والله الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته ، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع القرآن ، فقال لابن مسعود اقرأ على سورة النساء فقال : اقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأت عليه حتى بلغت (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)[١] فاضت عيناه صلى الله عليه وسلم .

وهكذا مضى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن محفوظ فى صدور الذين أوتوا العلم ، يفهمه كل من سمعه من الصحابة بقدر ما رزقه الله تعالى من فهم .

---

(١) سورة النساء آية (٤١) .

لا ترى جدلا فى إعرابه ولغته أن خفى عليهم معنى لفظ من ألفاظه رجعوا إلى شعر العرب وديوانهم ، روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف)[١] فسأل عن معنى التخوف فقام إليه رجل من هزيل فقال له : التخوف عندنا (التنقص) ثم أنشده شاهداً من شعر قومه :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عـودَ النبعة السفنُ

وكان الصحابة إن لم يحضرهم المعنى الخاص باللفظ لم يتكلفوا واكتفوا بالمعنى العام فى سياق الكلام ، روى أن عمر قرأ على المنبر قوله تعالى : (وفاكهة وأبا)[٢] فقال هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف ياعمر ، وفى رواية أن رجلا سأله: ماالأب؟ فقال له : نهينا عن التكلف والتعمق .

وروى أن ابن عباس قال : ماكنت أعلم ما فاطر السموات حتى اختصم إلى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول : أنا ابتدأتها .

ولما سأل رجل يقال له «صبيح» عمر عن الذاريات درواً حبسه وأدبه أدباً شديداً .

وكذلك لاترى فى هذا العصر جدلا فى معانى القرآن ومراميه . لأنهم يتلقونها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على الناس فقالوا : يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح؟ إن الشرك لظلم عظيم إنما هو الشرك .

وروى مسلم فى الصحيح عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله

---

(١) سورة النحل آية (٤٧) (٢) سورة عبس آية (٧١)

صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[١] إلا وأن القوة الرمى ثلاث مرات :

وروى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم من نوقش الحساب عذب ، قلت : أليس يقول الله (فسوف يحاسب حساباً يسيراً)[٢] قال : ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض.

وكذلك لا نرى جدلا فى أصوله وعقائده ولا جدلا فى فقهه وأحكامه ، ولا جدلا فى أخلاقه وآدابه وسياسته .

روى البخارى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود فقال له : تركت رجلا فى المسجد يفسر القرآن برأيه ، يفسر هذه الآية (يوم تأتى السماء بدخان مبين) قال : يأتى الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام . فقال ابن مسعود : من علم علماً فليقل به . ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

والقول الذى جاء فى تفسير الرجل مروى عن ابن عباس وعلى وغيرهما من الصحابة .

ولما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى واستوعب الإسلام جزيرة العرب وفاضت به على من حولها من الشعوب والأمم ، تطلب الوافدون على الإسلام من غير العرب والداخلون فى دين الله أفواجاً ممن بعدت دارهم عن مهبط الوحى الكشف عن بعض معانى القرآن التى قد خفيت عليهم لأسباب وراء مجرد فهم اللغة ومعانى الألفاظ والأسلوب.

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠)   (٢) سورة الانشقاق آية (٨)

فانتهض لذلك علماء الصحابة ، وكان من أشهرهم الذين سبق الحديث عنهم، وهم الذين غلب ذكرهم فى التفسير بالمأثور والرواية .

والناظر فيما صح عنهم نقله من التفسير بنقل الثقاة يجده لا يخرج عن دائرة التفسير النبوى قلة وإيجازاً وغرضاً يرمى إلى العبرة ومعقد الهداية .

وكان لكل واحد من علماء الصحابة تلاميذ تخصصوا به ولازموه ، وأخذوا عنه علمه وطريقته فى تفسير القرآن ، واشتهر من تلاميذ ابن عباس عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد بن جبر وهو أجلهم ثقة ، اعتمد على تفسيره الإمام الشافعى والبخارى وقد روى عنه أنه قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وكان ذلك كما يظهر لإجادة حفظه وضبط حروفه وقراءاته ، وذكر ابن تيمية فى مقدمة أصول التفسير أن مجاهداً قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه أسأله فيم نزلت ، وكيف كانت .

وهذا يدل على استيعابه لتفسير آيات القرآن ، وعلم معانيه وأحكامه ، ويقول ابن أبى مليكة : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه الواحه ، فقال ابن عباس : اكتب حتى سأله عن التفسير كله ، وروى الترمذى عن قتادة قال : قال مجاهد : ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً . ولذلك كان سفيان الثورى يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

ويمتاز مجاهد عن سائر تلاميذ ابن عباس، بل سائر أقرانه من المفسرين أنه أعطى لعقله كثيراً من الحرية ، وأدخل التفسير بالاجتهاد والرأى مبكرا فى طور التفسير بالمأثور ومن شواهده ما ذكره الطبرى عند تفسير قوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة

خاسئين) . عن مجاهد قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

ومما أخذ عليه تفسيره للمقام المحمود الذى يبعثه الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم حيث قال ـ كما رواه الطبرى ـ المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمداً معه على كرسيه . قال أبو عمر بن عبد البر : ومجاهد وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم ، أحدهما هذا والثانى فى تأويل قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) يقول: تنتظر الثواب ، لا يراه شىء من خلقه .

واشتهر من تلاميذ ابن مسعود ، علقمة بن قيس ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن زيد ، والشعبى ، والحسن البصرى ، ورواياتهم فى التفسير منثورة فى كتب التفسير وهى تدل على نهجهم فيه ، قال ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير وطاوس ، وكذلك فى الكوفة أصحاب ابن مسعود .

هذا عرض مجمل للدور الذى مر به التفسير بالمأثور قبل أن يدون فى الكتب ، ومن ذلك يتبين الفرق الشاسع بين ما دون فى الكتب من هذا التفسير وبين ما صح منه ، وقد اتخذ مادة للتوسع فى التفسير بالرواية دون تحقيق أو تمحيص ، فكان مصدراً لكثير من الأقوال التى لا توافق الأصول ولا يقرها المعقول .

أثر العلوم المستحدثة والمنقولة فى التفسير

ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية لنشر راية الهداية والعدل بين الأمم والشعوب دخل فى غمار المسلمين - تقية - كثير ممن لا يرجون لله وقارا من الموتورين والحاقدين على الإسلام من اليهود والمنافقين ، والزنادقة ، ليفسدوا على المسلمين تدينهم ويشككوهم فى إسلامهم عن طريق الأكاذيب والأساطير والخرافات والقصص الزائف ، بعد أن عجزوا عن مواجهته بالحجة والمنطق المعقول ، وبعد أن عجزوا أيضاً عن مواجهته بقوة السلاح فى ميادين الجهاد ، واتخذوا من تفسير القرآن مادة لأغراضهم ووسيلة خفية لأهدافهم الخبيثة وحملوا إليه من موروثاتهم فى عقائدهم وأقاصيصهم بلايا من الأكاذيب والترهات التى قبلها بعض ذوى البله والغفلة من المنتسبين للعلم من المسلمين الذين ربما لا يتهمون فى إخلاصهم والتى دسها عليهم عمداً بعض الملاحدة ، حتى ضاعت كثرة الحقائق فى غمرة الأساطير .

وكان من آثار دخول الأعاجم فى الإسلام ، وظهور اللحن فى القرآن أن ظهر إلى جانب ذلك قوم من أهل اللغة والأدب ، شغفوا بالإعراب واتخذوا من نصوص القرآن وآياته مادة لإظهار براعتهم فى علوم اللغة وفنون الأدب ، وراحوا يعقدون مجالس الإملاء فى توجيه آيات من القرآن جاءت على غير السنن الذى يعرفونه من قواعدهم التى قعدوها ، وغفلوا عن النظر البلاغى الذى اقتضى مجىء الآيات كما أنزل الله تعالى كقوله (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنــون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما[1]) وكقوله تعالى (إن الذين آمنوا

---

(١) النساء آية (١٦٢) .

والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون[1]) .

ثم أخذ فريق منهم يؤلفون الكتب والدواوين فى إعراب القرآن آية آية ، وكلمة كلمة ، ويكثرون من الشواهد شعرا ونثرا على مايذكرون من وجوه فى الإعراب ، أو لهجات عن بعض قبائل العرب ، واتسعوا فى فى ذكر وجوه الأعاريب ، وتفننوا فى التخريج تعالما باللغة وأساليبها ، وقد اضطر بعضهم إلى أن يصطنع شواهد من الشعر لم ينطق بها العرب ولا عرفوها ، ولكنها العصبية المذهبية هى التى حملتهم على هذا الباطل ، واختلفوا إلى مدارس ، لكل مدرسة مذهب فى النحو والتصريف وفقه اللغة ولا تزال الكتب الدراسية تحمل الخلاف العريض بين مدرستى الكوفة والبصرة .

وقد زاد من حدة هذا الخلاف التنافسُ على الدنيا والتقرب من أهلها فى دواوين الحكم وقصور الخلافة،وكان بعض الخلفاء يزكى نار هذا الخلاف ويختص بعض الأدباء والنحويين بالزلفى ويسند إليهم مناصب التدريس والتأديب فى قصور الخلافة ، ويثير بين المتنافسين من علماء مدرستى الكوفة والبصرة المسائل الخلافية كالذى قيل إنه وقع بين الكسائى زعيم نحوى الكوفة وسيبويه أمام البصرة فى مسألة العقرب والزنبور المشهورة ، وقد قيل أن أنصار الكسائى استنطقوا بعض الأعراب أن ينطق بما يوافق رأيهم وينتصر لصاحبهم .

وإذا تجاوزنا هذا الجانب مما أتخمت به بعض كتب تفسير القرآن التى نزعت فى طريقتها إلى الجانب اللغوى الأعرابى ، وجدنا إلى جانبه منزعا

---

(١) سورة المائدة آية (٦٩)

آخر يتصل به من قريب ، ذلك هو جانب البحث البلاغى فى القرآن لتبيين إعجازه وعلو طبقته فى البلاغة والبيان وهذا الجانب وإن كان لم يستكمل المدى المطلوب منه ولم يف بالغرض الذى أنشىء له - لأن السرعة التى كتب بها حصرته فى دائرة ضيقة من القواعد الخاصة ، والضوابط المصطنعة والتعاريف المتكلفة ، والتفريعات المتكاثرة ، وقعدت به دون أن يبلغ الغرض الذى كان ينبغى أن يبلغه وما هو ببالغه إلا أنه شغل العلماء ببحوث لفظية لا تغنى فى العلم شيئا .

بيد أن هذا اللون من البحث البلاغى - مع أنه لم يؤد إلى الهدف الذى قصد به - أحدث لونا من الخلاف فى بيان إعجاز القرآن - وظهر لمنافسته القول بالإعجاز بالصرفة وهو قول مال إليه أكثر المتكلمين ، وأسنده القاضى عياض إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى وجماعة من أصحابه ، وجنح إليه الفخر الرازى فى مواضع من تفسيره ، وفى كتابه « نهاية الإيجاز » الذى لخص به كتابى عبد القاهر (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) ورتبهما كما شاء انتهى إلى أن إعجاز القرآن فى فصاحته وقد حاول إبطال كل وجه غير هذا الوجه .

والرازى مضطرب الرأى جدا فى وجه إعجاز القرآن فى تفسيره وسائر مؤلفاته التى يعرض فيها لهذا الموضوع .

وقد صور مذهب الصرفة فى كتابه (نهاية الإيجاز) ونسبه إلى إبراهيم النظام أحد شيوخ المعتزلة فقال : قال النظام : إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به .

وقد أدى هذا الخلاف إلى أن يزدحم المختلفون فى ساحة القرآن ، يتجادلون ويتدافعون ، ودخل هذا الجدل العقيم فى تفسير القرآن ، وكون جانبا منه قامت عليه كثرة من الكتب والمؤلفات ، وصرف كثيرا من المفسرين عن العناية بجانب الهداية العلمية والمعنوية فى القرآن .

ولعل أظهر مثل لذلك بين أيدينا هو كشاف الزمخشرى الذى يشبه أن يكون قد قصره على غرضين اثنين ، الغرض الأول منهما هو تبيين مافى آيات القران من سمو فى التعبير وفوق فى البيان وعلو فى البلاغة والفصاحة ، بما جاء فيه من بارع التمثيل ، ودقيق الاستعارة ، ولطيف الكناية .

والغرض الثانى هو نصر مذهب المعتزلة بأخضره ويابسه وعجره وبجره ، وحمل أيات القران قسرا على أن تنهض حجة لمزاعمه ، وهذا الاتجاه دعا بعض العلماء إلى أن يشمر للرد عليه ، مما زهد الكثيرين فى النظر فيه والإفادة بنقى عبارته عن مقاصد القرآن ، مما فتح باب الجدل فى المسائل الكلامية وجعل القرآن ميدانا لها ، تحمل آياته عليها حملا ، وتنزل فى فهمها على ما تقتضيه مسائلهم وقواعدهم حتى أن الناظر فى تلك الكتب يظن أن القرآن الكريم كتاب من كتب فلسفة الكلام نزل ليفتح ميدانا للجدل وليس كتاب هداية نزل ليبعث اليقين والسكينة فى القلوب .

وفى ذلك يقول الإمام بن تيمية فى رسالته أصول التفسير :

فالذين أخطئوا فى الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذى عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم ، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه ، وهذا كالمعتزلة فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدلا ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، مثل

تفسير عبد الرحمن بن كيسان وتفسير الجبائى ، وتفسير القاضى عبدالجبار ، وتفسير الرومانى ، والكشاف لأبى القاسم الزمخشرى ، فهؤلاء اعتقدوا مذاهب المعتزلة وأصولهم الخمسة التى هى التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ثم قال ابن تيمية : والمقصود إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن أما دليلا على قولهم ، أو جواباً على المعارض لهم ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ، ويدس البدع فى كلامه وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه حتى أنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم ما شاء الله .

وقال ابن قتيبة فى الرد على المعتزلة ومن سلك مسلكهم من المتكلمين فى حمل آيات القرآن على مذاهبهم : وفسروا القران بأعجب تفسير ، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم ، فقال فريق منهم فى قوله تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) أى علمه ، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف ، وهو قول الشاعر : ولا يكرسيء علم الله مخلوق : كأنه عندهم ، ولا يعلم علم الله مخلوق يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسياً . . . وقالوا فى قوله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) أى فقيراً إلى رحمته وجعلوه من الخلة استيحاشاً من أن يكون الله تعالى خليلا لأحد من خلقه . . . فأى فضيلة فى هذا لإبراهيم ؟ أما تعلمون أن الناس كلهم

فقراء إليه ، وهل إبراهيم فى خليل الله إلا كما قيل : موسى كليم الله ! وعيسى روح الله ؟ .

* * *

ولما تسللت العلوم المترجمة والفلسفات الأجنبية عن الإسلام بأصولها وعقائد أهلها إلى ساحة الإسلام أسرع إليها أقوام ، واعتنقوا مبادئها ، وتوغلوا فى دراستها ، وكأن أعقلهم وأذكاهم من جعل نفسه عبداً لآراء أرسطو يتعبد بها وينافح عنها وينشر أصولها ، وأدخلوها فى تفسير القران ، يحتجون بها له ، ويدافعون بمنطقها عنه ، وهو فى غنية عنها وعن منطقها ، لأن له منطقاً هو منطق الفطرة ، ويحتجون به لها ليقربوها إلى العقول ، ويخدعوا عامة المسلمين ببريقها ، وقد يعتسفون الرأى اعتسافاً لا يتمشى مع سماحة البيان القرآنى ، واتخذوا من آيات العقائد وبيان دلائل القدرة الآلهية ، وعظمة ملك الله ميداناً لا وسع خلاف وأشد جدل يذهب بنضارة الهداية القرانية فى تعاريج الجدل المنطقى الجاف .

ومن هذا الباب : « باب الفلسفة الأجنبية » دخل طوائف الباطنية من القرامطة والروافض الذين حرفوا آيات الله عن مواضعها ، فحملوا على كتاب الله فى تفسيره غثاء من الرأى الخبيث التافه لا تساوى ضرطة عير ولا عفطة عنز ، وإنما أملاها على قائليها حقد أبله وجهل بليد ، كقولهم فى قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) هى عائشة أم المؤمنين وكقولهم فى قوله تعالى : (قاتلوا أئمة الكفر) هم طلحة والزبير ، وكقولهم فى قوله عز شأنه : (مرج البحرين) على وفاطمة ، من أمثال هذه الترهات التى لا يعقلها إلا المبرسمون كما نقل عن أبى مسلم الأصفهانى أنه قال : رأيت فى بعض التفاسير ، قول من قال فى (حمعسق) إن الحاء حرب على

ومعاوية ، والميم ولاية المروانية ، والعين ولاية العباسية ، والسين ولاية السفيانية ، والقاف قدوة المهدى ، قال أبو مسلم : وإنما حكيت ذلك لأنى أردت أن يعلم أن فيمن يدعى العلم حمق .

وقد خدع بهذا النوع من الخرافات السخيفة قوم من أهل السلامة من المتصوفة ، فذكروا منها الكثير وحسبوه تفسيراً ، قال ابن الصلاح فى الفتاوى : وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر رحمه الله تعالى أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر ، قال ابن الصلاح : وأنا أقول الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة فى القران العظيم ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القران فإن النظير يذكر بالنظير ، ومن ذلك قتال النفس فى قوله تعالى (يا أيها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)(١) فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار ، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس .

وذكر السيوطى فى الاتقان عن ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه المنن قال : أعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ، ودلت عليه فى عرف اللسان ، وثم افهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء فى الحديث : (ولكل آية ظهر وبطن) فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذوجدل ومعارضة . هذه إحالة لكلام الله وكلام رسوله ، فليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا وهم لا يقولون ذلك

---

(١) سورة التوبة آية (١٢٣)

بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم .

وكلام هذين الإمامين — ابن الصلاح وابن عطاء الله وهما من أئمة أهل العلم — من أحسن ما يمكن به تخريج ما يوثق بنسبته إلى من عرف من هؤلاء السادة بالإمامة فى علوم الشريعة كالرعيل الأول منهم مثل الحسن البصرى والمحاسبي والجنيد والتسترى والشبلى والخراز إلى أمثال أبى الحسن الشاذلى وعبد القادر الجيلانى من الذين عصمهم العلم بالشريعة عن الإنزلاق عن المضايق وكل كلام ينسب إليهم يجب أن يوزن بميزان الشريعة فإن وافق نصوصها قبلناه واقتدينا بهم فى العمل به وإن خالف نصاً مجمعاً عليه توقفنا فى نسبته إليهم ، أو فى فهمه عنهم حتى يفتح الله بما يشاء ؛ إحساناً للظن بهم .

ومن أقرب تفاسير السادة الصوفية إلى القبول وصحة التوجيه تفسير أبى محمد سهل بن عبد الله التسترى من زهاد القرن الثالث وأئمته يقول فى مقدمته (ما من آية فى القران إلا ولها أربعة معان ظاهر وباطن ، وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، والحد حلالها وحرامها ، والمطلع إشراق القلب على المراد بها فقهاً من الله عز وجل فالعلم الظاهر علم عام ، والفهم لباطنه ، والمراد به خاص) .

ومن شواهده قوله فيما يفهم من قول الله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حيلهم عجلا جسدا له خوار)[1] عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد ، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه ، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس .

فهو لا يقصد إلى تفسير الآية وبيان أن هذا معناها الشرعى ، وإنما

---

(١) سورة الاعراف آية (١٤٨) .

يقصد إلى بيان مايفهمه القلب المشرق بأنوار الإخلاص فى عبوديته لله تعالى تعالى وحده ، من لوازم تفسيرها .

فهذا كلام مقبول ، لأن المراد من عجل كل إنسان معبود كل إنسان ، وعجل بنى إسرائيل معبودهم الذى اتخذوه إلها من دون الله ، وكل ما أقبل عليه الإنسان بكليته وقطعه عن الله تعالى وشغله عن القيام بواجب عبوديته له فهو إلهه مجازا وفى السنة « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة » وفى القرآن الكريم (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) وحق ما قال أبو محمد رضى الله عنه : أن الإنسان لا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه الصارفة له عن التوجه بالخدمة إلى الله تعالى ، والتخلص من حظوظ الأسباب قتل للنفس مجازا لأنه إماتة لها عن تطلب الحظوظ ، فلا بعد فى استخراج التسترى ما استخرجه من الآية على أنه ليس معناها الذى يؤدى إليه الكلام ، ولكن على أنه إرشاد توجه إليه الآية بفحوى هدايتها ، ومن هذا القبيل ما ذكره السلمى فى حقائق التفسير منسوبا إلى ابن عطا الله فى قوله تعالى : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون)[1] قال : القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ والإعتبار والموعظة ، وأخرجنا منها حبا ، معرفة صافية تضىء أنوارها على الظاهر والباطن ، فهذا ليس تفسيرا للآية على أنه معناها المراد من ألفاظها وجملها وإنما هو معنى يستخرج من لوازم التفسير .

ولا حرج على فضل الله فى تفهيمه بعض عباده أفهاما يستنبطها من وراء فهمه لتفسير آيات الله . وقد يستأنس لذلك بما نقلناه عن ابن عباس فى تفسير سورة : (إذا جاء نصر الله) بمجلس عمر بن الخطاب ومشهد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتأمل قول التسترى فى قوله تعالى (الذى خلقنى فهو يهدين)[1]

---

(١) سورة يس آية (٣٣).

الذى خلقنى لعبوديته يهدينى إلى قربه فإنك ترى نسمات التوفيق والرشاد تهب من آفاقه ، فالذى خلقنى لعبوديته هو صريح قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(١) وقوله يهدينى لقربة ، هو من قوله تعالى (واسجد واقترب) ثم تأمل قوله فى قوله تعالى (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين)(٢) . أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ولم يحكم عليه بالمغفرة .

هذا كلام يشعر بقوة الأدب مع الله تملأ قلب قائله ، وروح الخشية تسرى بين جوانحه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

ولا نريد أن نعرج على ماينسب إلى بعض هؤلاء السادة من أقوال فى تفسير القرآن يسودها الغموض والإبهام ، وكثير من ظواهرها يشم منه رائحة الإلحاد والكفر الباطنى الخبيث ، وأكثر مايظهر ذلك فى التفسير المنسوب إلى ابن عربى الحاتمى ، والناس مختلفون أشد الاختلاف فى نسبته إليه والمحققون على أنه أو الكثير منه مكذوب عليه ، وقد قطع صاحب المنار بأن هذا التفسير من تأليف القاشانى الباطنى .

ونكتفى بذكر مثل واحد من هذا التفسير المنسوب إلى ابن عربى فى الفتوحات .

ولهذا الشيخ كلام فى الفتوحات ـ وهو كتاب محقق النسبة إليه فى جملته لا فى تفصيله فقد قال الشعرانى رحمه الله إن فيه كثيراً مما دس على الشيخ ، والله عليم بحقيقة حاله ـ يفسر به بعض الآيات تفسيراً يقلب قواعد الشريعة رأساً على عقب ، والله تعالى لم يطلب من عباده إلغاء عقولهم ليصلوا إلى مقاصد من يرمى بالقول على حسب مايكنه فى ضميره .

وكيف يمكن فهم ماينسب إلى الشيخ فى الفتوحات تفسيراً لقوله تعالى

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦) . (٢) سورة الشعراء آية (٨٢) .

(ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)[١] .

تقول الفتوحات فى تفسيرها : يا محمد إن الذين كفروا ستروا محبتهم فى" دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك فإنهم لا يعقلون غيرى ، وأنت تنــــذرهم بخلق وهم ماعقلوه ولا شاهدوه وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيرى ، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاما فى العالم إلا منى ، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى ، فلا يبصرون سواى ولهم عذاب عظيم عندى ، أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك وأحجبهم عنى كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قرباً . أنزلتك إلى من يكذبك ويرد ماجئت إليه منى فى وجهك . . الخ

أفكان أبو جهل وحزبه من رؤوس الكفر الفاجر ممن يحبون الله محبة ستروها وكانوا مستغرقين فى الله لا يعقلون غيره ولا يفهمون عن رسوله ، وكانت قلوبهم معمورة بالله فلم تتسع لغيره ولا يسمعون كلاماً إلا منه سبحانه ، وعلى أبصارهم غشاوة من بهاء الله فلا يبصرون سواه ؟ .

هذا كلام يهدم الشريعة ويرد رسالات الرسل ويدعو إلى الكفر والإلحاد بصورة بشعة ونحن ننزه عامة المسلمين بله علماءهم عن صدور هذه الكفريات الإلحادية من أقلامهم وأقل درجات نشر هذا الكلام وأمثاله بين العامة والخاصة فى سوء العواقب أنه فتنة للعقول وإفساد للقلوب ، والحديث الذى يرويه البخارى عن على رضى الله عنه وكرم وجهه يقول: حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله:؟

---

(١) سورة البقرة آية ٦ ، ٧ .

هل هناك دعوة لتكذيب الله ورسوله من شر القول بأن أكفر الكافرين والعن الملعونين مستغرقون فى محبة الله لايعقلون غيره ولايسمعون إلا منه ، ونحن نرد هذا الباطل الفاجر ، ولا نجزم بنسبته إلى شخص معين ، والله تعالى هو المتولى لسرائر الناس بعلمه .

* * *

وهكذا صور لاتنتهى عند حصر ، اتخم بها تفسير القرآن ووقف عندها ولم يتجاوزها إلى تفصيل هدايته العلمية ودلائله الفكرية وبراهينه الكونية ، والهداية فى القرآن هى أصل أصوله ، ومعقد مقاصده ، وأهم أغراضه ، يجب أن تتوجه إليها العزائم ، وتقصد إليها الهمم بأساليب تستجيب إلى نداء العلم والمعرفة فى هذا العصر وفيما يستقبل من زمن الحياة والناس ، بما لايخالف الأصول الإسلامية التى جاء بها القرآن الحكيم وبينتها السنة المطهرة وأجمعت عليها الأمة .

وقد عرض الإمام جلال الدين السيوطى صورة للألوان التفسيرية التى ظهرت فى المؤلفات وكتب التفاسير واستغرقت حياة المسلمين إلى عصره فى القرن التاسع الهجرى فقال : ثم ألف فى التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من يسنح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شىء يعتمده ثم ينقل ذلك عنه من يجىء بعده ظانا أن له أصلا غير ملتفت إلى تحرير ماورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليه فى التفسير ، حتى رأيت من حكى فى تفسير قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) نحو عشرة أقوال ، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم حتى قال ابن أبى حاتم :

لا أعلم فى ذلك اختلافاً بين المفسرين ، ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا فى علوم فكان كل منهم يقتصر فى تفسيره على الفن الذى يغلب عليه .

فالنحوى تراه ليس له هم إلا الإعراب ، وتكسير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر والنهر ، والإخبارى ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها ، والأخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبى .

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية ، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبى .

وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين الرازى . فقد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها ، وخرج من شىء إلى شىء يقضى الناظر فيه العجب من عدم مطابقة المورد للآية . قال أبو حيان فى البحر : جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء : تفسير الرازى فيه كل شىء إلا التفسير .

ونحن قبل أن نسترسل فى نقل كلام السيوطى نقول لأبى حيان بشهادة السيوطى : رمتنى بدائها وانسلت ، لأن كثيراً مما ذكره الإمام الرازى مفيد جداً فى موضعه ، وهو أحد المفسرين القلائل الذين مسوا الآيات الكونية بالنظر بما كان عنده من معارف عصره ، وقد يكون من الحق أنه أغرق وبالغ فى الاستطراد فى بعض المواضع ، وأكثر من الحديث عن العرض والجوهر للاستدلال بحدوثها على وجود الخالق

تفسيراً لبعض الآيات كما أكثر من اللجاج مع المعتزلة يثير شبههم ويرد عليها بعد أن يستفرغ جهده في تقرير مذهبهم وهذا مما عيب عليه ، وأما أبو حيان فقد حشى كتابيه البحر والنهر بمسائل من النحو وتفريعاته وعلله لاحاجة لها مطلقاً فى تفسير القرآن سوى أنها تشتت الفكر وتغطى معانى الآيات بغشاوة من الخلافات النحوية لاطائل تحتها .

ثم قال السيوطى والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه ، قال البلقينى : استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش ، من قوله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) حيث قال . وأى فوز أعظم من دخول الجنة ، أشار به إلى عدم الرؤية .

والملحد فلا تسأل عن كفره وإلحاده فى آيات الله وافترائه على الله مالم يقله ، كقول بعضهم فى قوله تعالى : (إن هى إلا فتنتك) ماعلى العباد أضر من ربهم ، قال صاحب كشف الظنون : وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب أبى طالب المكى .

وهنا جانب للتأمل يرينا كيف أن القرآن الكريم نجعل مصيدة للمذاهب والآراء ، وتصيدها من ثنايا أقوال أصحابها مع خفائها ، وليت الزمخشرى أخلص كشافه للتفسير البيانى على نهجه وطريقته فى بيان البراعة البيانية التى يتجلى فيها أسلوب القرآن ، وترك الجدل العقيم لمذهبه فى الاعتزال .

وفى الحق أن جار الله كان بنهجه البيانى إماماً من أئمة الفصاحة وجودة التعبير عن بلاغة القرآن حتى تأسى به كل من جاء بعده من صنعة التفسير ،

فكلهم وردوا حياضه ، واستقوا من كوثره ، ونهلوا من منابعه ودرجوا في مدارج البيان معتمدين على بيانه ، يقتبسون ألفاظه وعباراته ، ويحلون عرائس تفسيرهم بحلى تفسيره ، ويزينون معاصم جملهم بأساور من أبريز جمله ، ولكنها العصبية المذهبية دفعت به إلى أن يخلط هذه الروعة البيانية بما أصدأ مرآتها فجاءت صورته فيها كما قال الإمام ابن تيمية في المقدمة : ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه حتى يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ماشاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم مايوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك .

* * *

وتصوير السيوطي في عرضه للتفاسير المؤلفة منذ أول عصور التدوين والتأليف — لا يستثنى منها سوى تفسير الطبرى ، لأنه أجل التفاسير وأعظمها ، لأن صاحبه أبا جعفر تعرض فيه إلى جانب الإسناد عن الصحابة والتابعين لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض — يوجب أن نتساءل ماذا كان موقف السيوطي من هذا التصوير وهو من أكبر المفسرين في عصره وأكثرهم إنتاجا في التأليف ؟ هل استفاد من ذلك شيئا تفادى به المؤاخذات التي أخذها على أولئك المفسرين من حشد المذاهب والآراء والعلوم ومسائلها مما يتصل أو لا يتصل بتفسير القرآن ؟ .

سندع السيوطي نفسه يجيب عن هذا التساؤل ، وهو يقول في ذلك : وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة والأقوال المقولة والاستنباطات والإشارات والأعاريب واللغات ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث لا يحتاج معه إلى غيره وسميته (مجمع البحرين

ومطلع البدرين) وجعلت كتاب (الاتقان فى علوم القرآن) مقدمة لهذا التفسير .

ترى هل صنع السيوطى رحمه الله شيئا ؟ نعم أفادنا أنه ألف دائرة معارف عربية إسلامية تجمع فنوناً من اللغة والأدب والعقائد والروايات الحديثية وأقوال العلماء ومذاهبهم فى وجوه الأعراب واستنباط الأحكام ونكت البلاغة ومحاسن البديع تحت عنوان تفسير القرآن .

ونحن وإن كنا لم يتح لنا أن نطلع على هذا الكتاب الذى لا نسميه تفسيراً ، ولكنا نصر على تسميته دائرة معارف إسلامية عربية إن كان قد وفى السيوطى بشرطه فيه ، فليس ذلك من موجبات الأسف عندنا على فائت لا ينال ، لأن السيوطى رحمه الله دلنا فى صدق وإخلاص على أصول كتابه ، وهى مبثوثة فى الكتب والمكاتب الإسلامية ، فمن أرادها فهى منه على طرف الثمام كما يقول الأدباء .

وهذا اللون من دوائر المعارف من تفريعات الفنون كثير جداً فى المكتبات العربية الإسلامية وكان للسيوطى فضل توجيهنا إلى فهم ما اشتملت عليه كتب الطبقات والفهارس من وصف بعض الكتب بأنها تقع فى عشرات المجلدات مما قد تجاوز المائة مجلد وبعضها المئات ، وقد كنا نقرأ هذا الكلام فنقف منه موقف الحائر المتشكك ، ولكن صنيع السيوطى كان مفتاحاً لفهمنا له على نحو ما أخذ به نفسه فى تفسيرة الجامع لأشتات العلوم والمعارف .

من ذلك ما ذكره المقريزى أن الإمام أبا الحسن الأشعرى ألف تفسيرا فى سبعين مجلدا ويزعم ابن عربى أنه فى خمسمائة مجلد ، ويقول العسكرى فى « تبيين كذب المفترى » مبيناً منهج الإمام فى هذا التفسير . إن أبا الحسن

كتب كتاباً فى التفسير يسمى (المختزن) لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق .

ومن ذلك تفسير ابن النقيب المسمى بالتحرير والتحبير قال فى (كشف الظنون) أنه فى نيف وخمسين مجلدا ، وقال بعض العلماء أنه فى مائة سفر .

ومن ذلك التفسير المنسوب إلى عبد السلام بن محمد بن يوسف القزوينى المعتزلى تلميذ القاضى عبد الجبار قال صاحب (كشف الظنون) : يقال أنه أزيد من ثلثمائة مجلد ، وقال غيره أنه فى خمسمائة مجلد ، ويقول عنه ابن النجار : حشد فيه من العجائب حتى رأيت منه مجلدا فى آية واحدة ، هى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان)[1] .

ومن ذلك ما ذكره — بلدينا — كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوى فى كتابه (الطالع السعيد) فى ترجمة الامام أبى بكر محمد بن على المقرىء الادفوى إذ يقول بعد أن نقل قول أبى الحسن القفطى فى أن لأبى بكر الادفوى تصانيف فى التفسير والقراءة واللغه والنحو وغير ذلك ، وأنا — صاحب الطالع — قد وقفت على كتابه المسمى «بالاستغناء» فى التفسير فى مجلدات كثيرة ، رأيت منها من نسخة عشرين مجلداً ويقال أنه فى مائة مجلد أو ما يقاربها .

ويقول صاحب (كشف الظنون) : تفسير الأدفوى ، محمد بن على ابن أحمـــد المقرىء النحوى المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة المسمى (بالاستغنا) فى علم القرآن مائة وعشرون مجلدا صنفه فى اثنتى عشرة سنة .

---

(١) سورة البقرة اية (١٠٢) .

ومنهج السيوطى فى كتابه « مجمع البحرين » يسهل علينا ما روى عن الإمام أبى جعفر الطبرى أنه حينما أراد أن يملى تفسيره قال لأصحابه أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه ، فاختصره لهم فى ثلاثة آلاف ورقة ، فكان المختصر هو هذا التفسير الذى بين أيدى الناس ، وهو — على ذلك — أضخم ما أخرجته المطبعة من كتب التفسير كما أنه أفخمها وأعلاها منزلة ، يقول عنه الإمام ابن تيمية فى المقدمة : أنه من أجل التفاسير وأعظمها قدراً . ويقول عنه الإمام النووى فى التهذيب : كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله . ويقول السيوطى : وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ، وإليه أرشد حيث يقول : فإن قلت : فأى التفاسير ترشد إليه ، وتأمر الناظر بالتعويل عليه ؟ قلت : تفسير الإمام أبى جعفر الطبرى الذى أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف مثله فى التفسير .

ويقول الإمام القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى المالكى فى كتابه « أحكام القرآن » من أجل من فسر القرآن الطبرى شيخ الدين فجاء فيه بالعجب العجاب ، ونثر فيه لباب الألباب وفتح فيه لكل من جاء بعده إلى معارفه الباب ، فكل أحد غرف منه على قدر أنائه ، وما نقصت قطرة من مائه .

يقول الإمام الطبرى فى خطبة كتابه العظيم (فإن من جسيم ما خص الله به أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة وحباهم به من الكرامة السنية ، حفظه ما حفظ عليهم — جل ذكره وتقدست أسماؤه — من وحيه وتنزيله ، الذى جعله على حقيقة نبوة نبيهم صلى الله عليه وسلم دلالة ، وعلى ما خصه به من الكرامة علامة واضحة وحجة بالغة أبانه به من كل كاذب ومفتر ، وفصل به بينهم

وبين كل جاحد وملحد ، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك ، الذى لو اجتمع جميع من بين أقطارها من جنها وأنسها ، وصغيرها وكبيرها على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .....) إلى أن يقول مبتهلا إلى الله تعالى مبيناً لمنهجه بذكر رؤوس المسائل التى عول عليها فى تفسيره : « اللهم فوفقنا لإصابة صواب القول من محكمه ومتشابهه ، وحلاله وحرامه ، وعامه وخاصه ، ومجمله ومفسره ، وناسخه ومنسوخه ، وظاهره وباطنه ، وتأويل آيه ، وتفسير مشكله » .... إلى أن يقول ونحن فى شرح تأويله وبيان ما فيه من معان ـ منشئون إنشاء الله ذلك ـ كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً ، ومن سائر الكتب غيره فى ذلك كافياً ، ومخبرون فى كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم ، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك ، بأوجز ما أمكن من الإيجاز فى ذلك وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه) .

ولنتصور مع أبى جعفر الطبرى ـ رحمه الله ـ أن تفسيره الموجود بين أيدى العلماء هو أوجز ما أمكنه من الإيجاز ، وأخصر ما أمكنه من الاختصار ، وهو ـ على ذلك ـ عشر ما كان يزمع أن يمليـه على أصحابه وتلاميذه فى ثلاثين ألف ورقة ، فماذا يكون الحال لو أن أصحابه نشطوا لقبول عرضه الأول ، وأطلق أبو جعفر لقلمه العنان وأورد ما كان يريد أن يمليه ؟ .

وهل يمكن أن نتصور نوع البحوث والأفكار والمعانى التى كان تفسير أبى جعفر يبلغ بها عشرة أمثال ما هو بأيدى العلماء ؟ والتى أعرض عنها الطبرى رحمة بأصحابه ؟ أكانت تلك البحوث مجرد روايات وأسانيد مختلفة الطرق المعانى التى ذكرها فى هذا التفسير الموجز بأمكن ما يمكن من الإيجاز ؟

أم كانت بحوثاً فى معانى الآيات وتبيين هـــداية القرآن لإصابة صواب القول فى فنون القرآن وعلومه التى ذكرها أبو جعفر فى خطبته والتى طواها ولم يذكرها بأوسع وأعمق مما ذكره فى هذا التفسير الذى هو أخصر ما أمكن من الاختصار؟

وفضل الطبرى وغزارة علمه وإحاطته بثقافة عصره مع البصيرة النافذة لا يبعد الاحتمال بأن الطبرى كان عنده فى خزائن تفكيره علوم ومعارف فى هداية القرآن وفنونه احتبسها لنفسه ، لأنه لم يجد من ينشط لحملها عنه وليته فعل؟

وما رأيناه فى استكثار أبى جعفر فى تفسيره الموجود من الروايات للمعنى الواحد بطرق مختلفة وأسانيد متعددة لا يبعد الاحتمال بأن كثيراً مما اختزنه الطبرى كان من نوع تلك الروايات والأسانيد المتعددة للمعنى الواحد فى الآية من نوع ما ذكره فى مواضع من تفسيره وكان لهـا أكبر الأثر فى تضخم الكتاب والصد عن دراسته تهيباً له واستطالة لمـا فيه من الأسانيد التى رغب الناس عنها اتكالا على وجودها فى كتبها الخاصة ، والطبرى يذكر هذه الروايات تأييداً لرأيه وفهمه وتفكيره استقلالا دون تقليد لأحد من المفسرين الذين سبقوه ، لأن الطبرى لا ينازع أحد فى أمامته وفضله وهو — على ذلك — يؤثر أن يؤثر عن السلف رأياً بموافقة رأيه ويتأييد به فهمه .

* * *

وهناك منهج آخر غير منهج الطبرى فى تطويل كتب التفسير ، تكثر به المسائل وتزدحم به المؤلفات دون أن يكون لها كبير صلة بتفسير آيات القرآن ، وهذا المنهج ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى مقدمة تفسيره

إذ يقول : أعلم أنه مر على لسانى فى بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة ـ الفاتحة ـ يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغى والعناد وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعانى ، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمبانى ، فلما شرعت فى تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول ، فنقول ـ وبالله التوفيق :

إن قولنا (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لاشك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات ولا شك أن المنهيات : أما أن تكون من باب الاعتقاد أو من باب أعمال الجوارح ، أما الاعتقادات فقد جاء فى الخبر المشهور قوله صلى الله عليه وسلم «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة : كلهم فى النار إلا فرقة واحدة » وهذا يدل على أن الاثنتين والسبعين موصوفون بالعقائد الفاسدة ، والمذاهب الباطلة ، ثم إن ضلال كل واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسئلة واحدة ، بل هو حاصل فى مسائل كثيرة من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته ، وبأحكامه ، وبأفعاله ، وبأسمائه ، وبمسائل الجبر ، والقدر ، والتعديل والتجوير ، والثواب والمعاد ، والوعد والوعيد ، والأسماء والأحكام والإمامة ، فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة ـ وهو الاثنتان والسبعون ـ على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغاً عظيما وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة من فرق الأمة ، وأيضا فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة تقربون من سبعمائة ، فإذا ضمت أنواع ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات والموجودة فى فرق الأمة فى جميع المسائل العقلية المتعلقة بالآلهيات ، المتعلقة بأحكام الذوات والصفات ، بلغ المجموع مبلغا عظيما فى العدد ،

ولا شك أن قولنا (أعوذ بالله) يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع، والاستعاذة من الشيء لاتمكن إلا بعد معرفة المستعاذ منه ، وإلا بعد معرفة كون ذلك الشيء باطلا وقبيحاً فظهر بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية اليقينية .

وأما الأعمال الباطلة فهي عبارة عن كل ما ورد النهي عنه : إما فى القرآن ، أو فى الأخبار المتواترة ، أو فى أخبار الآحاد أو فى إجماع الأمة أو فى القياسات الصحيحة ولا شك أن تلك المنهيات تزيد على الألوف ، وقولنا (أعوذ بالله) متناول لجميعها وجملتها ، فثبت بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل : من المسائل المهمة المعتبرة . أ هـ

وهذه طريقة عجيبة ومنهج غريب فى التوصل إلى تضخيم الكتب وتطويلها ، تكشف لنا ما كان يسود بعض العصور من تنافس فى استخراج المسائل واستنباط القضايا العلمية من العبارات التى لاتدل عليها ولا تقصد للدلالة عليها إلا من أبعد الاحتمالات التعسفية وفى غمار هذا التكديس والاستطراد فى المناسبات والخروج من موضوع إلى موضوع آخر تضيع الإشارات العابرة التى قد تنبه على مواطن الهداية القرآنية فى آيات القرآن العظيم .

وعلى ضوء هذا المنهج الذى اعتمد عليه الإمام الرازى فى تفسيره نستطيع أن نفهم مسلك المفسرين العقليين الذين لم تصل إلينا كتبهم ، ولكننا عرفنا سبيلها ، ومنهجها عن طريق الفهارس والطبقات التى تحدثت عن تلك الكتب حديث المعجب بكثرة مافيها من العلوم والآراء والمسائل التي طالت بها طولا أخرجها عن منهج التفسير المبين لهداية القرآن ،

سواء أكانت تلك الكتب الموغلة فى الطول لمؤلفين من أهل السنة كتفسير الإمام أبى الحسن الأشعرى أم كانت من وضع المعتزلة كتفسير أبى يوسف القزوينى تلميذ القاضى عبد الجبار شيخ المعتزلة فى عصره .

وطريقة الإمام الرازى التى أراد أن يبرهن بها على أن فاتحة الكتاب تتضمن ألوف المسائل والفوائد طريقة أشبه ماتكون بالعمليات الحسابية لايهش لها العلم ولا سيما فى تفسير القرآن الكريم الذى أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وهى طريقة يمكن لكل عالم أو متعلم أراد أن يقتل فراغ وقته أن يعمد إليها ويجريها فى كلام آحاد الناس ، بله القرآن العظيم .

فلو قال قائل — على طريقة الرازى — إن قولنا (الحمد لله) يمكن أن يستنبط منه ألوف الألوف من المسائل والفوائد لما أبعد الشقة فى طريق الإمكان ، لأنه يستطيع أن يقول (الحمد لله) جملة اسمية تثبت الحمد لله على أكمل وجه ، وهى أقوى فى الدلالة على الإثبات من الجملة الفعلية ، وهذا يقتضى بيان الجملة الإسمية وأركانها وبيان الجملة الفعلية وأركانها ، ونوع فعليتها من جهة المضى والحضور والاستقبال إلى اخر مايمكن الاستطراد فيه من فن النحو والمعانى فى الموازنة بين الجملتين فى تقرير المعنى المراد وثبوته .

ثم يقول لاشك أن الحمد إما أن يكون مطلقا لمجرد التعبد والتقديس ، وإما أن يكون مقيدا بنعمة والنعمة إما أن تكون عامة أو خاصة ، والنعمة العامة إما سماوية أو أرضية ، والخاصة إما أن تكون فى خلق الإنسان وتكوينه مما امتن الله به على الإنسان . وإما أن تكون فى وسائل حياته وعيشه ، وهى إما مادية أو معنوية ، والنعم العامة السماوية والأرضية لا تدخل تحت

حصر ، والنعم الخاصة مادية أو معنوية لايدخل حصرها فى دائرة الإمكان .

والحمد قد يكون بالقول كالتسبيح والتقديس ، وقد يكون بالفعل كالقيام بأنواع الطاعات والمحمود الذى هو مصدر النعم يجب أن تعرف كمالاته بقدر الطاقة البشرية ، وهذه الكمالات هى التى يستحق أن يحمد لأجلها ، ولا ريب أن كمالات الله لاتتناهى .

فثبت بهذا التوليد أن قولنا (الحمد لله) يتضمن ألوف ألوف الألوف من المسائل والفوائد ، بل يتضمن مالا يمكن حصره ، أفيكون هذا الكلام علما يفسر به القرآن ؟

وقد عرفنا أن هذا الضرب من توليد المعانى كان هو سبيل بعض العلماء فى بيان إمكان ما نسب إلى الإمام على كرم الله وجهه من أنه قال لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت .

ومن العجيب أن نرى الأستاذ الشيخ محمد عبده ينحو هذا النحو بوجه مّا فى بيان ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من جميع المعانى التى يحتوى عليها القرآن ، وقد شعر الأستاذ بهذا الاشتباه فحاول دفعه بما لم يحسم الداء ، لأن بيان الأستاذ للمعانى التى تضمنتها سورة الفاتحة وإن لم يكن من قبيل « الإشارة ودلالة الحروف وأسرارها » لكنه ليس بعيدا من الطريق التى بين بها ابن أبى جمرة مانسب إلى على كرم الله وجهه : إنى لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت ، وليس بعيدا عن الطريق الذى سلكه الرازى فى استخراج ألوف المسائل من كلمة (أعوذ بالله) للبرهنة على أن فاتحة الكتاب تتضمن من المسائل والفوائد ألوف الألوف .

وأعجب من ذلك أن الأستاذ الشيخ محمد عبده جعل منحاه هذا بياناً

لوجه اختياره لقول ضعيف فى أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو سورة الفاتحة ، وهو اختيار غريب وتوجيه أغرب ، لأن حديث أول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك) رواه الشيخان البخارى ومسلم من طريق عائشة أم المؤمنين فى حديث بدء الوحى ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الدلائل وصححاه عن عائشة أيضاً ، وأخرجه الطبرانى فى كبيره بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردى قال : كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة (اقرأ باسم ربك الذى خلق) قال : هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك أخرجه سعيد بن منصور فى سننه عن عبيد بن عمير ، وأخرجه ابن اشته فى كتاب المصاحف عن عبيد والزهرى .

وحديث أول ما نزل من القرآن (يا أيها المدثر) رواه الشيخان ، وفى إحدى روايتيه جاءت هذه الجملة (وهو يحدث عن فترة الوحى) وهى تقوى أن أول ما نزل إطلاقا فى بدء الوحى (اقرأ باسم ربك) و (يا أيها المدثر) أول ما نزل بعد فترة الوحى ، وهى مدة ثلاث سنين ويؤيد ذلك قوله فى حديث (المدثر) : فإذا الملك الذى جاء بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت ، فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله (يا أيها المدثر) فقوله (فاذ الملك الذى جاء بحراء) يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها (اقرأ) وكذلك قوله : فدثرونى ، فأنزل الله (يا أيها المدثر) يدل على أن سورة المدثر نزلت بعد رجوعه من حراء ، وبعد رؤيته الملك فيه ، وإقرائه (اقرأ باسم ربك الذى خلق) كما فى حديث البخارى .

أما القول بأن الفاتحة أول ما نزل من القرآن ، فقد نقله السيوطى فى الاتقان عن الزمخشرى إذ يقول : قال فى الكشاف : ذهب ابن عباس

ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ) وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب ، وقال ابن حجر: والذى ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول ، وأما الذى نسبه الى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول ، وحجته على ما ذهب إليه مخالفاً جمهور الأئمة وأعلام الأمة . حديث مرسل رواه البيهقى والواحدى .

ولا يمكن أن يوضع حديث مرسل يرويه غير الشيخين فى ميزان مع حديث مسند برواية الثقاة فى صحيحى البخارى ومسلم ، كما لا يمكن أن يوضع الزمخشرى فى ميزان فن الحديث وروايته مع ابن حجر ، ومعروف أن الزمخشرى فى علم الحديث ليس هناك ، فكيف يرجح قوله فى مسألة حديثية تتعلق بالسند والرواية ولا دخل فيها للعقل على أقوال سادة المحدثين من ثقاة الرواة ، وهم حجة الأمة فى نقل السنة ؟ فكيف صح من الأستاذ الشيخ أن يجعل هذا التوجيه العقلى سبيلاً إلى ترجيح هذا القول الضعيف ، ولا دخل للعقل فى مثل ذلك ، لأنها مسألة ترجع إلى النقل والسند .

يقول صاحب المنار : أما الأستاذ الإمام فقد رجح أن أول ما نزل على الإطلاق سورة الفاتحة ولم يستثن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) ونزع فى الاستدلال على ذلك منزعا غريباً فى حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله : ومن آية ذلك أن السنة الإلهية فى هذا الكون ، سواء أكان كون إيجاد أو كون تشريع أن يظهر سبحانه الشىء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا ، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهى فى بدايتها تحتوى على جميع أصولها ثم تنمو بالتدرج حتى تنبثق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها ، والفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها ، ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم أن أسرارا القرآن

فى الفاتحة ، وأسرار الفاتحة فى البسملة ، وأسرار البسملة فى الباء ، وأسرار الباء فى نقطتها فإن هذا لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم الرضوان ، ولا هو معقول فى نفسه وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته وهى البيان .

وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور (أحدها) التوحيد لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعى التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة .

والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما ، والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء فى الدنيا كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة (ثالثها) العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله فى البشر .

هذه الأمور التى احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب .

فأما التوحيد فى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة مّا فهو له تعالى ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والإيجاد

والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهـــذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربيــة والإنماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان فى نفسه وفى الآفاق منه عز وجل فليس فى الـكون متصرف بالإيجاد ولا بالإشقاء والإسعاد سواه .

التوحيد أهم ماجاء لأجله الدين ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الإشارة إليه بل استكمله بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم وهى اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا ويتقرب بهم إلى الله زلفى وجميع ما فى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

وأما الوعد والوعيد فالأول منهما مطوى فى (بسم الله الرحمن الرحيم) فذكر الرحمة فى أول الـكتاب ـ وهى التى وسعت كل شىء ـ وعد بالإحسان وقد كررها مرة ثانية تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أى أن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لا نزاع فيها لا حقيقة ولا ادعاء ، وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطنا يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسىء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلـكه فاز ومن تنكبه هلك ، وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله (إياك نعبد وإياك

نستعين) أوضح معناها بعض الإيضاح فى بيان الأمر الرابع الذى يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أى أنه قد وضع لنا صراطا سيبينه ويحدده وتكون السعادة فى الاستقامة عليه ، والشقاوة فى الانحراف عنه ، وهذه الاستقامة عليه روح العبادة ويشبه هذا قوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد :

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لها ، وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكف حركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلا ما وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة ومخ العبادة الفكر والعبرة .

وما الأخبار والقصص فى قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هناك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم : وصائح يصيح ألا فانظروا فى الشئون العامة التى كانوا عليها ، واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) حيث بين أن القصص إنما هى للعظة والاعتبار ، وفى قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان ، فريق ضل عن صراط الله وفريق جاحد ، وعاند من يدعو إليه فكان محفوفا بالغضب الإلهى والخزى فى هذه الحياة الدنيا .

وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا والذين ضلوا فيه

ضلالا . وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله . فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التى يفصلها القرآن تفصيلا فكان أنزالها أولا موافقاً لسنة الله تعالى فى الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما نقول أن النواة أم النخلة فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم أن المعنى فى ذلك أن الأم تكون أولا ، ويأتى بعدها الأولاد اه .

وهذا المنهج الذى حاول به الأستاذ الشيخ محمد عبده أن يجعل فاتحة الكتاب متضمنة إجمالا لجميع ما احتواه القرآن من المعانى تفصيلا هو — فى نظرنا — عين ما سلكه الرازى فى بيان إمكان أن يستخرج من فاتحة الكتاب عشرة الاف مسألة ، وهو أيضاً قد يتلاقى فى مهيعه مع ما شرح به ابن أبى جمرة الكلمة المنسوبة إلى على كرم الله وجهه من أنه لو شاء أن يوقر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعل ، وابن أبى جمرة لم يسلك فى منهجه الذى حاول به بيان إمكان ما نسب إلى أمير المؤمنين مسلك الإشاريين ودلالة الحروف وأسرارها ، وإنما سلك منهج بيان تركيز المعانى الكثيرة فى سورة الفاتحة ، على أنه لم يقل فى بيانه أنها تتضمن جميع معانى القرآن المفصلة فى سوره وآياته .

ولقد كان من الخير للأستاذ الإمام أن ينزه مقامه العلمى — وهو رائد الطليعة المجددة فى تفسير القرآن الحكيم — عن نحو هذا التكلف المتعسف ، وكان من الخير لمنصبه الدينى المرموق ألا يجنح لترجيح قول ضعيف مخالفا جمهور الأئمة وأعلام الأمة فى تعيين أول ما نزل من القرآن ، ويحمله هذا الترجيح على تأييد ما اختاره بهذا البيان الذى يظهر فيه التكلف أوضح ظهور .

ويظهر أن تلميذه صاحب المنار لم يطمئن كل الاطمئنان إلى بيان شيخه

فقال فى صدره ما نقلناه عنه من أن الشيخ نوع فى الاستدلال على ترجيحه للقول الضعيف منزعاً غريبا .

وقال معلقاً على بيان الشيخ : وأقول الآن : هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطا موضحا ويمكن أن يقال : أن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافى هذه الحِكَمَ التى بينها .

* * *

ولو أردنا أن نضرب مثلا مشهوداً للناس على هذه التفاسير الجمعية التى وضع منهجها السيوطى كخلاصة لجمع الطرق التفسيرية التى سبقته لكان ذلك فى آخر صورها التى وصلت إلينا عن عالم من علماء القرن الثالث عشر الهجرى ، كانت له مكانته العلمية فى عصره ، وله معارفه الواسعة التى تهىء له الأسباب المساعدة لوضع تفسير القرآن الكريم على طريقته الجمعية الخاصة هو كتاب (روح المعانى) لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى وهو كتاب ضخم يشبه أن يكون صورة عريضة لمنهج السيوطى فى كتابه

ثم وقف الناس بعد الألوسى عن التأليف فى التفسير ، والمحاولات التى جاءت بعده لا تبلغ أن تسمى كتب تفسير للقرآن ، وأمثل من حاول ذلك كان يقصر محاولته على تفسير سورة أو آية بجرد تفسيرها من جملة التفاسير التى تقع له ، ويجعل ذلك كتاباً أو رسالة تحمل اسمه ، حتى وصلت إلى الشرق الإسلامى أعلام النهضة العلميـة قادمة من الغرب ترعد وتبرق وتنذر وتحذر وكان لابد أن يحس بعض أبناء الإسلام الذين أيقظتهم نذر هذه النهضة بحاجتهم إلى الأخذ منها بسبب . فأسرع إليها طلائع الرواد ، ونظروا فيها فهالهم ما رأوا من المذاهب المستحدثة فى العقائد والفلسفات وما رأوا من مذاهب فى الاجتماع والاقتصاد ، وما رأوا من نظريات مبتدعة فى العلوم والمعارف وما رأوا فى أنظمة الحكم من أوضاع مما لفت

أنظارهم إلى تعرف موقف الإسلام من هذه المذاهب والآراء والنظم ، والإسلام دستوره الخالد الذى يستمد بقاءه منه هو القرآن العظيم ، فتساءلوا هل لدينا تفاسير للقرآن تسعفنا بما يجب أن نبنى عليه مستقبل أمتنا فى هذه الحياة الفواره بكل جديد من العلم والمعرفة ، فنظروا وأمعنوا فى النظر ، وبحثوا وشددوا فى البحث فلم يجدوا على قرب منهم سوى هذه التفاسير الجمعية التى تجمع معارف العصور الماضية بغثها وسمينها ، وحقها وباطلها مما عرفه تاريخ الإسلام فى ظل اللغة العربية

بيد أنهم وجدوا الهداية القرآنية فى تلك التفاسير مبددة هنا وهناك مغمورة بين الروايات والأسانيد فى التفاسير المأثورة عن العصر الأول ، ووجدوها تائهة بين المذاهب والتفريعات فى التفاسير الاجتهادية ، واستخراجها من بين ركام الروايات والمذاهب يحتاج إلى جهد ومشقة وأعمار تفنى ولا تبلغ منها ما تريد ، ولكنهم وجدوا آيات القرآن تهيب بهم أن تقدموا إلى الحياة وخذوا حقكم من النهضات العلمية والتقدم العقلى ، وتبوؤوا مكانكم فى ميادينها فأنتم أهلها وأحق بها ، وهذه النهضة منكم خرجت واليكم يجب أن تعود .

وشمر فريق من العلماء النابهين واتجهوا إلى القرآن العظيم باعتباره الدستور الخالد للإسلام يتلونه حق تلاوته وينظرون فيه على ضوء ما وصل اليه اجتهادهم من الإلمام بشىء من هذه العلوم والمعرفة التى أيقظت عقولهم لها هذه النهضة، وفتح لهم القرآن الحكيم أبواب الفكر الحر على مصاريعها فولج منهم القليل إلى مداخل الحياة الفكرية معتصمين بهدى القرآن ، يستنبئونه عن تاريخهم من العزة والكرامه، وعن مكانهم من العلم والمعرفة، فجاء هم الجواب من آفاق وحيه (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

بيد أن هذه الطليعة كانت متفاوتة التفكير والمعرفة بتاريخ الإسلام، وفهم أسلوب القرآن، والصبر على مرارة البحث. ومشقة استطلاع الحقائق، فمنهم من تعجل واندفع إلى أحضان النظريات الجديدة وآمن بها دون قيد أو شرط على أنها حقائق ثابتة لا تقبل الجدل، فراح يعتسف الطريق اعتسافاً، ليطبق هذه النظريات على تفسير القرآن ويخضعه لها ويحمله عليها حملا لا ترتضيه لغة العرب التى نزل بها القرآن المبين، ولا يحتمله أسلوب القرآن، ولا يتفق مع جوه وروحه، ولا نعرف تفسيراً كاملا جرى على هذا النهج المتعجل الجماع لكل ما وصل إليه صاحبه من نظريات مستحدثة لم تستحكم طاقات فتلها سوى تفسير (الجواهر) للشيخ طنطاوى جوهرى، وقد ذاع هذا التفسير وانتشر فى بعض بلاد الشرق الإسلامى التى استيقظت من النوم حديثاً، وهى عطشى لا تزال تمسح رمص النوم من عينيها، وتتمطى على نفسها من طول ما عاشت تحت كابوس الكسل البليد، والجهل بتاريخ الإسلام وحقائقه العلمية والتشريعية، وما أدخله الغرباء المغتصبون معهم من نظريات علمية تخدمهم وتخدم استغلالهم، وتباعد هؤلاء الأصلاء فى أوطانهم الإسلامية عن الإسلام وتاريخه وشرائعه فشغلت تلك البلاد بهذا التفسير، لأنها تخيلته فى تصورها المنعكس عليها من حياتها الواقعية أنه هو التفسير لكتاب الإسلام ودستوره القرآن العظيم، وكان لها عذرها لأنها لم تجد من تفاسير الهداية القرآنية ما يروى غلتها، ويشبع نهمها، ويرضى رغائبها ويقرب إليها معانى القرآن بأسلوب سهل ميسر رغيب.

* * *

ولا شك أن أبرز طلائع هذه النهضة المجددة فى تفسير القرآن هو شيخها الأستاذ الشيخ محمد عبده، فإنه رحمه الله كان — فيما وصل إلينا موثوقاً به من تفسيره — فيما بلغه العرب، وكثير من معارف الإسلام التى

يحتاج إليها من يتعرض لتفسير القرآن، وكان إلى جانب ذلك على اتصال قوى بالنهضة العلمية النصرانية فى الغرب، وكان ملماً بأحوال المسلمين والطوائف والنحل الحادثة فى أمم الشرق، مما جعله فى عصره أبرز رجال الدين وأكثرهم معرفة بما استحدث من نظريات تتصل بالدين وأوسعهم معرفة بما انبجس عنها من مذاهب اجتماعية ونظم سياسية، وفلسفات اعتقادية، فهو قد جمع فى معارفه وثقافته الكثير مما يحتاج إليه تفسير القرآن فى عصره، لتبيين جوانب من هدايته التى توقظ المسلمين لينهضوا على دعائمها.

غير أن الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يترك للناس شيئاً من التفسير، يمكن القطع بأنه تفسيره ونتاج تفكيره سوى تفسير جزء (عم) وهو كتاب مدرسى، مطبوع شائع ذائع بين المثقفين، وقد وضعه الشيخ ليكون مرشداً لدراسة التفسير فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التى كان له فضل فى نشأتها ورعايتها، ولكن هذا الكتاب لا يكشف كشفاً تاماً عن منهج الشيخ فى تفسير يستوعب القرآن الحكيم كله، فهو نموذج لما كان يمكن أن يكون من منهج وأسلوب للشيخ فى التفسير المستوعب لو قدر له الوجود، والنماذج لا تعطى الصورة الباطنة للبناء: وإنما تعطى السمات الخارجية للأوضاع التى تلمحها الحواس أو ما كان منها بقبيل من الإدراكات الأولية للعقل.

أما تفسير المنار فهو من وضع الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتلميذ الأستاذ الشيخ محمد عبده، ويمكن أن يكون فيه أفكار وآراء من أفكار الشيخ محمد عبده: استقاها السيد رشيد رضا من دروس أستاذه، وكان أخص تلاميذه به.

وقد صرح السيد رشيد بأنه بعد وفاة الإمام استقل بالتفسير وأدخل عليه كثيراً من المسائل والبحوث، فقال (وإنى لما استقللت بالعمل بعد

وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو فى حكمها وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس) .

وقد أحس السيد رشيد رضا بأن تفسيره أصبح تفسيراً جمعياً كغيره من التفاسير الحاطبة فى ليل أو نهار بما أدخله عليه بعد وفاة الإمام من الاستطرادت لتحقيق مسائل تشتد اليها حاجة المسلمين - كما يقول - ، ولا تتصل بتفسير القرآن إلا كما يتصل فن النغم بفن النحو ولذلك نراه يعتذر عن هذه الاستطرادات إذ يقول : واستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه ، وفى النهوض بإصلاح أمته ، وتجديد شباب ملته الذى هو المقصود بالذات منه .

وهو بهذا يكلف القارىء لتفسيره شططاً حتى يستطيع أن يفيد منه شيئاً من الهداية التى هى الهدف الأصيل من تفسير القرآن ، على أن هذا الذى يستحسنه للقارىء قد يمكن تحقيقه فى فصول طوال متميزة بعنوانات خاصة . أما ما أدرج فى التفسير من هذه الاستطرادات وهو كثير فلا يمكن تمييزه إلا بتمزيق الاتصالات البيانية فى أسلوب التفسير ، وبذلك يفوت على القارىء كثير من الفوائد والملابسات .

وتفسير المنار إلى جانب هذا المأخذ الذى اعترف به مؤلفه تظهر فيه العصبية المذهبية فهو شديد الحملة فى مسائل فرعية على من يسميهم «المبتدعة»

وهذه المسائل اختلف فيها العلماء ، ويشتد صاحب المنار فيرفع النزاع فيها إلى درجة الإيمان والكفر ، ولو أنه صرف همته إلى تعليم الجاهلين وهداية الضالين بالاقتصار على بيان هداية القرآن لكان فى تفسيره خير كثير وقد أساء إلى تفسيره عند كثير من الناس تحمسه الشديد لرأيه ومذهبه ، مما رفع الثقة به عندهم فيما يقول أو يروى .

وصاحب المنار أقوم بعلم الحديث والسنة دراية ورواية — وهو أصل أصيل فى تفسير القرآن — من شيخه الذى يدل ما عرف من منهجه فى التفسير أنه كان قليل الرعاية للسنة وعلومها أو كان على مذهب من يرون تفسير القرآن بما يرون من الرأى والاجتهاد فى دائرة قواعد اللغة وإطراح الأحاديث التى تعجز عقولهم عن فهمها ولو كانت صحيحة الإسناد .

ولقد كان أمثل من نهج نهج الأستاذ الشيخ محمد عبده - فى عمومه - هو الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، فى دروسه التفسيرية الرمضانية التى كان يلقيها - غالبا - فى كل أسبوع من أسابيع شهر رمضان المعظم وكان يحضرها عظماء الدولة وكبار علمائها وأدبائها وذوى الثقافة من شبابها .

كان - رحمه الله - يختار لدروسه آيات من الكتاب الكريم . يفسرها بطريقة هادية مهدية يعرض إلى مفردات الكلمات فى الآيات مبيناً معانيها اللغوية ، ثم معانيها القرآنية ، ثم يأخذ فى بيان معنى الآية ملماً بما فيها من دلائل الهداية عارضاً لها فى أسلوب رغيب مهذب العبارة نقى الجمل وقد يعرض عرضاً خفيفا لمسألة نحوية أو بلاغية حسب ما يحتمله المقام ،

وهى دروس أشبه بالمحاضرات العامة ، لاتتعمق ، ولا تستطرد إلا لحاجة ماسة تدعو إليها ضرورة بيان الحق والنصح للمسلمين ، وكان - رحمه الله -

شجاعا فى بيان الحق إذا عرض للبيان مناسبة صالحة لا يكره الآيات ، ولا يقسرها على استجلاب المعانى ، ولكنه يعرض الرأى بعد بيان معنى الآية على أنه استنباط واضح من مدلولاتها التى تقصد من عامة مبادىء الهداية فى القرآن ، وكان يستهدف النصح فى مواجهة من يملكون الإصلاح .أداء لواجب أمانة الحق والعلم .

وذلك كقوله وهو يفسر هذه الآية الكريمة : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين[١]): من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالا وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويعظمهما ويجلهما ، فإذا قلت له : لم لا تقطع يد السارق ، وتحد القاذف ؟ ولم لا تحكم القرآن فى الحياة ونحن مؤمنون به ؟ هز كتفيه وابتسم أو زاد إنها رجعية لا يحتملها تمدين العصر الحديث أليس هذا استهزاء بالآيات واشتراء للباطل وضلالا عن سبيل الله ؟ هناك مقلدون المذاهب فى العقائد والأحكام إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذهبهم ولوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها ، أليس هذا شراء للباطل وبيعاً للحق بغير علم ؟ » .

وكان رحمه الله — يرى تجنيب القرآن للهزات التى استحدثها العلم الحديث بنظرياته ، فلا ينبغى فى نظره أن ينهج مفسر القرآن منهجاً يحمّل آيات القرآن الدلالة على نظرية علمية لتكون هذه النظرية هى بيان المعنى المقصود من الآية وذلك إذ يقول تحت عنوان (غرور المسلمين بالعقل والفلسفة) « وجد خلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها

---

(١) سورة لقمان آية ٦ .

وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله » .

ولكن يظهر أن الضعف البشرى فى جميع أفراد البشرية قد جعله الله تعالى برهاناً على تفرده بالكمال المطلق .

فالأستاذ المراغى — رحمه الله — إذ يقرر هذا يقرر فى تفسير قوله تعالى : (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم)[1] أن الكتاب الكريم — القرآن — قرر أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها . . . وهذا الذى قرره الكتاب الكريم — القرآن — هو الذى دل عليه العلم ، وقد قال العلماء : إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات .

وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت فى قبضة جذبها والأرض واحد من هذه السيارات ، فهى بنت الشمس ، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات اهـ .

أما أن العلماء قالوا ذلك فلا حرج علينا أن ننظر فيما قالوا ، بل يجب علينا أن ننظر فيه ونعلم علمه ، ونعرف بقدر ما نستطيع مصادر وموارد ما يقوله العلماء .

---

(١) سورة لقمان آية (١٠) .

وأما أن الكتاب الكريم — القرآن — قرر ، هكذا بصيغة الجزم والإيمان فهذا ما كان ينبغى للأستاذ أن يتحرز من التصريح الجازم به ، لأنه يناقض مبدأه فى عدم تأويل القرآن ليرجع إلى بعض النظريات العلمية .

ثم قد يتساءل قارىء هذا الكلام ، أين قرر القرآن أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها ؟ والمفروض أن معنى « قرر » أنه نص على ذلك نصاً لا يحتمل التأويل ؟ وفى القرآن الحكيم آية واحدة هى التى يتشبث بها أصحاب هذه النظرية الانفصالية ، تلك هى قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون)[1] وهذه الآية قرأها المؤمنون من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهمها من فهمها قبل أن تظهر هذه النظرية الانفصالية ومن لم يفهمها لم يسكت على جهله ولكنه سأل أهل الذكر ، وفسرها الحبر ابن عباس فى رواية صحيحة النقل عنه . روى أبو نعيم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ؟ فقال له ابن عمر ! إذهب إلى ابن عباس فاسأله ، ثم تعالى ، أخبرنى فذهب الرجل فسأل ابن عباس ؟ فقال له ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات . فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره ، فقال ابن عمر : قد كنت أقول ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن علمت أنه أوتى علماً .

فما الذى يدعو إلى عدم صحة هذا التفسير ؟ وما الذى يدعو إلى استبعاد احتمال الآية له ، إن لم يكن هو المعنى القريب الاحتمال ؟ فلو أن الشيخ رحمه الله

---

(١) سورة الأنبياء آية (٣٠) .

قرر أن أسلوب الآية صالح لفهم مايقرره العلم الصحيح ، مع صلاحيته لفهم ماقرره أئمتنا فى معنى الآية لكان ذلك أنسب بمقامه العلمى بين أئمة المسلمين، ولكان أنسب برأيه الذى قرره صراحة فى تجنيب القرآن التأويل الذى يعرضه للهزات التى استحدثها العلم ؟ .

فالقرآن لم يقرر أبداً النظرية الانفصالية بين الشمس والأرض ، ولكنه وهو فى أفقه الأعلى من براعة البيان المعجز تحدث عن السموات والأرض فى صدد بيان جلال القدرة الإلهية حديثاً صبه فى إطار لايناقض علماً ثبت أو يثبت ثبوتاً لايخالجه ريب ، ولا تتوارد عليه الشبه والشكوك على أن المتتبع لحديث القرآن عن السموات والأرض يراه يذكر الأرض فى مقابلة السموات بصورة قد تدل بفحواها ـ إن لم يكن بظاهرها ـ على استقلال الأرض فى خلقها كوكباً تعيش عليه الحياة الخاصة به بمن عليه وما عليه وما فيه من الموجودات ، بل إن القرآن ينفسح لأكثر من هذه فى دلالة ظاهرة على استقلال خلق الأرض عن السموات ، فهو يقول فى سورة « فصلت » : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم)[١] .

فهذه الآيات الكريمة ظاهرة الدلالة على أن الأرض خلقت خلقاً مستقلا عن السموات ، وجعلت فيها الجبال الرواسى لحفظها أن تميد

---

(١) سورة فصلت آيات (٩ — ١٢) .

فتختل الحياة فوقها ، وأن الله بارك فيها بما شاء من أنواع البركة في إعدادها وتهيئتها للحياة ، وأنه قدر فيها أقواتها ، وأنه سبحانه وتعالى حدد لذلك الخلق مع ما يتبعه مما ذكر ربنا تبارك وتعالى أوقاتاً خاصة معينة عنده مقربة لعقولنا بما نعرف ونألف .

ثم ذكر ربنا تبارك وتعالى السموات ذكراً مستقلا بحرف يفيد عند أهل اللغة الوجود المتراخي لتقريب مراتب الخلق لعقول الخلق التي لا تدرك إلا ما عرفت وما ألفت وما يصح قياسه على المعروف لها المألوف ـ وشأن الله أعظم من مدركات العقول ـ وأخبرنا أن السموات كانت دخاناً فخوطبت ـ كما شاء رب العالمين في خطابه لأصناف خلقه ـ هي والأرض معاً ، ثم ذكر أنه أحكم خلق السموات وأكملها سبعاً من العنصر الذي أخبر أنها كانت عليه وهو الدخان وأنه خص السماء الدنيا التي هي أقرب السموات في ترتيبها الذي أقتضته أرادته ومشيئته بزينة المصابيح من اللوامع ، وجعل فيها شهباً لحفظها ، ثم أثنى على نفسه بما هو أنسب صفاته وأسمائه بهذا المقام فقال جل شأنه : (ذلك تقدير العزيز العليم) وكلمة (تقدير) في هذا المقام لا توجد كلمة تؤدي المقصود منها غيرها ، والاسمان الكريمان (العزيز العليم) هما منبع الفيض بما اشتملت عليه الآيات من معان منزلة من خزائن القهر والجود .

على أنه لا ذكر في القرآن الكريم للشمس باعتبارها السماء التي انفصلت عنها الأرض ـ كما يقول العلم في نظريته ـ بل المذكور السموات بعنوانها ومفهومها الشرعي الذي لا يفهم منه إرادة الشمس إلا بضرب متعسف من التأويل ، والشمس في القرآن الكريم تذكر مقابلة للقمر وقرينة له باعتبارهما كوكبين مغايرين للسموات بمفهومها الشرعي .

فنظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقررها القرآن الحكيم ،

فلا تصلح تفسيراً لآياته على أنه هو المعنى الذى يتحتم فى فهم تعبير البيان القرآنى .

ولو أن الناظرين فى هداية القرآن أمعنوا النظر فى مقاصد هذه الهداية لوجدوا أن تفسير رتق السموات والأرض وفتقهما بما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وتلقاه الأئمة بالرضا والقبول ، أقرب إلى تحقيق تلك المقاصد ، لأنه المعنى الذى يفهمه كل من يتجه إليه بنظر الحس والعقل من عامة الناس وخاصتهم .

وتفسير آية رتق السموات والأرض بنظرية الانفصال الشمسى التى قال بها العلم المستحدث بعيد عن مقاصد الهداية القرآنية ، لا يفهمه من أسلوب البيان القرآنى إلا من قصده متأولا ، ولا يفهمه علمياً إلا أخص الخاصة من العلماء الكونيين ، والقرآن لم ينزل بهدايته لهؤلاء العلمانيين وحدهم ، وإنما نزل لهداية كافة البشرية على مستويات عقولهم وثقافاتهم .

* * *

وقد استكمل الأستاذ الشيخ المراغى تفسير بعض السور ، كسورة لقمان ، وسورة الحجرات ، وسورة الحديد ، وسورة العصر ، وفسر آيات متفرقات من سور متعددة ، وكان من غير شك بعيد النظر فيما حاضر به عند إرادة إخراجه للناس كتباً ورسائل مطبوعة لتقرأ على مكث وتدبر فهى مأمونة الجانب أن تنالها السرعة فالآراء التى فيها محسوبة فى مذهب الأستاذ فى فهم القرآن الحكيم ، وقد قرأنا له جميع ما وقع تحت يدنا مما طبع من رسائل تفسيره .

ولو أتيح للأستاذ الشيخ المراغى تفسير القرآن العظيم كله تفسيراً كاملا على نهجه الذى سلكه لكان للناس اليوم منه تفسير يرضى الكثير

من رغائبهم ويسد مكاناً من الفراغ الذى يشعر به المسلمون نحو تفسير كتابهم الكريم ودستور هدايتهم القرآن العظيم .

ولقد كان الأستاذ الشيخ محمد عبده حذراً فى لباقة عندما عرض لمثل هذا التأويل العلمى فى بعض آيات القرآن فنراه فى تفسير سورة (الفيل) يجمل معنى آياتها فى عبارة موجزة تصور ما فى السورة من هداية وعظة ، ثم يقول : وكان يمكننا أن نكتفى بذلك المعنى من الآيات ، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل ، وهو كاف فى الاعتبار والعظة . وليته فعل وسكت عند هذا ، ولكنه تابع الكلام ، وذكر ما قال إنه تواتر من الواقعة إلى أن قال : وفى اليوم الثانى — أى لخروج أهل مكة فزعين إلى شعف الجبال بعد ما بلغهم خبر جيش الفيل ، فشا فى جند الحبشى داء الجدرى والحصبة وذكر رواية عكرمة فى قوله : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب ، ثم ذكر قول يعقوب بن عتبة أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام .

ثم عقب على ذلك بقوله: هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به ، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى ، أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ..... وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جند الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن (بالمكروب) لا يخرج عنها اه ملخصا .

وحديث الجدرى والحصبة فى هذا المقام حديث مقحم متهافت ،

ما كان ينبغى أن يعول عليه مثل الشيخ فى تفسير القرآن ، الحكيم فى سورة يبدؤها الله بصيغة التعجيب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة الجبابرة تقدمة لمبعث نبيه صلى الله عليه وسلم .

وقد عرض لبيان تهافت هذا الرأى ابن الأثير فى تاريخه الكامل فقال: وقال كثير من أهل السير : إن الحصبة والجدرى أول ما رؤيا فى العرب بعد الفيل ، وهذا مما لا ينبغى أن يعرج عليه .... فإن هذه الأمراض .... قبل الفيل مذ خلق الله العالم .

وقول الشيخ بعد أن ذكر حديث الجدرى والحصبة : هـذا ما اتفقت عليه الروايات غريب فى باب العلم ، وعجيب فى تفسير القرآن ، لأن الروايات لم تتفق على هـذا ، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ما تكون بالطير المسمى بالخطاف ، وهو طائر من طيور الليل ، وبعض الروايات ذكر أنها أشبه بالوطاويط ، وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب ، وهى ذكور النحل وأمراؤها ، وقد أقبلت من جهة البحر فى جماعات إثر جماعات ، تحمل فى مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة فى حجم الحمصة ، أو حصى كحصى الخذف ، فالقتها على الجيش الظالم فتساقط هلاكا وفناء ، فأى محال يترتب على تجويز ذلك ؟ وبه تبقى السورة على ظاهرها ، ويبقى الحادث على وضعه الإعجازى إرهاصاً للنبوة الخاتمة ، وقد قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره بعد ذكر بعض الروايات : وهذه أسانيد صحيحة .

أو ليس هذا أقرب إلى الأسلوب العربى من حديث الجدرى والحصبة والذباب والبعوض والمكروب ؟ وهل فى عرف اللغة العربية واستعمالاتها إطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى (بالمكروب) وهـل كان القوم المخاطبون فى وقت المواجهة بالخطاب التعجيبى الذى افتتحت به السورة يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان المسمى (بالمكروب) .

وقول الشيخ : وقـــد بينت السورة الكريمة أن ذلك الجدرى وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة ، إغراق فى الغرابة عن العلم ، وإيغال فى العجب أن يكون ذلك فى تفسير القرآن ، وأين تعرضت السورة الكريمة لذكر الجدرى والحصبة ، بله بينت إنهما من حجارة يابسة ، والسورة بين دفتى المصحف كاملة ، كما أنزلت يتلوها الناس ، ويقرؤها القرأة من حفظة القرآن وليس فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى الجدرى والحصبة .

وقد فرع الشيخ على ما فرضه واقعاً من حديث الجدرى والحصبة أنه يجوز لمن يريد فهم معانى القرآن ليؤمن بهـا أن يعتقد أن هذا الطير الذى أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم الأمراض ، وأن هذا الحيوان الذى يسمى «بالمكروب» من هذه الطير .

أليس هذا تحميلا لآيات القرآن فوق طاقة أساليب العربية ، وفوق طاقة أفهام من نزل القرآن لتعجيبهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاصاً لمقدم بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ؟

لقد كان حديث الجـــدرى والحصبة على تهافته أيسر أمرا من حديث « المكروب » وأنه من الطير الذى أرسله الله على جيش الفيل ، وهو ضرب من التعسف فى التأويل المتملق لنظريات العلم المستحدثة ، وهو مذهب لكثير من المجددين فى تفسير القرآن ، والمتسورين على تبيين مفاهيم الإسلام الذين يرفضون قبول الخوارق المادية ، سواء أكانت إرهاصاً قبل النبوة أو معجزات بعد الرسالة .

والأستاذ الشيخ محمد عبده يسلك هذه الطريقة التى تبدأ ببيان الهداية القرآنية فى الآيات بياناً لا يستطرد ولا يتعسف التأويل ، ثم يبدو له أن يتولج إلى مداخل التأويل الذى يبعده عن اختياره لمذهب السلف ، ولكنه لا يبقى به مع الخلف فى الوصول إلى نتائج مذهبهم .

ويستبين ذلك بصورة واضحة فى تفسيره - الذى تلخصه من تفسير تلميذه صاحب المنار، وقد أسنده إليه صراحة - لآيات قصة آدم. وجعله خليفة، وحوار الملائكة فى هذه القصة، وأمرهم بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن ذلك الأمر الإلهى استكبارا وعتوا.

فبعد أن ذكر الشيخ مذهب السلف والخلف فى المتشابهات، وذكر أن آيات هذه القصة منها، ولا يمكن حملها على ظاهرها، وصرح بأنه على مذهب السلف فى وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بصفات الله تعالى وعالم الغيب، ذكر رأى السلف والخلف فى حقيقة الملائكة بعبارة مبسوطة وافية.. إلى أن قال: الملائكة خلق غيبى، لا نعرف حقيقته، وإنما نؤمن بأخبار الله تعالى الذى نقف عنده ولا نزيد عليه، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف، لكل صنف وظيفة وعمل، وأن إلهام الخير والوسوسة بالشر قد اسندا إلى هذه العوالم الغيبية، وخواطر الخير التى تسمى إلهاما، وخواطر الشر التى تسمى وسوسة كل منهما محله الروح، فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس.

وهذا - لو وقف عنده الشيخ - كان كافيا فى بيان الهداية القرآنية التى تفسر الآيات فى هذه القصة فى ظلها، لكن الشيخ تابع السير، فقال: وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر فى فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ماورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالاعمال من إنماء ونبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده فإنما قوامه بروح إلهى، سمى فى لسان الشرع ملكا، ومن لم يبال فى

التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لايعرف من عالم الإمكان إلا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة . . .

إلى أن يقول الشيخ : فإذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لايتعداه ولا يتعدى ماحدد له من الأثر الذى خص به، خلق الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض . وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذى لاحد له والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضه ، لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبرعنها بإبليس ، وهى القوة التى لزها الله بهذا العالم لزا ، وهى التى تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل إلى النقص ، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم . . ثم قال الشيخ : ولو أن نفسا مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك .

وقد أحس صاحب تفسير المنار بما فى هذا الكلام من غموض وإبهام وعدول عن سنن السلف الذى اختاره الشيخ مذهبا له فى المتشابه من الآيات وجعل منه آيات هذه القصة فأراد أن يعتذر عن الشيخ ويذكر سببا لذلك ، وساق كلاما قال إن الشيخ كتبه بنصه وحروفه ، وهو كلام يزيد الغموض غموضا والإبهام إبهاما ، وقد عقب عليه بقوله : هذا ما كتبه شيخنا فى توضيح كلامه فى تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى مايفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة ، ولا يفقهه من هؤلاء إلا من

له إلمام بما يقوله أولئك فى القوى ، وإسنادكل أحداث الكائنات وتطوراتها إليها مع اعترافهم بجهل كنهها . . . الخ .

ونحن نتساءل هل كان العرب الذين نزل القرآن بلسانهم يفهمون من أسلوبه وعباراته هذه المعانى التى ذهب إليها الشيخ فى كلامه ؟ وهل كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون هذا العلم ونشروه على الناس فى تبليغهم رسالة نبيهم صلى الله عليه وسلم ؟ أو كانوا يعلمونه وكتموه عنهم ؟ أو كانوا لا يعلمونه ولا تلقوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيانه للقرآن الكريم ؟ ، وهل هذا الكلام يتفق مع ما ورد فى السنة الصحيحة من شأن الملائكة ، وشأن آدم وقصته مع إبليس وشأن إبليس وذريته ؟

إن الباطنية المحرفين لكلمات الله عن مواضعها لم يدخلوا إلى تأويلاتهم إلا من هذا الباب الذى يجعل من كل كلام يتعاصى فهمه على بعض العقول تمثيلا لا حقيقة له ، وإيماء إلى معان أدق من ظاهر العبارات ؟

وهل تسور المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة فى هذا العصر على آيات القرآن يحرفونها عن مقاصد الهداية إلى تحميلها مقاصد معان تخضعها لتطبيق تلك النظريات التى لا تزال فى مهب الرياح إلا من طريق التعسف فى التأويل .

إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين هـــدى للناس وبينات ورحمة . ولم ينزل بالإشارات والرموز ، والإيحاء ، وأنزل فيه ـ كما أخبر الله تعالى ـ آيات محكمات هن معظمه وجماعه كما قال الطبرى : أحكمت بالبيان والتفصيل ، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ماجعلن أدلة عليه من حلال وحرام ، ووعد ووعيد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومثل . وعظة وعبر .

كما أنزل فيه آيات متشابهات ، وهى كل مالا حاجة إلى العباد بمعرفته، لأنه مما استأثر الله بعلم حقيقته ووقته ، وإنما أنزله الله امتحانا لعبودية خلقه، وتمييزا لأهل المعرفة بجلال الله الذين يسلمون وجوههم لله تعالى لائذين بساحة الإيمان يقولون معبرين عن تسليمهم آمنا بالمحكم والمتشابه كل من عند ربنا ، نعلم ماعلمنا ونقف على سدة الأدب رادين علم مالم نعلم إلى علام الغيوب .

وإظهارا لحقيقة من فى قلوبهم زيغ وانحراف عن هداية القرآن الذين يتتبعون ما لا حاجة إليهم بمعرفته ليلبسوا على المؤمنين دينهم تضليلا لهم وميلا بهم عن مهيع الحق إلى طرائق الفتنة والتشكيك .

قال الطبرى : إن جميع ما أنزل الله عز وجل من آى القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فإنما أنزله عليه بيانا له ولأمته وهدى للعالمين ، وغير جائز أن يكون فيه مالا حاجة بهم إليه ، ولا أن يكون فيه مابهم إليه الحاجة ثم لايكون لهم إلى علم تأويله سبيل .

وآيات إخبار الله تعالى للملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة وماجرى فيها من الحديث وما تبعها من قصة إبليس لاتخرج عن أن تكون من محكم القرآن الذى يعلم العلماء — وفى طليعتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — تأويله ببيان الرسول لهم أو بمالهم من المعرفة بأسباب العلم بمعانى القرآن ولابد أن يكونوا قد تأولوه إذا كان عندهم من محكم القرآن ، ولابد أن يكونوا قد بينوه للناس ونقله العلماء خلفا عن سلف وعلمه من علمه وجهله من جهله .

أو أن تكون من متشابهه الذى استأثر الله بعلمه ، فلم يثيروه على الناس حتى لايلبسوا عليهم دينهم ويوقعوهم فى مزالق الفتن والضلال .

بيد أننا وجدنا أئمة الإسلام من السلف والخلف ، تحدثوا فى تأويل هذه الآيات وتفسيرها حديثا يؤذن بأنها من المحكم الذى علم العلماء تأويله ،

وأنها جارية على ظاهر أسلوبها وعبارتها وأنها حقائق واقعة لامدخل فيها للإشارات والرموز والإيحاء والتمثيل قال أبو جعفر الطبرى : قال بعض أهل العربية : قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها) على غير وجه الإنكار منهم على ربهم ، وإنما سألوه ليعلموا ، واخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون ، قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يعصى الله .

ثم قال : وقال بعضهم : ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك ، وكأنهم قالوا ، يارب خبرنا ، مسألة استخبار منهم لله ، واختار هذا التأويل الطبرى وهذا الموضع من القصة هو مفتاحها .

فالقصة واقع من واقع آيات القرآن التى لا تمثيل فيها ولا إشارات ولا إيماء إلى معان أدق من ظاهر العبارة .

ونحن نلخص القول فى عرضها كما فهمها أئمة العلماء من سلف الأمة وخلفها . يقول الله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال أنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)[1] .

هذا القول من الله تعالى للملائكة إخبار من الله لملائكته ـ بطريق الوحى ، فلا هو حديث مشافهة ولا محاورة مشاورة ، تعالى ربنا عما لا يليق

(١) سورة البقرة آيات (٣٠ ، ٣١ ، ٣٢)

بجلال عظمته ـ بأمر كائن فى غيب العلم الإلهى حان وقت إبرازه إلى عالم الشهود ، وعيان الحس ، إعلاماً للملائكة بأن الفيض الإلهى دائم الاسباغ لا ينقطع ولا يغيض .

والمقتضى لهذا الاخبار ـ فيما يمكن أن تدركه العقول هو :

أولا ـ الانعام بترقى الكمال الملائكى بزيادة علمهم بشأن من شئون الله الكونية ، والملأ الأعلى دائم الترقى فى معرفة الجلال الإلهى ، بما يفيضه الله تعالى على طبائعهم الروحانية .

ثانياً ـ التعريف بمن يصطفيه الله لخلافته ، وإظهار فضله وكرامته على ربه ، فلما سمع الملائكة أن هذا الكائن هو خليفة الله فى أرضه استخبروا ربهم استخبار استرشاد وتفهم ، عن شأن هــذه الخلافة ليعلموا مالم يكونوا يعلمون .

أرادوا أن يعرفوا من أمر الخلافة التى أخبروا أنها كائنة ، أهى خير محض لا شر فيه ، كما هو شأن الملائكة ، تسبيح وتقديس وتعبد لله تعالى ؟ أم هى خير يشوبه شر ؟ وإنما أفردوا الاستخبار صراحة عن جانب الشر الذى لا تعرفه طبائعهم الخيرة بجبلتها ، لأن هذا الجانب هو الذى يخافون وجوده إعظاماً لمقام الألوهية أن يعصى الله فى أرضه بنعمة إبداعه وخلقه وله عباد مكرمون ، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون ، فأجيبوا عن استخبارهم بما وقفهم عند عبوديتهم ، وبما بين لهم أن علمهم مهما بلغ شأنه فانه لا يحيط بشىء من علم الله إلا بإذنه .

وخلافة هذا الكائن فى الأرض قد أبانت الحكمة الربانية أنها كانت تقصد إلى عمارة الحياة وسياسة الخلق ، وتنفيذ أوامر الله فى شرائعه التى قدر سبحانه فى غيب علمه أنها سيكون بيدها موازين الحق والعدل بين كافة

الخلق ، وهذه الخلافة بهذا المعنى هي رسالة الكملة من البشر ممثلة في الأنبياء والمرسلين ، وورثتهم من العلماء والحكماء والمصلحين ، وقادة الأمم ممن ولاهم الله سياسة الشعوب .

وهذه الرسالات لا تنقطع آثارها من الأرض مادام الإنسان قائماً على ظهرها يؤدي حق الحياة .

وقد كتب الأستاذ الشيخ محمد حسنين محمد مخلوف الكبير في تعليقته على الجزء الرابع من موافقات الشاطبي مستمداً من كلام الألوسي فقال (وسؤال الملائكة إنما وقع لاستكشاف الحكمة وإزالة الشبهة التي أثارها في نفوسهم مافهموه من اسم (الخليفة) وما يقتضيه اختلاف طبائعه وتركيب أمزجته ، وليس المقصود منه التعجب والتفاخر والاعتراض حتى يضر بعصمتهم - كما قيل - ولو كان كذلك لما كان الجواب بهذا التلطف والاقناع المفيد ، قال تعالى (إني أعلم مالا تعلمون) أقرهم على مافهموه من الإسم الشريف ، وأرشدهم بقصور علمهم إلى ما انطوى تحت سره المنيف ، وأظهر لهم من شأنه بتعليم آدم ما لم يعلموه وان يعلموه فازدادوا بذلك علما ويقيناً ، وفهموا أنه الصالح للخلافة دونهم ، فإن خليفة الله في عمارة أرضه وسياسة خلقه وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم يجب أن يكون جامعا بين التجرد والتعلق حافظا للنسبتين ، وذلك لايكون ملكا ، وإنما يكون بشرا .

وفي تفسير الخلافة بهذا المعنى الذي فهمه الأئمة مايقتضي الامتياز بخصيصة العلم التي من أجلها استحق الإنسان أن يكون خليفة الله في أرضه لأنه أوتي من العلم والمعرفة بحقائق الكون وأوتي من الاستعداد لتلقي وحي الله بشرائعه إليه في تدبير الحياة وسياسة الخلق مالم يؤته مخلوق غيره ، ولا الملائكة المكرمون ، فكان له بذلك عليهم فضيلة الشرف في اختياره للخلافة مع أنهم المسبحون المقدسون المستغرقون أوقات الليل والنهار

فى التعبد لله تعالى لا يفترون ، ومع أن النوع الإنسانى المختار للخلافة لابد أن يقع من بعض أفراده انحراف عن سنن الله وصراطه المستقيم ، لكن منزلة العلم والمعرفة التى لاحد لها هى الخصيصة التى امتاز بها ، والتى رفعه الله بها فوق كل منزلة لكل مخلوق ، وهى التى نيط بها مقام الاستخلاف .

ومن هنا جاء الجواب عن استخبار الملائكة ليعرفوا شأن هذه الخلافة فى طاعة الله ومعصيته ، لأنها بمقتضى وضعها وما يفهمه اسمها من مهمتها فى الحياة تقوم على سياسة الخلق وتنفيذ أوامره بينهم وتوجيههم إلى إثارة مافى الكون من قوى الطبيعة تحقيقاً لنعمة التسخير الإلهى التى امتن الله بها على الإنسان فى قوله (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) وهذه الآية جاءت فى بلاغة النسق القرآنى وترتيب معانيه بوقوعها قبل آية الخلافة مباشرة آية الإعجاز النسقى فى ترتيب آى القرآن ، وهو فن من فنون الإعجاز البيانى فى أسلوب القرآن ونظمه بعيد الغور ، عميق القرار .

ولما علم الملائكة مالم يكونوا يعلمون من فضل من اصطفاه الله لخلافته فى الأرض قاموا على قدم العبودية مسبحين لله تعالى ، رادين العلم المحيط إليه وحده ، متبرئين أن يكون من صفاتهم العلية ادعاء مالم يكن لهم من حق ، مثنين على الله بما هو أهله من الحكمة البالغة والعلم المحيط (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

ومن آفاق أدب العبودية هبت عليهم نسمات الانعام بتنزل الإذن لانموذج الخلافة بتكميل الفضل عليهم كفضل الأستاذ على تلاميذه ، وإعلامهم بما عرض عليهم من حقائق كونية ليذكروا خواصها وصفاتها الذاتية وأسماءها المعبرة عن تلك الخواص والصفات ليزدادوا علماً إلى علمهم (قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) وهذا القول

هو من قبيل الوحي بضرب من ضروبه كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم)(١) .

والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يخبرهم بنعوت الأشياء التي عرضها عليهم واستنبأهم عنها فلم يخبروا عنها بشيء ، فلما أنبأهم آدم بصفاتها الدالة على حقائقها بما أفاضه الله عليه من العلم والمعرفة الذى ظهر به شرفه وفضله ، وقرت به عين الحقيقة في أنفس السائلين قال الله جل شأنه بضرب من ضروب الوحي العام ، أو بما جبل عليه الملائكة من المعرفة والفهم عن الله تعالى (ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض) فاعلم شأن من اصطفيته لخلافتي في أرضي ، وأعلم ماتبدون من التطلع إلى معرفة الحقيقة باستخياركم عن أمر الخلافة في الأرض ، واعلم ماكنتم تكتمون من تخوفكم أن أعصى في أرضي بنعمتي حيثما أنبأتكم إني جاعل في الأرض خليفة يقوم على تنفيذ أحكامي وتحقيق حكمي وسنني في الكون ، لتزدادوا علماً بشئون الكون .

وقد اقتضت حكمة الله التي شرفت نموذج النوع الإنساني الأول في نشأته أن تجعل بإزائه في هذه الحياة نموذجاً للشر والإفساد في الأرض ، فجعلت من إبليس هذا الأنموذج الشرير ، وجعلت من ذريته وجنده سلائل للشر والأضلال ، ليكون مقام خلافة الله في الأرض مقام جهاد تظهر فيه إرادة الإنسان في تحقيق سنن الله تعالى وتنفيذ أوامره والعمل بشرائعه .

وهذا في ظاهره قد يبدو في صورة المحنة ، ولكنه في حقيقته منحة

---

(١) سورة الشورى آية (١٥)

ونعمة وتشريف ، ومن ثم نجد القرآن الحكيم قد زاوج بين قصة النشأة الأولى للإنسان ممثلة فى آدم أبى الإنسانية كلها ومنبعها الأول ونموذجها الأصيل ، وبين قصة إبليس رأس الشياطين وذريته من نماذج الأضلال والإفساد .

على هذا النسق المحكم ، وفى هذا الأسلوب البيانى المعجز ، وفى هذه الصورة البالغة ذروة الروعة والجمال وفى هذه البراعة من النظم البيانى البديع ساق القرآن آيات إخبار الله تعالى ملائكته بأنه جاعل فى الأرض خليفة يقوم بما أودعه فيه من كمالات فكرية وروحية ، وقوة إرادية على تدبير أمر الحياة واستثارة الدلائل على بالغ حكمة الله وعظيم اقتداره وإحاطة علمه ، وتعلم الملائكة من علم هذه الخلافة ماشاء الله أن يعلمهم ، وإظهار نعمة الله عليهم فى ثنائهم على الله تعالى شكراً لفضله (قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

* * *

وهنا بعد أن عرضنا الصورة الإجمالية لتفسير القرآن وتلمس هدايته وإعجازه فى تلك التفاسير — نرى أن نعيد تساؤل المتسائلين : هل فسر القرآن الحكيم ؟ باعتباره دستور الإسلام الذى تدين به الأمة ؟ الإسلامية وتدعو إليه الإنسانية كلها لتؤمن به وتعتنق مبادئه .

وإذا كان آ ئمتنا من علماء الإسلام قد أخرجو للإنسانية هذه الثروة الضخمة فى تفسير القرآن ، وهى ثروة جمعت جميع ماعرف من علم ومعرفة وثقافة فى عصورهم المختلفة فمن الجحود المنكر أن نقول أن القرآن لم يفسر ، بل إنه فسر وفسر بصورة عظيمة لم يكن فى إمكان العقل الإنسانى ، ولا فى مأثور العلم أن يأتى بأعظم منها فى عصورها ومجتمعاتها وبيئاتها بكل مابلغته

من محصول فكرى عربى أو غير عربى، بل أن هذه التفاسير التى تحتويها فهارس المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية لو أمكن جمعها فى مكتبة واحدة وأريد إخراج تفسير واحد منها يبين هداية القرآن بياناً عاماً يجمع ضروبها التى أشرنا إلى بعضها ، والتى تتفتح عنها عقول العلماء لأخرج منها تفسير جامع لما تتطلع إليه البشرية فى حاضرها بل أكاد أقول فى مستقبلها ، ولكن ذلك ليس فى حيز الإمكان عملياً لأسباب لا تخفى .

ان الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر فى حاجة شديدة إلى تفسير للقرآن الكريم يبرز هدايته ويقيم حجته على ماأقامها هو عليه من النظر فى ملكوت الله وتعرف أسرار الكون والعمل على استخدام ظواهر الطبيعة والإفادة منها بأقصى وأبلغ مايكون فى دائرة الإمكان فى سبيل ترقية الحياة وإسعاد البشرية فى ظل هذا الكتاب العظيم .

والقرآن اشتمل على عقائد أقيمت على براهين اختص بها القرآن وربطها بآيات الله الكونية وهذا النوع هو خلاصة الهداية التى أنزل بها ولها . كما أنه اشتمل على ضروب من العبادات لايستكمل الإنسان تذوق هداية القرآن إلا فى ظلها وهى فى الإسلام دعامته الإيمانية بعد التوحيد ، وقد بذل الأئمة والعلماء جهداً عظيما فى بيان أصولها وفروعها ، واستكملوا بيان ماأجمله القرآن منها وتفريع ماأصلته السنة النبوية من أحكامها .

ويشتمل القرآن على أصول أحكام المعاملات التى تحقق أو التى يجب أن تحقق مطالب الإنسانية وحاجاتها لتكون وسيلة لإسعادها فى كل عصر وجيل ، وهى بمعرض المرونة المتطورة مع مصالح الناس ومنافعهم ، وباب الاجتهاد فيها مفتوح ولم يقفل ولن يقفل مادام على أرض الإسلام عالم يستطيع أن ينظر ويبحث بعيداً عن جهالة الغرور وغرور الجهالة ، مستكملا لشرائط الاجتهاد العلمية والخلقية .

أما الآيات الكونية فقد أكثر القرآن منها جداً حتى قال بعض الباحثين أنها تبلغ أكثر من خمسمائة آية من آيات القرآن .

هذا الجانب من القرآن هو الذى يحتاج إلى نظر جديد يقيم منار الهداية القرآنية على دعائم فهم هذه الآيات فهما علمياً يقنع العقول بصادق البرهان، ويملأ القلوب باليقين .

ونحن لا نقصد بالفهم العلمى لآيات القرآن تفسيرها بنظريات العلم المستحدثة فى الأمور الكونية كما يصنع بعض المتحمسين من المعاصرين كالذى سلكه صاحب تفسير « الجواهر » فى كتابه ، وكالذى أنكرنا أن الكتاب الحكيم قرره من نظرية الانفصال الشمسى فى تفسير آية (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) وكالذى أنكرناه من تجويز تفسير « الطير الأبابيل » فى سورة الفيل بالذباب والبعوض والمكروب ، وتفسير الملائكة بقوى الطبيعة الخيرة ، وإبليس وذريته من الشياطين بقوى الطبيعة الشريرة المفسدة ، وإسجاد الملائكة لآدم بتسخير القوى الكونية للإنسان .

ولا نقصد بالفهم العلمى ماذهب إليه بعض القدامى من المفسرين كالذى يحكيه السيوطى فى كتابه « الاتقان » عن أبى الفضل المرسى فى تفسيره إذ يقول : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين . . . وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل : الطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، والنجامة ، إلى أن يقول : وفيه — أى القرآن — أصول الصنائع ، وأسماء الآلات .. كالخياطة . . والحدادة . . والنجارة .. والغزل . . والنسج . . والفلاحة . . والصيد . . والغوص . . والصياغة .. والزجاجة .. والفخارة .. والملاحة .. والكتابة .. والخبز . . والطبخ ..

والقصارة . . والجزارة . . والبيع والشراء . . والصبغ . . والحجارة . . والكيالة . . والوزن . . والرمى . . وفيه من أسماء الآلات ضروب والمأكولات والمشروبات . . وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله : ما فرطنا فى الكتاب من شىء .

وهذا منهج فى التفسير غريب جداً عن مقصد القرآن وهدايته ، لأن هذه العلوم والفنون ، والصنائع والآلات التى عرض لذكرها هذا المفسر . وجعلها من العلوم التى احتواها القرآن لم يكن المقصود من ورودها فى القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام فى ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها فى آيات القرآن ، أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث فى تفسيره كما تبحث فى مصانعها ومعاملها بآلاتها ووسائلها التجريبيه الخاصة، لأن ذلك مما لا ينبغى أن يكون مما يعرض له القرآن ، لأن القرآن لم ينزله الله كتاب فن وصناعة وإنما أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

وقد سلك نحو هذا المسلك فى الإشارة إلى جمع القرآن للعلوم مع اختلاف الأسلوب الإمام أبو حامد الغزالى ، فذكر فى كتابه « إحياء العلوم » أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ، ومائتى علم ، ثم فصل فى كتاب « جواهر القرآن » ما أجمله فى « الإحياء » فذكر من العلوم التى احتواها القرآن ، علم الطب ، والنجوم ، وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه ، وعلم السحر ، وعلم الطلسمات ... ثم ذكر بعض الآيات التى تشير إلى بعض الحقائق الكونية فى صدد الاستدلال على عظمة ملك الله وباهر قدرته وبالغ حكمته ، وبين أن فهمها ، وبيان ما فيها من دلالة على مقصودها لا يقوم به إلا من فهم العلم الذى تشير إليه ، فذكر الشفاء والمرض فى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : (وإذا مرضت فهو

يشفين) وقال : فهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه ، ثم قال : ومن معرفة الله تعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان ، وقد قال تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) وقال تعالى (وقدراه منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال : (وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) وقال : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وقال : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما ، وولوج الليل فى النهار ،
وقال : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما ، وولوج الليل فى النهار ،
وكيفية تكرر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض ، وهو علم برأسه ، ولا يعرف كمال معنى قوله : (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً ، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها .

وهذا المسلك إذا نظر إليه فى ضوء الهداية القرآنية — التى تستهدف بيان مقاصد القرآن فى الكشف عن الحقائق الكونيه لتتبين دلالتها على عظمة خالقها ووحدانيته ، وباهر قدرته ، وبالغ حكمته ، ومحكم تدبيره لملكوته — كان مسلكا علمياً صحيحاً فى تفسير القرآن ، على معنى أن من يتعرض لتفسير القرآن يجب أن يكون متضلعاً من العلوم الشرعية أصولا وفروعاً ، ومن الفنون العربية بجميع ضروبها المختلفة ، وأن يكون متشبعاً من العلوم الكونية ، ملماً بحقائقها ، ليستطيع فى ظلها وظل العلوم الشرعية

والعربية أن يتبين معالم الهداية القرآنية فى إقامة الحجة على مقاصد القرآن، فسبيل هذه العلوم الكونية فى تفسير القرآن سبيل غيرها من الوسائل التى تساعد على فهم النص القرآنى فهما يحقق الغرض منه .

وليس سبيلها أن تكون بنظرياتها تفسيراً للقرآن ، ولا أن تكون مما يعتقد أن القرآن قصد إليها فى آياته لتحمل عليها فى تفسيرها ، وهذا هو ما يظهر أنه مقصود الإمام الغزالى كما يدل عليه قوله تعقيباً على قوله تعالى: (وإذا مرضت فهو يشفين) وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، وهكذا فى تعقيباته على سائر ما ساقه من الآيات الكونية .

وقد جاء بعد الغزالى الإمام فخر الدين الرازى فحاول أن يطبق هذا المنهج العلمى فى تفسيره ، غير أنه بالغ فى الإيمان بنظريات العلم الكونى الذى عرفه العقل البشرى فى عصره مبالغة طمست معالم الهداية القرآنية ، وصرفت الآيات عن مقاصدها فى الهواية إلى التوغل فى بحوث علمية جافة ، ونظريات فلسفية معقدة .

فأنت تراه فى تفسير قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض فراشاً) يذكر كلاماً يؤمن به ويعتقده ، فى الدلالة على كون الأرض فراشاً للخلق لا تسلمه له النظريات المستحدثة ، فهذه النظريات انتهت إلى بداهة أن الأرض متحركة بدورانها حول الشمس ، فهو يقول : إعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور ، الشرط الأول كونها ساكنة ، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة ، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً لنا على الإطلاق ، لأن من طفر من موضع عال كان يجب أن لا يصل إلى الأرض ، لأن الأرض هاوية ، وذلك الإنسان هاو ، والأرض أثقل من الإنسان ، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما

والأبطأ لا يلحق الاسرع ، فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض ، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً .

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكمل انتفاعنا بها ، لأن حركة الأرض مثلا إذا كانت إلى المشرق ، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب ، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد ، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فهى ساكنة .

ثم ذهب يذكر سبب هذا السكون الذى زعم أنه قد تم له البرهنة عليه فأطال رشاء القول ، وذهب فيه كل مذهب إلا مذهب الإبانة عن هداية القرآن فى آيات الله الكونية .

ثم عاد الرازى إلى منهجه وأسلوبه فى تطبيق النظريات العلمية فى عصره على تفسير آيات القرآن فكتب فى تفسير قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) نحو خمس وعشرين صفحة من الحجم الكبير فى فصول ، الأول منها (فى ترتيب الأفلاك) والثانى (فى معرفة الأفلاك) والثالث (فى مقادير الحركات) والرابع (فى كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع) وهذه الفصول فى أحوال السموات فقط ، وقد ذكر أنه كتب ذلك على الوجه المختصر الذى يليق بهذا الموضع ، ثم رجع إلى الأرض وذكر فى أحوالها فصلا ، وفى بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الصانع فصلا اخر . وهكذا أتخم الرازى كتابه بنظريات العلم الذى ملأ عصره وجعل هذه النظريات تفسيراً لكتاب الله تعالى ، وقد نقض العلم نفسه تلك النظريات بنظريات أخرى قد ينقضها فى المستقبل القريب أو البعيد .

هذا المنزع الذى نزع به طائفة من العلماء فى تفسير القرآن بإدخال نظريات العلم التى هى نتاج تفكير بشرى على مناهج التفسير ، وتحكيم تلك النظريات فى معانى القرآن حمل طائفة من العلماء القدامى والمحدثين على الوقوف فى مقابلة أولئك ، زاعمين أنه لا ينبغى مطلقاً أن تدخل نظريات العلم ساحة تفسير القرآن بل لا ينبغى أن يستعان بشىء من هذه النظريات على تبيين معانى القرآن .

وأظهر من يمثل هذا الطرف الإمام « الشاطبي » صاحب كتاب « الموافقات » فانه رحمه الله ذهب مذهباً عجيباً لا يلائم منصبه فى العلم وحرية التفكير ، ونباهة الذكر ، يذهب الإمام « الشاطبي » إلى أن شريعة الإسلام شريعة أمية ، لأن أهلها كذلك ، وهذا أجرى وأوفق باعتبار المصالح التى يقصدها الشارع من التشريع . ثم راح « الشاطبي » يسوق الأدلة من الكتاب والسنة على مازعمه من أن الشريعة الإسلامية شريعة أمية ، لا تقوم على العلم بأوسع معانيه ، ولا على التفكير العقلى بأبلغ مراميه ، وساق الآيات والأحاديث التى جاءت لإثبات أمية النبي صلى الله عليه وسلم تحقيقاً لمعجزة القرآن الكريم وإظهاراً لدلالته على صدق رسالة من أرسل به محمد خاتم النبيين ، والتى جاءت للتنبيه على واقع الأمة العربية فى أنها أمة أمية لم تكن تعرف العلم بالتعلم والمدارسة والكتابة والقراءة ، وأنها اختيرت على وصفها هذا لحمل أعظم رسالة سماوية تؤاخى العقل وتظاهر العلم ، وتحمل أمانة خلافة الله فى الأرض بإقامة معالم التفكير الإنسانى ودفع العقل إلى مجالات الفتوحات العلمية فى ميادين الوجود السماوية والأرضية ، وذلك أثبت فى إثبات معجزة القرآن وشريعته .

وموقف « الشاطبي » فى هذه القضية متهافت لا يقوم على دعائم من الأصول القوية التى تسنده ، إذ لا دخل أبداً لأمية النبي صلى الله عليه وسلم

التى فسرها العلماء بأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يكتب ولا يقرأ ، وأنه لم يجلس إلى العلماء لمدارسة العلم عن الكتب والصحف . كما يشير إلى ذلك ما ساقه « الشاطبي » نفسه فى أدلته من نحو قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته)[1] وقوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون[2]) ،

ويسوق « الشاطبي » دليلا عقلياً على مدعاه ، وهذا الدليل عند التأمل عليه لا له . فيقول : إن الشريعة التى بعث بها النبي الأمى صلى الله عليه وسلم إلى العرب خصوصاً وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أو لا تكون كذلك ، فإن كانت على نسبة ما هم عليه من الأمية فهو معنى كونها شريعة أمية ، أى منسوبة إلى الأميين ، وإن لم تكن على نسبة ما هم عليه من الأمية لزم أن تكون على غير ما عهدوا ، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها ، فلا بد أن تكون على ما يعهدون . والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله من الأمية فالشريعة إذاً أمية .

ونحن حين نناقش هذا الدليل نعكسه على الشيخ الإمام « الشاطبي » فنقول إن الشريعة التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ، وفيهم العرب الأميون إما أن تكون على نسبة ما كان وتكون عليه عامة الإنسانية كلها فى أممها وشعوبها من العلم والمعرفة الحاصلة والمتجددة إلى يوم القيامة أو لا تكون كذلك ، فإن كانت على نسبة ما عليه الإنسانية المبعوث إليها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من حصائل الفكر الإنسانى

---

(١) سورة الاعراف آية (١٥٨)

(٢) سورة العنكبوت آية (٤٨)

فى العلم والمعرفة ، وما يكون لهـا فى مستقبل حياتها من التفـكير العلمى المستكشف لحقائق الـكون وأسرار الطبيعة وذلك هو معنى كونها شريعة علمية أى منسوبة إلى العلم والمعرفة ، على معنى أن كتابها الذى هو دستورها الأعظم فتح للعقل الإنسانى مجالات البحث والتفـكير ، وحث على العلم والمعرفة بما لم يبلغه كتاب سواه .

وإن لم تـكن شريعة الإسلام على نسبة ما عليه الإنسانية وما يكون لها فى مستقبل حياتها من العلم والمعرفة لزم أن تـكون هذه الشريعة على غير ما تعهد الإنسانية وما تعرف من تاريخها العلمى وأطوارها الفـكرية فى المعرفة ، فلم تـكن لتنزل من أنفس الأمم والشعوب العاملة التى تعنى بالمعرفة وحصيلة الفـكر الإنسانى المتجددة منزله ماعهدوا ، وذلك خلاف ما جاءت به الشريعة ووضع عليه أمرها ، فلا بد أن تـكون على ما تعهد الإنسانية وتعرف من واقعها وتاريخها العلمى ، فالشريعة إذاً علمية ، لا تقف أبداً دون البحث العلمى ، ولا تأبى أن تؤاخى العلم والمعرفة ، وهى بهذا تنافى الأمية فى طبيعتها وحقيقتها ، وأمية نبيها صلى الله عليه وسلم مفخرة لها ومعجزة لبنيها وكتابها ، وأمية العرب واقع تاريخى تحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم فى صدد بيان حكم شرعى يتعلق بعامة من كان فى عصره مؤمناً برسالته ، وهم جمهور العرب الذين كانوا أميين لا يقرؤن ولا يحسبون ، ولم يكن الإسلام قد امتـد إلى الأمم التى تقرأ وتحسب وهى بلا شك لو وصلت إليها الدعوة لم يحكم عليها بالأمية التى هى واقع العرب فى وقت نزول الشريعة ، والأحكام الشرعيـة تناط بأعم الوسائل المحققة عند كافة الخلق ، لأن التشريع للكافة لا للخاصة .

ثم ذكر الامام « الشاطبى » دليلا آخر على أن القرآن الـكريم نزل على ما يعهد العرب فقال : لو لم يكن ـ القرآن ـ على ما يعهدون لم يكن عندهم

معجزاً ، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم : هـذا على غير ما عهدنا إذ ليس لنا عهـد بمثل هذا الـكلام من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا ، وهـذا ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به ولذلك قال سبحانه (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمى وعربى) فجعل الحجة على فرض كون القرآن أعجمياً ، ولمـا قالوا (إنما يعلمه بشر) رد الله عليهم بقوله (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) لـكنهم أذعنوا لظهور الحجة ، فدل ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع العجز عن مماثلته .

وهذا الدليل أيضاً يعكس على الامام « الشاطبى » فلقائل أن يقول : لو لم يكن القرآن فى هدايته العامة الشاملة لجميع ما يقوم بحاجة الانسانية الفـكرية والاجتماعية قياما عاما باقياً ببقاء رسالته على الأرض على ما تعهد الإنسانية كلها باعتبارها مدعوة للايمان برسالة القرآن من العلم والمعرفة الشاملين لجميع فنونهما لم يكن عندهم معجزا ، ولـكان كثير من الأمم والشعوب يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم : هـذا القرآن على غير ما عهدنا ونعهد ، فأسلوبه والفاظه وعباراته ليست من أسلوبنا وألفاظنا وعباراتنا ، فليس لنا بأسلوبه والفاظه وعباراته عهد ولا معرفة ، ومعانيه وأفـكاره قاصرة على ما يعهد الأميون من المعانى والأفـكار المعهودة لهم ، وليس فيه مما نعهد من المعانى الفـكرية والأفـكار العلميـة شىء فلا تلزمنا الحجة به .

وماساقه الامام « الشاطبى » من الآيات خاص بأسلوب القرآن وعباراته وألفاظه ، والمراد بها الاحتجاج على العرب بأن التحدى وقع بكتاب عربى مبين ، فلو نزل بأسلوب وعبارات غير عربية لقالوا دفعاً لحجيته عليهم : لولا أنزل بلساننا وعباراتنا ، فاذعانهم لحجيته إنما كان باعتبار

الأسلوب والألفاظ والعبارة ، لا باعتبار معانيه وفنون هدايته وأفكاره وعلومه ومعارفه ، لأن كثيراً من هذه المعانى والأفكار لم يكن من معهود العرب ومعارفهم .

وللامام « الشاطبى » بعض العذر فى وقوفه فى الطرف المقابل لخط القائلين بأن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين فجاء فيه الطب والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة والصنائع التى تتغير و « تتطور » بتغير التفكير و « تطور » الحياة ، وكان هذا من غير شك إغراقاً فى تحميل القرآن ما لم يقصد إليه ، ولذلك نجد « الشاطبى » يصرح بذلك فيقول : إن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها .

* * *

وقضية موقف القرآن العظيم من العلم قديمه وحديثه ، ونظرياته وفنونه وأصوله وفروعه ، وقضاياه ومسائله ، يجب ألا ينظر اليها بهذه النظرة التى ذهب اليها المتحمسون الذين جعلوا القرآن كتابا يحتوى على مسائل العلوم الطبيعية والنظريات التجريبية والحرف والصناعات مما ذكروه .

كما يجب ألا ينظر اليها بهذه النظرة التى تقف بالقرآن فى هدايته ومعانيه عند معهود العرب الأميين ، وإنما يجب أن يجرى النظر فيها على أساس أن القرآن كتاب هداية ودعوة إلى الله الواحد الأحد ، الخالق المبدع ، القادر الحكيم ، الذى أحاط بكل شىء علما ، وأنه أنزل من عند الله بشريعة خاتمة للشرائع الإلهية ، قائمة على نظام شامل للحياة يعتمد على العدل والرحمة .

وقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجته عقلية ، تقوم على النظر فى الكون وآياته فى الأنفس والآفاق ، وبيان ما فيها من آثار اقتدار الله تعالى وحكمته وجلال كبريائه ، ولا يمكن الوصول إلى إقامة هذه الحجة لتكون برهاناً يقنع غير الأميين من أبناء الانسانية فى أرجاء الأرض فى حاضرها ومستقبلها إلا إذا اعتمدت على دعائم العلم والبحث .

والقرآن الكريم أعطى العلم من العناية والرعاية والحث والاغراء ما رفعه فوق جميع خصائص الانسانية ، وفتح باب البحث فى جميع فنونه بصورة لم تعرفها الانسانية لغيره من الكتب ، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق ، ونزيده إيضاحا فيما يأتى :

سلطان العقل والآيات الكونية فى القرآن

إن الله تعالى أمد الإنسان بسلطان العقل ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، ودعاه إلى كشف أسرار الوجود ببذل أقصى الطاقة البشرية التى أودعها الله فيه ، ليعرف جلال الله تعالى فى عظمة ملكه ، وعظيم قدرته فى أبداع خلقه ، وحكمته فى بديع صنعه ، ورحمته فى لطيف تدبيره ، فقال عز شأنه « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم »[١] وقال تبارك وتعالى : « وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٢] وقال سبحانه (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة

(١) سورة البقرة اية ٢٩

(٢) الجاثية اية ١٣ .

وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هـــدى ولا كتاب منير » (١) .

وفى قوله تعالى « خلق لكم »و سخر لكم » نص لا يحتمل التأويل على أن الله تعالى ينبه العقل البشرى فى كافة أفراده بأن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية ، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم إنما كان لأجل الإنسان الذى كرمه الله تعالى بخصيصة العقل وفضله به على سائر ما حواه الوجود من مخلوقات لينتفع به ، ولا شك أن الانتفاع بأى شيء من هذه المخلوقات لا يتم ولا يتحقق إلا بعد معرفة فائدة كل مخلوق من هذه المخلوقات التى أمتن الله بخلقها وتسخيرها للانسان، ومعرفة فائدة المخلوقات لا تتحقق إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلا، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع ، وهذه مهمة تستنفد أعمار الأحياء فى هذه الحياة ، فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية ، هو فى نظر القرآن ، مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض ، لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التى يحيا بها حياة طيبة يغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم . قال الإمام الرازى فى تفسير قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » وأما قوله « لكم » فهو يدل على أن المذكور بعد قوله « خلق » لأجل انتفاعنا فى الدين والدنيا ، أما فى الدنيا فلنصلح أبداننا ولنتقوى به على الطاعات. وأما فى الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها ، وجمع بقوله « ما فى الأرض جميعاً » جميع المنافع ، فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال ، ومنها ما يتصل بضروب الحرف والأمور التى استنبطها العقلاء ، وبين تعالى أن كل ذلك إنما خلقه لكى ننتفع به .

---

(١) لقمان آية ٢٠ .

فهم الآيات الكونية خصيصة العلماء الراسخين

ومما يجرى مجــــرى إيقاظ العقل الإنسانى وتنبيهه إلى تعمق الوجود وكشف حقائقه وتعرف آيات الله فى عناصر ذلك الوجود المفعم فى كل ذرة من ذراته بالأسرار قوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم أن فى ذلك لآيات للعالمين »(١) . ولباب هذه الآية وخلاصة حكمتها تجمع — بعد نثره فى مفرداتها وجملها — فكان فى فاصلتها ، لأن تخصيص « العالمين » بالذكر فى هذه الفاصلة توجيه لذوى العقول المستضيئة بنور العلم إلى البحث عن أسرار آيات الله الكونية فى آفاق السموات وأرجاء الأرض لكشفها ورفع الحجب والأغطية عن حقائقها لتقع من الحياة موقعها ، وينتفع بها الأحياء لأنها مخلوقة لأجلهم ، حتى تظهر خصيصة العلم فى العلماء ويمتازوا ، بها عن سائر العقلاء لانفرادهم بإدراك حقائق آيات الله الكونية التى نصبها الله حجة على وجوده وإحاطة سلطان قدرته وعلمه . وهذا كما قال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلقها إلا العالمون »(٢) تسجيلا لامتياز العلماء القائمين بحجة الله على الخلق فى الأرض ، وبياناً لفوقهم على من باينهم فى المعارف من سائر الناس بإدراكهم ما وراء حجب الحس المادى فهما لمرامى إشارات الله تعالى فى دلائله الآفاقية والأنفسية ، وقد جاء التصريح ببعض مظاهر هذا الامتياز الذى — اختص به العلماء بالله لإدراكهم أسرار آياته الكونية فى سورة فاطر ، حيث أثنى عليهم هذا الثناء الذى تتقطع له أعناق الربانيين فوصفهم باختصاصهم بخشيته فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وسياق هذه المدحة العظيمة بين جلى فى أن المراد من العلماء المميزين بهذا المقام هم

---

(١) سورة الروم آية (٢٢) . (٢) سورة العنكبوت أية ٤٣ .

العلماء بالله الذين عرفوه بمعرفة آياته فى خلقه معرفة تقوم على إدراك أسرار ظواهر ما خلق من أشياء ، والمتأمل فى موقع هذه المدحة مما سبقها يفهم من هم العلماء فى هذا المقام . قال عز شأنه « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء أن الله عزيز غفور » (١) فالذين علموا — بعد البحث — حكمة الله فى إنزاله الماء من السماء وكيفية تجمع هذا الماء فى مكانه ، والذين علموا بديع صنع الله تعالى فى إحداث ما يحدث من تفاعلات العناصر الحية فى باطن الأرض حتى تتكون فيها أجنة الثمرات المختلفة فى طعومها وألوانها وإشكالها ومقاديرها فتخرج باذن الله طيبة شهية نافعة كما قال تعالى « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (٢) .

والذين علموا صنع الله وعظيم قدرته فى خلقه ، ونظروا نظرة تدبر إلى خلق الجبال وتلوينها من طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الألوان والمنافع بين بيض وحمر وسود والذى ينظر نظر تدبر فى خلق الناس وتكوينهم وفى الدواب وخلقها واختلاف الألوان فى الناس والدواب هو الذى يصدق عليه وصف العالم بالله الذى يعرفه بجلاله حق معرفته ويخشاه حق خشيته .

أسلوب الآيات الكونية فى القرآن

والقرآن الكريم أكثر جداً من الآيات الكونية ، لكنه ساقها فى أساليب مختلفة ، وألوان شتى من التعبير ، يفصل مرة ، ويجمل أخرى ، ولكل مقام مقال ، يذكر الشىء مع قرينه وصاحبه ، ثم يفرده ليذكر حكمته

---

(١) سورة فاطر آية ٣٨ وقد قدمنا نحو هذا الحديث فى هذه الآية وسقناه هنا للمناسبة .

(٢) سورة الحج آية (٥) .

المستقلة بوجوده، ودلالته، ثم يعود إلى صاحبه فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقيم، يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم — الاستدلال بها لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس والحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بوساطتها — في أوائل خطوه نحو الحقائق الكونية — الروابط العنصرية والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها، فيحكم ويستنبط.

وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيهاً لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عوالم الارض إلى أفاق السماء، لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجل وأعظم مما أودع في الأرض، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجداناتهم ويوقظ أحساسهم لتتوثق عرى الإيمان القطعي في قلوبهم.

والمقام هنا لا يتسع لاستيعاب الآيات الكونية التي جاء بها القرآن الحكيم لكثرتها واختلاف مسافاتها، وهي مبثوثة فيه، تنساب في محيطه، وتتخلل سوره فقلما تخلو سورة من سوره الكريمة من لون من ألوانها أو لفتة إلى ظاهرة من ظواهرها.

وحسبنا أن نشير على سبيل المثال والشاهد إلى قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعلقون)[١] وإلى قوله

---

(١) سورة البقرة (١٦٤).

جل شأنه في سورة آل عمران : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب)[1] ففى الآية الأولى تفصيل بالتنصيص على آيات هى دلائل قاطعة على وجود الله وقدرته وحكمته ، وهى أيضاً نعم من الله على عباده ينتفعون بها فى معاشهم وذلك أنجع فى البيان ، كما سبقت الإشارة إليه .

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)[2] ففيه إرشاد إلى النظر التفصيلى بما اشتمل عليه من تعميم الجزئيات فى قوله : (وما خلق الله من شيء) وقد جاء هذا التعميم الكلى فى قوله : (ملكوت السموات والأرض) لبيان أن جملة الكون دليل قاهر على وجود الصانع الحكيم ، وإن كل ذرة من ذراته برهان مستقل فى الدلالة عليه سبحانه ، والإجمال يناسب العوام ومن كان على شاكلتهم فى عدم الخوض فى بحار الدلائل الكونية بالتفصيل .

وعلى ضوء هذا ننظر فى قوله تعالى من سورة يونس : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض)[3] لنجد إجماله مفصلا بعض التفصيل المنبه على مواطن الهداية والاستدلال بذكر آيات النعم ، وبيان جهات المنافع فى تسخيرها ، وذلك فى قوله تعالى من السورة نفسها : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)[4] وتأمل قوله : (جعل الشمس ضياء) وقوله : (والقمر نوراً) وقوله : (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين الحساب) أفيفرد القرآن الحكيم وهو بصدد إقامة

---

(١) ال عمران اية (١٢٠).
(٢) الأعراف اية (١٨٥) .
(٣) يواس اية (٣) .
(٤) يونس اية (٥) .

البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته ، الشمس بخصيصة الضياء ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين ؟ وهل يتم الاستدلال بهما على الغرض الذى سيقا بوصفهما لإثباته دون معرفة العلة فى هذه التفرقة ؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلا يكون من البداهة أن يطلب من القوامين على فهم القرآن أن يحيطوا علماً بالظواهر العلمية الطبيعية التى تميز طبيعة الضياء عن طبيعة النور حتى يمكن فهم الآية على حقيقتها التى أنزلها الله فى كتابه من أجلها ؟ ثم ألا يكون من البداهة — لأجل فهم الآية فهما مثمراً — أن يطلب من القوامين على دراسة القرآن أن يحيطوا علماً بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التى جعلها الله « ضياء » وببعض الظواهر الطبيعية للقمر الذى جعله الله « نوراً » حتى يتبين للدارسين ولمن ينقلون إليهم معانى القرآن فى آياته الكونية موقع وصف كل من الكوكبين — بوصفه الملائم لطبيعته موقعه ، ومن هنا تجىء نتيجة البرهان على صدق الدعوى بتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التى خلقه الله عليها بحكمته واختياره .

موقف علماء الإسلام من الآيات الكونية فى القرآن

والعجب إن كثيراً من أئمتنا من حكماء الإسلام وعلمائه لم يغفلوا هذا النظر عند دراستهم لآيات القرآن الكونية باعتبارها دلائل إقامها الله تعالى على وجوده وباهر قدرته وجلال كبريائه ، بل خاضوا بحاره ، بقدر ما وسعه علمهم ومعارفهم ، ووسائل الفكر والمعرفة فى عصورهم ، قال الإمام الفخر الرازى : الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال الأجسام فى ذواتها متماثلة ، وفى ماهياتها متساوية ، ومتى كان الأمر كذلك كان إختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر ،

وإختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل المختار ، ثم بين تساوى الأجسام وماهياتها فى الحجمية والتحيز والجرمية ، وقال : وإذا ثبت أن الأجسام متماثلة فى ذواتها ، متساوية فى ماهياتها ، كانت متساوية فى جميع لوازم الماهية فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقى، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر ، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر وبالعكس وإذا كان كذلك وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر ، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وإيجاد موجد ، وتقدير مقدر ، وذلك هو المطلوب فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) .

ومعنى هذا فى كلام الإمام وأسلوبه الاصطلاحى بأسلوب متقارب إن المادة فى حقيقتها الأولى واحدة فى ذاتها فإذا عرض لها اختصاص بطبيعة خاصة ، تقبل بسببها بعض اللوازم والعوارض وتختص منها الشمس بالضوء ويختص القمر بالنور كان ذلك بترجيح مرجح ، وتخصيص مخصص ، وإيجاد موجد ، وتقدير مقدر ، وذلك المخصص والمرجح والموجد والمقدر هو الله تعالى ، وهذا هو الغرض الذى سيقت الآية لإثباته وتحقيقه فى البرهنة على قدرة الله ووراء ذلك معان كثيرة تتفجر من ينابيع الآية إذا فجرها العقل بالنظر فى عناصر الموجودات وخصائصها لينتفع بها الإنسان فأنت ترى هذا الإمام الحكيم لم يقف مع الآية عند أسلوبها البلاغى المعجز ببراعة بيانها ولكنه أدار البحث حول الآيات الكونية فيها ، وفى كيفية دلالتها على الغرض المقصود منها حسب معارف عصره ، وأسلوب العلم فى ذلك العصر .

ثم ألا يكون من البداهة أن يطلب من القوامين على فهم القرآن فهما علمياً صحيحاً أن يحيطوا علماً بمنازل القمر وسيره فى تلك المنازل وكيفية

علم عدد السنين والحساب من معرفة تلك المنازل وسير القمر فيها ؟ وهل للشمس سير ومنازل كسير القمر ومنازله ، وهل لها دخل فى علم عدد السنين والحساب ؟ بلى ، كل ذلك يجب أن يعلم ، ولقد علم أسلافنا من ذلك ما بلغ إليه جهدهم ، وبهذا العلم استعانوا على تفسير هذه الآيات وأمثالها .

ثم كيف يستطيع القوامون على دراسة القرآن الحكيم فهم قوله تعالى فى ختام الآية : (ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) فيما يدعون به الناس — ولا سيما الماديون وعلماء الطبيعية والفلك — إلى عقيدة الإسلام المؤسسة على وجود الصانع ، الخلاق العليم ، الواحد الأحد القادر الحكيم ، لو لم يكونوا على علم راسخ بخواص الأفلاك ، وما أودع الله فى أجرامها من القوى حتى يعرف الحق الذى خلقها الله به ، ليقع تفصيل الآيات موقعه من العقول والقلوب لقوم يعلمون ؟ يقول الرازى : قال حكماء الإسلام : هذا يدل على أنه سبحانه أودع فى إجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلى . إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد فى هذا العالم لكان خلقها عبثاً وباطلا وغير مفيد ، وكونها كذلك ينافى هذه الآيات .

وإذا كان آسلافنا من أعلام العلماء ، وحكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم ، ولجج المعارف واقتحموا حصون الأفكار فى أزمانهم ، ولم يتركوا منها مشرعاً إلا وردوه واتخذوا من كافة معارفهم وأفكارهم معيناً لفهم كتاب الله فيما يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبيين هدايته وإقامة حجته ، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه ؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا فى أعصرهم ، وهو نهاية أقدام العقول فى بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم ؟ أو نتقدم فى شجاعة

كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا ، ونخوض فى بحار معارفه بعقولنا التى رباها القرآن الكريم بحكمته وحريته وبراعة أسلوبه . ولطف مدخله ودقة تصويره ، وروائع تناوله لقضايا الحياة والكون ، مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان فى قلوب دراسيه من المؤمنين ؟ .

الجانب الكونى فى القرآن لم يفسر

إن الجانب الكونى فى آيات القران الحكيم ـ وهو جانب مهم جدا ، لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى ، وتوحيده ، وباهر قدرته، وواسع علمه ، ولطيف حكمته وسائر مايجب له تعالى من الكمال — فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه للتفسير والبيان بأسلوب علمى يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه ، ويكشف عما فى الآيات من أسرار وحقائق ناط الله بها كثيرا من منافعنا ومصالحنا فى الدين والدنيا وقد أشار إليها القران فى أياته ودلائله ، وبدأ العلم يكشف عنها الحجب ، ولكن على شرط أن نحذر ، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال فى مهب التجارب ، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير فتقول إنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبى .

والقرآن كتاب الله الذى أحكمت أياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، فهو لايخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم ، وإنما تفسره الحقائق والبراهين التى يحققها البحث العلمى المستند إلى الأصول الإسلامية ، وقضايا العقول المستقيمة .

والنظر فى تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولا إلى تبيين هداية القرآن تبييناً علمياً ، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية هى تفسير

الآيات القرآنية ومعانيها التى قصدها القران الكريم ، ولكن على أساس أن القرآن الكريم لايصادم علماً ثبت بالبرهان القطعى ثبوتاً لايحتمل الارتياب ، وهذا يتطلب بإلحاح من علماء الإسلام أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة بأوسع معانيهما بقدر ماتتسع له الطاقة البشرية .

والراسخون فى العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية فى حقائق الكون وظواهر الطبيعة إيماناً بجلال الله وعظمة الخلاق العليم لأنهم قرءوا فى لوح الوجود قول خالق الوجود « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير »(١) وقوله « أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى(٢) وقوله « الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »(٣) وإذا احتملت قضية خلق الإنسان من طين الجدل والتأويل فإن قضية جعل الانسال الإنسانية من سلالة من ماء مهين ، لايختلف فيها ملحد مع مؤمن ولا درويني مع آدمى ، لأنها أكبر وأدخل فى الصدق الواقعى من أضخم قضاياهم التجريبية التى يؤمنون بها بل هى أصدق فى نظر التجربة المتكررة التى لم تشذ عنها المرة الواحدة فى ملايين الملايين من السنين من أى قضية تدخل تحت البداهة المسلمة .

والقران الحكيم — دستور الإسلام — هو الكتاب الذى أنزل على النبي الأمى يوجه العقل الإنسانى بكل مامنحه الله من قوة وجبروت إلى النظر فى ملكوت الله ليكشف حقائق الكون ويرفع الحجب عن أسراره ويفسر آياته فى الأنفس وفى الافاق وكلما عظم شأن الكون عظم فى نظر المؤمنين

---

(١) أول سورة الملك (٢) الروم اية ٨

(٣) السجدة اية ٧ ، ٨

جلال المكون الخلاق العظيم وانفتحت مغاليق الإيمان الراسخ أمام العقلاء المتدبرين « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »[١] . « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[٢].

وإذا كان هذا شأن القران فى آيات الله الكونية ، وتوجيه النظر إليها ، فلن يضيق ذرعا بكشف علمى يصل السماء بالأرض ، لو قدر لذلك أن يكون ، بله للسعى لكشف عن حقيقة بعض الكواكب ومعرفة عمارها وما فيها من ألوان الحياة والخلق والأشياء وحسبنا هذا لكتابنا الكريم وديننا القويم ، وسلامة عقيدتنا ، ولا يجمل بنا أن نتطلب من القرآن شرح نظريات العلم والتحدث فى تركيب الأشياء ، وبيان جزئياتها وأشكالها وما يطرأ عليها من تغير كياوى أو طبيعى كما تتحدث كتب الطبيعة والكيمياء والفلك وطبقات الأرض ، لأن القرآن كتاب عقيدة وهداية ، وعبر وتهذيب للنفوس ، وتوجيه للعقول ، وتطهير للأرواح والقلوب ، فإذا عرض لشيء من الإيات الكونية وكثر ماعرض لها — فإنما يعرض لها باعتبارها مصدر هداية إلى عظمة الكون لنصل على ضوئها إلى تعظيم الله خالق الكون ، وما فيه من آيات وأسرار ، لنستفيد بما فيها من منافع خلقها الله لأجلنا فى ديننا ودنيانا .

---

(١) يونس اية ١٠ (٢) سورة الرعد أيات ٢ ، ٣ ، ٤

من نماذج التفسير

سورة الحج هى السورة الثانية والعشرون فى ترتيب المصحف الشريف وقد بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة بنداء عام لأبناء الإنسانية أينما كانوا وكيفما كانوا آمراً لهم أن يتقوا ربهم معتصمين بعواصم الإيمان حذراً من أهوال القيامة ثم اتبع ذلك النداء بوصف القيامة وأهوالها التى تذهل المراضع عن رُضّعها وتلقى حمل الحوامل من بطونها وتذهب بألباب ذوى النهى والجلد حتى تتفلت منهم عُقَل الأعصاب وتنحل روابطها فيحسبهم من يراهم من شدة ما عاينوا من المفظعات الفاجعات سكارى يتهافتون وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)(١) .

والذين تمرسوا بأسلوب القرآن بكثرة ترداد النظر فيه ، وإدمان التفقه فى أسراره يدركون سر التعبير عن يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال مذهلات للعقول بكلمة « الساعة » الدلة على تقليل الزمن حتى لكأنه لحظة تضيق أن يقع فيها شيء ومع ذلك فقد جعلها الله العلى القدير ظرفاً يحوى بين جنباته هذه الأهوال بأحداثها التى أجملت إجمالا فى التصوير يغنى ذوى الألباب عن كل تفصيل ، وهذا لون من إعجاز القرآن فى التعبير بالكلمة المفردة المصورة ذائع فى رياضه اليانعة .

---

(١) أول سورة الحج

البعث فى أسلوب القرآن

ثم تتابعت الآيات البينات متحدثة عن البعث فى هذا اليوم الموصوف مستدلة على إمكانه ووقوعه بما تقر به العقول السليمة (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)(١) .

وهذا استدلال قطعى لا تعوزه أقيسة المناطقة وتعقيدات المتفلسفين، لأنه قائم على مقدمات صادقة تؤمن بها الفطر النقية ، فالذى خلق الإنسان خلقاً بعد خلق وصوره طوراً بعد طور ، بدأ خلقه تراباً ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم جنينا يتحرك فى قرار مكين ، ثم أخرجه طفلا يتنسم أنسام الحياة ، ثم سواه شاباً سوياً ، ورباه حتى جعله شخصاً قوياً ، يعمّر منه من يعمّر حتى يبلغ أرذل العمر فيرتد عقله وتصوراته وعواطفه ومشاعره إلى خلق الطفولية ، ويجهل بعد علم ، ويضعف بعد قوة ، تقول الآية الكريمة مخاطبة الإنسان فى عموم أفراده .

من كانت هـــذه قدرته فى نشأتك الأولى وخلقك وأطوار حياتك المشاهدة لك لا يعجزه إحياؤك بعد موتك وإعادتك بعد فنائك ليوفيك جزاء عملك ، فهو القادر على كل شىء وهو الخلاق العظيم .

وقد تكرر هذا اللون الاستدلالى على البعث فى القرآن الكريم بصور مختلفة فى الإجمال والتفصيل ليقيم الله الحجة على أهل الإلحاد المعاندين وليوثق عرى الإيمان فى قلوب المؤمنين ، وقد جاء فى تعبير مجمل رائع من

---

(١) سورة الحج آية (٥) .

سورة يس (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)(١) وجاء فى سورة « المؤمنون » وهى فى الترتيب عاقبة لسورة الحج (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون)(٢).

وسورة الحج تتبع هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العلمى ليكون لكل ذى نظر من الأنظار المختلفة فى العلوم والمعارف الإنسانية حظه من طرائق الاستدلال القرآنى ، أداء لحق عموم الرسالة وخلودها بعموم خلود الفكر البشرى (وترى الأرض هامـــدة فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)(٣) فهمود الأرض بيبسها وإقفارها من النبات بمنزلة الموت للأحياء واهتزازها بتحرك موادها وتفاعلها ، وربوها بانتفاخ قشرتها إذا أنزل الله عليها المـاء بمنزلة الحياة تسرى فى الموات فيشرق ويتبلج بالبهجة وجمال المنظر ، وفى تعبير القرآن الكريم عن الحالة الأولى بالهمود وعن الحالة الثانية بالاهتزاز والربو ، إعجاز لا يعرفه كلام البشر ، لأنه واقع فى اللفظة المفردة تحمل صورة كاملة لو أريد التعبير عنها فى أسلوب بشرى لتطلبت جملا متعددة ، وهذا باب يكثر فى القرآن الكريم ويمتاز به ، وهو خارج عن الإعجاز الأسلوبى الذى اعتبره البلاغيون ودندنوا حوله ، وفى المقابلة بين الهمود والاهتزاز ضرب من اللطف الفنى فى إطار التعبير .

---

(١) سورة يس آيات (٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩)

(٢) سورة المؤمنون آيات (١٢ ، ١٦) .

(٣) خاتمة اية الحج السابقة

ولما استوى الاستدلال بشقيه التطورى فى خلق الإنسان وفى خلق النبات بما لا يدع مجالا للتوقف فى قبول النتيجة جاءت تلك النتيجة فى صراحة ظافرة كأمر حتمى ، لا يسع العقول السليمة من العناد إنكاره بعد استقامة المقدمات ووضوحها (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)[1] والإشارة التى بدأت بها هذه النتيجة الحتمية تعود إلى ما تقدم من أطوار الخلق فى الحيوان والجماد والنبات ، وكأن الآيات تقول : كان الأمر على وصفنا من الأطوار فى الخلق لأن الله تعالى الذى أحدث بقدرته هذه الأطوار هو وحده الحق الثابت وجوده فلا يتغير لأنه وجوده بذاته لذاته ولا يكون وجود لغيره إلا مستمداً من وجوده وفيض جوده وتسخيره ، ولما كان هذا الأصل فى الإيمان بوجود الله هو الدعامة الأولى فى المقصود من براهين القرآن الكريم اتبعه فى الذكر بما يتبعه فى الوجود ، وهو خلق الحياة فى الموات بطبعه أو بفقد الحياة بعد ظهورها فيه ، وهذا هو قوله تعالى (وأنه يحي الموتى) ثم عقب ذلك بتعميم قهر القدرة الإلهية ببيان أن جميع الأشياء مقهورة بها وفى قبضتها وذلك هو قوله جل شأنه (وأنه على كل شيء قدير) ثم ختمت آيات النتيجة بتحقيق ما ارتاب فيه الجاهلون من الملاحدة والمعاندين بتأكيد أن ساعة الإحياء الثانى آتية لا ريب فيها ببعث الموتى من قبورهم أحياء كأكمل ما تكون الحياة ليلاقى كل عامل جزاء عمله فى دار لا يلحقها الدثور والفناء .

(١) الحج ايتى (٦ ، ٧)

البعث في أسلوب المتكلمين

يقول الإمام الرازي في تفسيره : ثم أنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة .

أحدها — قوله (ذلك بأن الله هو الحق) والحق الموجود الثابت ، فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع ، وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع .

وثانيها — قوله تعالى (وأنه يحيي الموتى) فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات .

وثالثها — قوله (وأنه على كل شيء قدير) يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لابد وأن يكون قادراً على الإعادة .

ورابعها — قوله (وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة في نفسها ، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه .

واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال الإعادة في نفسها ممكنة ، والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها .

أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك

الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة ، والبارىء سبحانه عالم بكل المعلومات ، قادر على كل المقدروات الممكنة وذلك يقتضي القطع بإمكان الإعادة لما قلنا أن تلك الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات ، لأنها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت لها في شيء من الأوقات لأن الأمور الذاتية لا تزول ولو لم تكن قابلة لها في شيء من الأوقات لما كانت حية عاقلة في شيء من الأوقات ، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدا لهذه الصفات .

وأما أن البارىء يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالما بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرا على كل الممكنات ، فيكون قادرا على إيجاد تلك الصفات في تلك الذوات فثبت أن الإعادة في نفسها ممكنة وإنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن ، فثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها ، فإذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها .

فإن قيل : فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة ؟ قلنا: إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات . وعالم بكل المعلومات ، ومتى صح ذلك فقد صح كون الإعادة ممكنة فإن الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين ، ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادرا عالما كقوله (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) فقوله (قل يحييها الذي أنشأها) بيان للقدرة ، وقوله (وهو بكل خلق عليم) بيان للعلم ، أ . هـ كلام الإمام الرازي ، وإنما سقناه على طوله لأمور :

أولها — أن موضوع البعث والمعاد — وقد عرضنا له استطرادا لفكرة

السورة الإجماليـــة — من الموضوعات الدينية التى تتعلق بأصل عقيدة الإيمان الصحيح ، وهو بمعرض التشكيك من ملاحدة أغمار المثقفين بالثقافات المعاصرة غير الإسلاميه الذين لم يعرفوا فيما عرفوا من قضايا الدين ومبادىء الإسلام — إن كانوا قد عرفوا منها شيئا — إلا صورة شائهة محرفة .

وموضوع البعث والمعاد تتفاوت فى الإيمان به وطرائق أدلته العقول، والطريق الذى سلكه الإمام الرازى على ضوء تفسيره للآية الكريمة طريق علمى يقوم على دعائم العقل ، بألفاظ اصطلاحية لايدركها إلا طوائف مخصوصة من أهل العلم والمعرفة .

ثانيها — إننا عرضنا لطريق استدلال القرآن الكريم فوجدناه يسوق هذه المعانى الدقيقة الاصطلاحية المنطقية التى يعتمد عليها المتكلمون — والإمام الرازى أحد طلائعهم — فى صورة تثير الوجدان وتوقظ المشاعر النفسية ، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بهذه الاصطلاحات اللفظية والمعنوية التى لايعرفها اليوم إلا القليل والذين يعرفونها لايقفون معها فى تفكيرهم .

فطريق القرآن الكريم فى الاستدلال وتوجيه العقول والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم ، ونحن لا نقصد إلى شيء من الموازنة ، فانه من البداهة بمكان ألا محل لموازنة بين أسلوب القرآن الحكيم وطرائقه وأى أسلوب آخر ولكننا نقصد إلى توجيه الناظرين فى القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه إلى أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآنى وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل حتى لاتغرق معانيه فى خضم الاصطلاحات الموضوعية فى عصور تاريخية »

كانت لها بها ألف مأنوس ، وكانت لها دواعيها الخاصة فى العصور التى نهدت بين جنباتها .

وهذه دعوة ننادى بها للعمل على إقامة صرح العلوم الإسلامية ، ولا سيما علم التوحيد ودراسته العامة فى مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا على دعائم الأسلوب القرآنى الحكيم ، ولا نرى حرجا من الإبقاء على هذه الطرائق الاصطلاحية فى الدراسات التخصصية .

ثالثها — إنى أحب فيما أكتب من أفكار فى محيط المسائل الدينية ، وخاصة ما يتصل منها بالقرآن المبين لتنشر على الناس أن أستأنس بأفكار أئمتنا من أعلام الإسلام ، فهم الذين سبقونا بالإيمان والعلم والفضل ومهدوا لنا طرائق البحث واقتحموا غمرات المعارف ، فأفاض الله عليهم من فضل جوده ما جعلهم أعلام الهداية فى الأرض ، فكانوا أحق بها وأهلها .

وقد هدتنى تجاربى فى البحث إلى إن الله تعالى جمع فى أفكار هؤلاء الأئمة وتراثهم العلمى الموروث كثيراً مما خطر على قلوب المفكرين فى دائرة الإسلام ومعارفه مما ظنوه مبتكراً ، غير أن هذه الأفكار منثورة فى خضم ما خلفوا من آثار فى المكتبة الإسلامية العظمى فى تاريخ الإسلام .

فعلى الذين يريدون أن ينهضوا بالبحث العلمى فى ظل الأصول الإسلامية أن يقرؤا ويطلعوا ويدمنوا التفتيش فى آثار المتقدمين فيما يقصدون إليه من تفكير فهؤلاء الباحثون هنا وهناك الذين يزعمون لأنفسهم قدرة على الابتكار فى التفكير الإسلامى عليهم أن يروضوا أنفسهم على تحمل مشقة البحث وعناء الإطلاع قبل أن يخرجوا على الناس بما يخرجون به من رأى ، وسيجدون أنهم مسبوقون بما قالوا وما ارتأوا . وإن فى الكثير مما قيل من أفكار السلف خير من جديد هؤلاء .

ولسنا نقصد بهذا إلى أن نجمد أفكار المفكرين ، أو نحجر على العقول ، أو نزعم حبس المعارف على جيل من الناس ، أو عصر من الأعصر ، أو جماعة من الجماعات ، أو فرد من بنى الإنسان ، لا نقصد إلى شيء من ذلك لأن الفكر الإنسانى ينبوع يستمد فيضه من محيط كلمات الله التى لا تنفد ، فلا نستطيع أن نغمط العقول حقها فى الخلق والابتكار ولكننا نقصد إلى نهنهة الغرور عند مراهقى الباحثين ، عساهم أن يعتصموا بحبل التواضع ، ويعرفوا للمتقدمين من أسلافنا حقهم عن إيمان وبصيرة ، ثم هم فى حل ، وراء ذلك أن يطلقوا لعقولهم الأعنة ، وقد يقع الحافر على الحافر — كما يقول أهل الأدب — فيكون للأول فضل السبق ، ويكون للآخر فضل الكشف وكلاهما صاحب فكر ونظر .

نماذج المعاندين

فى تصوير القرآن

هذا : وتمضى السورة الكريمة فى وصف نماذج من أهل العناد والجهالة المتعالمة الذين يجحدون الحق بأواً واستكباراً فى الأرض ، وضعفاً وتهانفاً فى تصاغر الأذلاء أمام المطامع والشهوات ، يجادلون فى آيات الله بغير علم تهدى إليه الفطر السليمة ولا معرفة مكتسبة تنير لهم الطريق ، ولا إيمان بوحى يرشدهم لأهدى سبيل هؤلاء عاقبتهم فى الدنيا الخزى والخذلان ، ومآلهم فى الآخرة عذاب الحريق بسبب ما قدمت أيديهم من العناد والضلال والإضلال .

ثم ذكرت السورة الكريمة لهؤلاء الجهلاء الجاحدين قرناء أغابشة ماكرين يظهرون غير ما يبطنون ، يقفون من الحياة فى طرفها ، لا يستمكنون استعداداً للفرار ساعة يجد الجد ، ويدعو الحق أهله إلى الفداء والبذل فى سبيل أعلاء كلمته ، ودحض كلمة الباطل ، فإن غنموا من

سقط المتاع شيئاً وهم على حرف الحياة كشاردة الغنم تضاحكوا ملء أشداقهم اطمئناناً إلى ما أصابوا فهم كما وصفهم الله تعالى (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) وإن صفرت أيديهم من لعاعات الدنيا ومطاعم البهم واهتزت الأرض من تحتهم ، ومادت بهم مستقراتهم ارتدوا على أعقابهم ناكصين يقولون لأخوانهم الذين كفروا (ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) بيد أنهم من تهافتهم : (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون) .

هذا هو القصص الحق : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد . ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)(١) ومن عجائب الموافقات — إذا صح ما يروى — أن أئمة المفسرين يذكرون مثلا لهذه النماذج الملحدة : النضر بن الحارث ، فيقولون أنها نزلت فى شأنه ، تصف حاله وموقفه من دعوة الحق وهو رجل تقول الرواية التاريخية إنه كان ممن رحل إلى بلاد فارس وأخذ من أساطير مجوسيتها ، وعاد إلى بلده يتشادق بها متعالما على قومه فما أشبه ملاحدة اليوم بملاحدة الأمس فى حديث القرآن وما أشبه الليلة بالبارحة فى أحداث التاريخ لولا صبغة البيئة والعصر والمجتمع .

ولما عرضت السورة بعد ذلك إلى ذكر حال المؤمنين وما أعده الله لهم من الجزاء الأبدى إجمالا وبينت حال من يتردد فى نصرة الحق ، وإن

---

(١) الحج آيات (٨ — ١١)

إنطواءه على الكيد للحق وأهله لا يُذهب غيظه ، لأن نصرهم آت لاشك فيه ، فليقتله الكمد والغيظ ، وأشارت إلى طوائف أهل الملل بأوصافهم وأن الفصل بينهم يوم القيامة بقبول المؤمنين وإعزازهم وخذلان الكافرين وإذلالهم من شأن الله تعالى الذى شهد أفعالهم وأحصاها عليهم — عادت إلى مابدأت به من الاستدلال على عموم القدرة الإلهية غير أن الاستدلال هنا أخذ لوناً جديداً ، فهو استدلال بتسخير الخلق كلهم علويهم وسفليهم لقهر القدرة الإلهية : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء)[1] .

وهنا وقفة للتأمل فى أسلوب القرآن نلمحه فى الفصل بين السُّجَّد من الكائنات فى عوالم الآفاق وغيرها وبين الساجدين من الناس ، فسجود غير الأناسى عام شامل ، لأنه سجود تسخير وتذليل لقهر القدرة الإلهية لا يخرج عنه شيء من الأشياء ، وسجود العقلاء من الناس خاص لا يقع إلا من المؤمنين ، لأنه سجود إستجابة للتكليف بالطاعة ، فعم فى الأول وخص فى الثانى ، فلله ما أبدع هذا الكتاب الحكيم وما أروعه لو وجد من أهله ربانيين يفقهون حكمته ويقومون بنشرها فى الناس هداية ورحمة لأولى الألباب .

الصراع بين الحق والباطل
فى تصوير القرآن

ثم تابعت السورة الآيات فى تصوير الصراع بين الحق والباطل وأهلهما وفى تبيين جزاء المستكبرين على قبول الحق بلون تصويرى مفظع

---

(١) الحج آية (١٨)

يوثب القلوب من مقارها ، ويذيب الأكباد فى منازلها (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق)(١) .

وعلى الذين تقشعر جلودهم من هول هذا العذاب يستعظمونه فى صورته التى صوره بها القرآن فى كل موضع جاء فيه — وإنه لعظيم — إن يتيحوا لعقولهم لحظات من الانطلاق فوق مستوى العواطف المائعة ويضعوا أمام أعينهم صورة هؤلاء المعاندين للحق المخاصمين لأهله الواقفين له ولهم بالمرصاد، يبغونه الغوائل،ويسيمونهم من سوء العذاب ألواناً، يكفرون بالله وقد خلقهم أطواراً ويجحدون نعمته وهم يتقلبون فيها ، ويتخذون من أحط الغرائز مراكب لأهوائهم ، لا يرعون ولا يفيقون ، سكارى بنشوة الإجرام والإفساد فى الأرض ، كلما أحدثوا شراً لاحقوه بشر منه ، لم تكن لهم قلوب يفقهون بها ، ولا عقول تحجزهم عن الفجور ، أهدروا إنسانيتهم بفقدانهم خصائصها فلم يكونوا مستحقين لتكرمتها ، وكانوا فى ميزان الإنصاف أحقاء بهذا العذاب الغليظ ، يخلدون فيه جزاء وفاقا ، ما داموا لم يفيئوا إلى ظل من التوبة والإنابة ولم يكشفوا عن عقولهم وأفئدتهم ران الجحود والبغى والضلال المبين ، وفى كل سطر من كتاب تاريخ البشرية — منذ كانت ، وكانت معها هداية الله بوحيها إلى أبنائها على السنة أنبيائه ورسله ويبينها لهم الصالحون من عباده ، ومنذ كان فيها قابيل وهابيل — شاهد صدق على تحقيق عدل الله تعالى فى شرعة هذا الجزاء المكافىء لجرم أولئك الفجار المعاندين .

---

(١) الحج آيات (١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) .

وحسبك ما تقرأ فى تاريخ غلاظ الرقاب من خراف بنى إسرائيل وقتلهم الأنبياء والصالحين المصلحين من قومهم الذين يأمرونهم بالقسط من أحبارهم ورهبانهم ، بغضاً للحق الذى يدعونهم إليه ، وكفرا به وقد علموا أنه الحق من ربهم ، وحسبك أن تقرأ بعد هذا الصحائف السود لتاريخ محاكم التفتيش للقضاء على الإسلام والمسلمين فى الفردوس المفقود ، وحسبك أيضاً أن تقرأ تاريخ غارات البرابرة والتتار على بلاد الإسلام وعاصمة الخلافة الإسلامية ، وما سفكوا من دماء وهتكوا من محارم ، وحسبك أن تقرأ وقائع الحروب الصليبية وما جرى فيها من أحداث تنادى بأن هؤلاء الصليبيين فقدوا بماران على قلوبهم من أحقاد خبيثة كل معنى إنسانى . وحسبك فى هذا العصر أن تقرأ شيئاً عن كوارث الغاصبين فى الشرق ومآسى التفرقة العنصرية فى الشرق والغرب وإفناء أبناء الإسلام فى ظل الشيوعية الملحدة مما تنخلع لهوله الأفئدة وتتفتت الأكباد أفيكون من العدل أن يستوى هؤلاء فى الجزاء مع من يؤمن بالله وكتبه ورسله ، ويهفوا بالمعصية ؟ ثم يرجع إلى ربه بالتوبة والندم فما أعدل جزاء الله وما أحكم تقديره ، وهو الحكيم الخبير .

وللقرآن الكريم طريقة فى إسلوبه تعتمد على تلوين الخطاب وتلوين الأحداث وتلوين الأخبار ، وتلوين الشخوص والمعالم ، لتتلقاه العقول السليمة يقظة متدبرة وتتلقاه القلوب وجلة راجية ، فتراه يردف الترهيب بالترغيب ، والوعد بالوعيد ، تسكيناً لنفوس المؤمنين ، ليطمئنوا إلى رضاء الله ورحمته ، وازعاجاً للملاحدة المعاندين ليثوبوا إلى عقولهم فيطرقوا أبواب النظر اتقاء عذاب الله وسخطه فهو إذ يذكر جزاء المعاندين يتبعه بذكر جزاء المتقين وترى بين الأسلوبين ، أسلوب الترهيب والوعيد ، وأسلوب الوعد والترغيب ، ما بين الجزاءين ، فذاك أسلوب مجلجل مزعج

يخلع القلوب ، وهذا أسلوب هادىء هدوء الإيمان يسرى فى قلوب المؤمنين (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد)[١] .

الصد عن سبيل الله

ثم أخذت السورة الكريمة فى بيان ديدن المعاندين من أهل الزيغ والالحاد فى إقامة العقبات على طريق الحق وأهله ، ليصدوا عن سبيل الله وخصت الآيات بالذكر الركن الجماعى من أركان الإسلام الذى سميت السورة باسمه وهو الحج إلى بيت الله الحرام ، رمز الوحدة الإســـلامية المقدسة بين أمة الإسلام فى شتى أقطارهم ، فهو قبلتهم الموحدة فى صلاتهم أينما كانوا ، وحيثما حلو من أرض الله ، لتتوحد قلوبهم وأهدافهم وآمالهم بعد توحد اتجاههم فى أعظم ركن يتمحض فيه ذل العبودية لجلال الربوبية وهو الصلاة عماد الإسلام (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره)[٢] .

والحج عبادة فيها امتحان لاخلاص العبودية لله بالتسليم لأحكامه والمسارعة إلى أداء ما تعلو حكمته على متناول العقول من العبادات وهو أيضا عبادة فيها امتحان لاخلاص الفرد للجماعة وامتزاجه فيها حتى كأنه عرق ينبض بدمها فى جسمه ، يحس باحساسها ويشعر بشعورها ، لايخالف عليها ولا تخالف عليه ، وهاتان الحكمتان هما سر شريعة الحج فى الإسلام

---

(١) الحج آيتى ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٤٤ .

باعتباره ركنا عبادياً واجتماعياً من أركان هذا الدين القويم ولا يتم نسكه المؤمن إلا إذا أخذ بحظه من كليهما .

يسارع بالامتثال لما ثبت تشريعه من مناسكه دون توقف أو تساؤل لم هذا ؟ ويتعاون مع أخوته المؤمنين ، يشد أزرهم ويشدون أزره ، يعرف عنهم ، ويعرفون عنه ويأخذ منهم ويعطيهم حتى كأنهم أعضاء جسم واحد يحيا بروح واحد .

ومن هنا كان الصد عن البيت الحرام بالوقوف فى وجه قاصديه من المؤمنين ، ووضع العقبات فى سبيل اجتماع المسلمين حوله عظيمة من العظائم الالحادية التى جعلها الله قرينة الكفر به ، وسبباً فى استحقاق عذابه المقيم وسخطه الدائم ، ومثلا مجسما لأبشع صور الصد عن سبيل الله .

ذلك أن البيت الحرام هو بيت الله الأخص الذى جعله لعامة المؤمنين وخاصتهم ، يستوى فيه المقيم فى بلده والطارىء عليه قاصداً لأداء نسكه والتعبد حوله . سواء أكان راعياً أو رعية ، أميراً أو مأموراً ، حاكما أو محكوماً ، لتوثيق عرى الوحدة الايمانية فيما بينه وبين إخوانه من كافة المؤمنين ، فالصد عنه ظلم يجب دفعه بمقاتلة الصادين ومدافعتهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وهذا فى الصد العام ، أى صد الجماعة للجماعة ، أما الصد الفردى فحسابه على الله ، ويدخل فى دائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن قوى عليه من جماعة المسلمين وجب عليه القيام به . روى الغزالى فى الأحياء : أن المهدى الخليفة العباسى قدم مكة فلبث بها ماشاء الله فلما أخذ فى الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلببه بردائه ، ثم هزه وقال له : أنظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه وقد قال الله تعالى (سواء العاكف فيه والباد) من جعل لك هذا ؟ فنظر المهدى فى وجهه ، وكان

يعرفه لأنه من مواليهم فقال : أعبد الله بن مرزوق ؟ قال : نعم ، فأخذ فجىء به إلى بغداد . فكره المهدى أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه فى العامة فجعله فى اصطبل الدواب ليسوس الدواب ، وضموا اليه فرساً عضوضاً سيء الخلق ليعقره الفرس ، فليّن الله تعالى له الفرس ، ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه وأخذ المهدى المفتاح عنده ، فاذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأوذن به المهدى ، فقال له : من أخرجك ؟ فقال : الذى حبسنى فضج المهدى وصاح ، وقال له ما تخاف أن أقتلك ؟ فرفع عبد الله رأسه اليه يضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أو موتاً !! فما زال محبوساً حتى مات المهدى ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة .

وهذه الحادثة تفيد أن عالماً من علماء المسلمين رأى أن تنحية الناس عن البيت الحرام وإخلاءه لطواف فرد من الأفراد ، ولو كان ذلك الفرد هو الخليفة نفسه صد عن البيت الحرام ، يلحقه الزجر الذى تضمنته الآية الكريمة (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم[1]) وهو من قبيل الصد الفردى الذى أهدر حق المؤمن فى بيت ربه وقتاً من الأوقات ، قال عبد الله بن وهب : سألت مالكا عن قول الله تعالى (سواء العاكف فيه والباد) فقال لى مالك : سواء فى السعة والأمن والحق ،

محاربة الصادين عن سبيل الله

ولما كان الصد الجماعى عن البيت الحرام مفسدة من أعظم المفاسد وتعطيلا لركن من أهم اركان الإسلام ، وإقامة عقبات فى سبيل الدعوة إلى الله بالقوة ونصب الحرب مما يجب على جميع المؤمنين مقاومته وإزالته لتأمين البيت لزواره وقصاده بين الله تعالى طريق إزالة هذه المفسدة وتأمين

(١) الحج آية ٢٥

البيت وتمكين قصاده من أداء عباداتهم فى حرية آمنة فقال مبشراً المؤمنين ليشد أزرهم ويقوى عزيمتهم (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور)⁽¹⁾ .

والتعبير بالفعل المضارع بصيغة المفاعلة فى القراءة المشهورة لأشعار المؤمنين بقوة عدوهم وأنه ذو عدد وعدة ، وهـذا شأنه فى متعارف أهل الحرب شأن المدافعة والمداولة الذى لا يطمع فى دفعه من أول جولة ، فلا ينبغى معه التواكل وإهمال الاستعداد بالعدد والعدة ، وعلى هذا النحو فى إيقاظ قوى المدافعة فى جيوش المؤمنين جاءت الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وإسناد المدافعـة بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار إلى الله تعالى تقدمة إلى المؤمنين ببشرى النصر والظفر بأعدائهم لتقوى روحهم ويشتد عزمهم ، لأن الله تعالى وهو القوى القهار هو الذى يتولى الدفاع عن أوليائه المؤمنين ،وهو الذى يقهر بهم أعداءه من كل خوان كفور ، فالمفاعلة ليست فى الواقع الخارجى على بابها من إفادة المشاركة فى أصل الدفع ، تعالى الله القاهر فوق عباده أن تقف قوة فى الأرض أو فى السماء أمام قهره وغلبـــه ، ولـكنها جاءت فى الآية بصيغتها للحكمة التى ذكرناها ، فقول بعض المفسرين : إن « يدافع » بمعنى (يدفع) معناه نفى المشاركة الواقعيـة فى الخارج ؛ وليس معناه استواء الفعلين فى أداء معنى واحد ، فأيهما وقع التعبـير به أدى معنى صاحبه ، لأن القرآن الـكريم لا يستعمل كلمة بصيغة ويريد منها معنى صيغة أخرى دون أن يقصد إلى معنى الصيغة المستعملة .

أما قراءة (إن الله يدفع) وهى سبعية ، قرأ بها أبو عمرو وابن كثير فهى لتمحيض البشارة من أول وهلة للمؤمنين الذين أوذوا ولم يتمكنوا من رد الاعتداء علانية لتسكن قلوبهم إلى وعد الله تعالى انتظارا للإذن الصريح

(١) سورة الحج آية (٣٨)

بالقتال فى حينه عند ما تكتمل أسبابه ، فقد روى أن الآية نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار ، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل من أمكنه من المعتدين احتيالا وغدراً ؛ فنزلت الآية تعدهم وتبشرهم وتنهاهم أشد النهى عن الغدر والخيانة ، وصيغة (خوان كفور) الدالة على المبالغة فى كثرة وقوع الكفر وشدته وعتو الكافرين للإشعار بأن الخيانة وكفران النعمة وجحود الحق والتعالى عن البرهان استكباراً وعنادا ديدن الملحدين الكافرين ، حتى لا يغتر مفتون بظاهر بعض أحوالهم فيما يزعمون لأنفسهم من استقامة السلوك . وقد فجروا على الله ، فهم على خلقه أفجر ، فلا أمان لمن لا إيمان له ، ولا استقامة لمن لم يستقم مع ربه وخالقه .

إعداد القوة لحماية الحق

ثم بين الله تعالى أتم بيان الطريقة التى ينصر بها أولياءه من المؤمنين على أعدائه من الكفرة الخونة الغادرين ، حتى لا يظن أهل البطالة والكسل من القعدة أحلاس الزوايا الذين اثاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة أن الله يدافع عنهم بإنزال نصره وهم قعود يتلاهثون . فقال مبيناً لوعده فى قوله (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)(١) فطريق دفاع الله عن المؤمنين إنما هو إذنه لهم فى قتال عدوهم ودفعه بسلاحه ، بعد أن كانوا ممنوعين من الدفاع عن أنفسهم بالمقاتلة ، مأمورين بالصبر واحتمال الأذى مدة إقامتهم بمكة ، وهى ثلاث عشرة سنة ، قال بعض السلف : هذه أول آية نزلت فى الإذن بالقتال دفعاً للاعتداء .

---

(١) سورة الحج آية (٣٩) .

الإسلام قوة وسلام لا ضعف واستسلام

وقد علل الله تعالى الإذن للمؤمنين بقتال عدوهم بأنهم ظُلموا ، فهم لا يقاتلون حباً فى القتال ، ولا تعطشاً لسفك الدماء ولا بغياً على أحد ولكنهم يقاتلون دفاعا عن أنفسهم ، ورداً لاعتداء المعتدين ، ومقاومة لظلم الظالمين ، فالآية نص قاطع على أن الإسلام دين سلام ومسالمة ، لا دين استسلام وتسليم فهو لا يخاف الحرب ولا يجبن عنها ، فالحرب فى حق لديه شريعة ، بيد أنه لا يشعل ثقابها ابتداء ، فاذا أوقدها أعداؤه تقبلها منتصراً للدفاع عن كيانه ، ودفعاً لظلم الطغاة المتجبرين الذين يريدون العلو فى الأرض والفساد فى الخلق ، يخادعون الأقوياء ويستبدون بالضعفاء ، عندئذ يهيب الإسلام بأمته فى صراحه لا تعرف اللف والدوران ، ولا تتشدق بالسلام الزائف المزيف ، ولا ينخدع بزخرف القول ، ولكنه يطلب إلى جنده ، وكل أمته جند الحق ، أن يكونوا أشداء الوطأة على الطغاة المستبدين (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) [١] (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) [٢] (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) [٣] (يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) [٤] (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) [٥] (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) [٦] (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) [٧] (وإن

---

(١) سورة التوبة آية (٥) .
(٢) سورة محمد آية (٤) .
(٣) التوبة آيتى (١٤ ، ١٥)
(٤) سورة التوبة آية (١٢٣)
(٥) البقرة آية (١٩١)
(٦) البقرة آية (١٩٣)
(٧) سورة الأنفال آية (٥٧) .

نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون)[١] .

وهكذا نجد الإسلام ودوداً فى السلم (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)[٢] كما وجدناه صريحاً قوياً فى الحرب ، لايخادع ولا يزيف ، ولا يخون ولا يغدر . (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[٣] (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)[٤] دعائم من الوفاء والقوة ، والرحمة والعدل .

سنة الله فى نصر المظلومين

ثم بين الله تعالى أنه مع المظلومين بنصره ، ولو قل عددهم وكثر عديد عدوهم ، إذا استجاب المظلومون من أهل الإيمان لسنة الله ، فأعدوا لمن ظلمهم واعتدى على حرماتهم سلاحاً مثل سلاحه ، وواجهوه قوة موحدة فقال : (وإن الله على نصرهم لقدير) وهذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين ، وقد صدق الله وعده ، وأعز جنده ، ونصر المؤمنين على قلتهم يوم أن واجهوا عدوهم أمة موحدة ، لم تفرقها الأهواء والشهوات ، نصرهم فى غزوة بدر ، ونصرهم فى فتح مكة ، ونصرهم على الأحزاب فى غزوة الخندق ، ونصرهم على تكتلات الباطل فى حنين ، ونصرهم فى حروب الردة ونصرهم فى الفتوحات على جحافل فارس والروم ، فاستولوا على مملكة الفرس ، وطردوا الروم من الشام ومصر ، وأعادوهما إلى حظيرة العروبة فى ظل الإسلام ، ونصرهم على جيوش التتار فى عين جالوت ، ونصرهم على تألبات الصليبيين فى حطين ، ونصرهم رأى أعيننا على تكتلات المعتدين علنيا فى معركة الحرية فى بور سعيد .

---

(١) التوبة آية (١٢)
(٢) سورة الممتحنة آية (٨)
(٣) الأنفال آية (٥٨) .
(٤) سورة الأنفال آية (٦١)

فى كل هذه الانتصارات التى حفظها التاريخ واضحة المعالم ، كان عدد المسلمين أقل بمراحل واسعة من عدد عدوهم ، وكانت عدتهم وسلاحهم ليست كعدة وسلاح عدوهم ، ولكنهم انتصروا انتصاراً داوياً ، لأنهم واجهوا عدوهم مجتمعة كلمتهم ، موحدة قوتهم ، فكانوا كما أمرهم الله أمة واحدة وجيشاً واحداً ، يدافعون عن الحق ، ويقاومون الفساد والظلم ويرفعون راية العدل .

وقد تكرر هذا الوعد الحق فى القرآن الكريم ، قال تعالى : (لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون)[1] وقال تعالى: (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً[2]) وفحوى الخطاب واضح فى أن النصر معقود للأمة الإسلامية باعتبارها أمة واحدة تربطها وحدة الإيمان ، يستنصرون الله فينصرهم بوحدتهم تحقيقاً لوعد الله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

أقبح مظاهر الظلم

ثم بين الله تعالى أن أقبح صور الظلم وأبشع مظاهره التى توجب على المظلومين أن ينهضوا موحدين فى جهودهم لقتال ظالميهم من الطغاة المتجبرين ، إنما هو تشريد الآمنين وإخراجهم من ديارهم ظلماً وعدواناً دون ذنب جنوه ، أو إثم اقترفوه سوى تمسكهم بحرية العقيدة وإيمانهم بالواحد القهار ، فقال : (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) ومعنى ذلك أن هؤلاء الظالمين الطغاة تجردوا من حقيقة إنسانيتهم ، وعادوا غلاظ الأكباد قساة القلوب فاقدى الضمائر باعتدائهم على هؤلاء الآمنين فأخرجوهم من ديارهم ، وشردوهم عن أوطانهم ،

(١) سورة آل عمران آية (١١١) .　　(٢) سورة الفتح آية (٢٢) .

معرضين لشتى صنوف الآلام تتعاورهم ، هكذا بغياً وعدوا ، بغير جريرة سوى تمسكهم بحق الإيمان وقولهم ربنا الله .

التدافع ميزان الكون

ثم ذكر الله تعالى أن إذنه للمظلومين فى قتال الظالمين سنة من سننه الكونية التى أقام عليها دعائم العمران والاستقرار فى الوجود كله فى كل جيل وأمة وعصر يدفع بسنة التدافع بين أهل الخير والصلاح وأهل الشر والفساد شر الظالمين وفساد المفسدين (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً)[1] أى ولولا إذن الله تعالى للمظلومين فى قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة لاستشرى الفساد فى الأرض وانتهكت الحرمات وضاعت معالم الخير ، بضراوة أهل الظلم والطغيان ، فتهديم مواضع العبادة فى الأمم والأجيال التى لعبادتها أصل إلهى وتخريبها ، عنوان على أقبح صور الإفساد فى الأرض ، لأنه هتك لسياج الحرمات الفردية والجماعية فى أقدس مقدساتها .

وإذن الله تعالى للمظلومين أن يردوا العدوان بمثل قوته وسلاحه ، ويثأروا لأنفسهم من ظالميهم بقتالهم لحماية الحق والخير عنوان على أرفع صور الإصلاح فى الأرض .

أسلوب بيان الآية لسنة الله

وهذا المعنى واضح بين من نص أسلوب الآية حتى لكأنها لا تحتمل غيره ويؤكده تأكيداً قوياً ورود الآية عقيب آية الإذن للمظلومين فى قتال الظالمين قال الإمام الرازى : فإن قيل : ما المراد بهذا الدفاع الذى أضافه الله تعالى إلى

---

(١) الحج آية (٤٠) .

نفسه ؟ — يعنى الدفاع فى قوله (إن الله يدافع) الذى جاء قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) كالبيان له ، والجواب أن المراد بهذا الدفاع هو أذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى : ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم فى جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان ، وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة .

وقال القرطبى فى قوله (أذن الذين يقاتلون) هذا بيان قوله (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) أى يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال وينصرهم ثم قال فى قوله (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما يبنيه أهل الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أذن فى القتال فليقاتل المؤمنون ، ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله (ولولا دفع الله الناس) الآية أى لولا القتال والجهاد لتغلب الباطل على الحق فى كل أمة .

هذا المعنى المحكم هو عينه المعنى الذى جاء فى سورة البقرة بلفظ النص سواء ، قال الله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وكما جاءت آية الحج عقيب إذن الله تعالى للمؤمنين فى قتال الكفرة الظالمين فكانت مؤكدة لشرعية القتال لدفع الظلم وتأمين الحياة فى أقدس مظاهرها جاءت آية البقرة عقيب قصة دفع جالوت وجنوده من نماذج الظلم والطغيان بجند طالوت من أهل الخير والإيمان ، وهذا كالصريح فى أن المراد بدفع الله

الناس بعضهم ببعض تسليط أهل الصلاح والبر على أهل الفساد والفجور لينتصفوا منهم ، ويقيموا عليهم ميزان الحق والعدل ، ويأمن أهل الأديان على قداسة حرياتهم .

أية الدفع فى البقرة رضيعة أية الحج

وفى آية البقرة يقول الإمام الرازى : إعلم أنه تعالى لما بين أن الفساد الواقع بجالوت وجنوده زال بما كان من طالوت وجنوده وبما كان من قتل داود جالوت بين عقيب ذلك جملة تشتمل كل تفصيل فى هذا الباب ، وهو أنه تعالى يدفع الناس بعضهم ببعض لـكى لا تفسد الأرض فقال : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وهذا كلام يتسق تمام الاتساق مع كلامه الذى أشرنا إليه فى آية الحج ، فالآيتان من واد واحد هو وادى الجهاد ، ودفع الظالمين ورد اعتداء المعتدين .

بيد أن آية البقرة أجملت نتيجة عدم دفع الله الناس بعضهم ببعض باستسلام أهل الخير والصلاح لأهل الشر والفساد ، فجعلتها فساد الأرض ومعناه شيوع الهرج والمرج وإثارة الفتن وإستطالة الظالمين ، وذيوع الـكفر والالحاد واستحواذ القلق والاضطراب والفزع على قلوب الضعفاء المظلومين فلا يستطيع متعبد لله أن يتعبد ، ولا يأمن مؤمن أن يظهر إيمانه ولا يتمكن مسلوب الحق مهدر الـكرامة أن يجأر بشكواه ، وإذا اجترأ فجأر بها فلن يجد سميعاً ، ومن ثم تتلف أعصاب الناس وتـكثر فيهم الأمراض الفتاكة التى يولدها الـكبت والخوف ويفسد المجتمع الإنسانى فساداً لاصلاح معه وهذا المعنى هو الذى ذكرته آية الحج فى نتيجتها بعنوان تهديم وتخريب مواضع العبادات عند سائر الأمم كأنموذج لأبشع أنواع الفساد التى تترتب

على كف أيدى المؤمنين عن الطغاة الظالمين ، واستكانتهم لهم واستسلامهم لغوائلهم .

القرآن وتنازع البقاء

وقد ذكرنا أن آية المدافعة تقرر سنة من سنن الله الكونية فى المجتمع الإنسانى ، تلك هى سنة التدافع المركوز فى طبيعة البشر لتنازع البقاء فى الحياة ، وأن الحروب ضرورة من ضرورات الاجتماع البشرى على ظهر الأرض لاختلاف مطالب الأفراد والجماعات ، وتشابك مصالحهم ، وما طبعت عليه أنفسهم من الحرص وحب الذات ـ وهذا واقع يصدقه تاريخ الحياة ـ وأن أهل الايمان والخير والصلاح يجب عليهم أن يدفعوا أهل الكفر والنفاق والشر والفساد ، ليقللوا من شرورهم وفسادهم فى الأرض ، ليبقى الوجود متوازن القوى ، عامراً بهذا التدافع الذى يتيح للخير والخيرين البقاء فى نماذج متلاحقة ، تحقيقاً لسنة الله الكونية فى أن البقاء فى هذه الحياة للصالحين أعمالا .

وقد وعد الله المؤمنين — ليربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم — بنصره إياهم ، بالإشارة والعبارة ، أما الإشارة فنى إسناد المدافعة عنهم إلى نفسه ، وأنه جل شأنه هو الذى يتولى الدفاع عنهم ، وفى ذكرهم بوصف الإيمان المتضمن لأنواع الخير والإصلاح « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ، وفى مقابلتهم بذكر الخوان الكفور بعنوان الكراهية والسخط « إن الله لا يحب كل خوان كفور » وفى إذنه للمؤمنين فى قتال الظالمين وتذكيرهم بقدرته على نصرهم على آكد أسلوب « وإن الله على نصرهم لقدير » وفى تعليل هذا الإذن فى القتال بأفحش صور الظلم والطغيان « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وأما وعده إياهم النصر بالعبارة الصريحة ، فني تقفيته لذكر سنة التدافع وما يترتب على إهمال هذه السنة — والتقاعد عن إقامتها والاستعداد لها من قبل المؤمنين الصالحين المصلحين من تعطيل مظاهر الإيمان والاصلاح بتخريب مواضع العبادة ، وإهدار أقدس الحريات — بإخباره صراحة بنصره لأهل الصلاح من المؤمنين ، وعنونته عنهم بأنهم نصراء الله بإقامة أعلام الحق ودفع الظالمين ، وباتباع ذلك بما يخلع قلوب المفسدين ، ويثلج أفئدة المصلحين الصالحين « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وهو نصر مؤكد ، صدره الله بأعظم أنواع التأكيد ، وهو القسم المدلول عليه بأداته ، وفى ذلك تنبيه على أن نصر الله للمؤمنين إنما يكون إذا استقاموا له على ما وصفهم به من الإيمان والأمانة ، وحب الخير لعامة الناس وخاصتهم ، وأخذ الأهبة للدفاع عن الحق والخير ، ونصر الله بنصر دينه، وهذا كما قال تعالى فى سورة محمد : (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

دعائم نصر الله للمؤمنين فى القرآن الحكيم

وقد بين الله تعالى الأمور التى يحقق بها المؤمنون نصرهم لله تعالى ليستجلبوا نصره إياهم ، ويستديموه حليفاً لهم فقال مبيناً خصائص وأوصاف الذين أذن لهم فى القتال انتصافاً لأنفسهم من ظالميهم ، ودفاعاً عن الحق ، وتوطيداً لدعائم الاصلاح ممتناً عليهم بنعمة التمكين فى الأرض (الذين إن مكناهم فى الأرض) أى جعلنا لهم سلطاناً نافذاً ، وآتيناهم قوة يدفعون بها عن الحق قوى الباطل ويستطيعون بها رد الاعتداد وردع الظالمين ، وأوليناهم نعمة التأييد والرعاية ، فلن يغلبوا ما داموا معتصمين بالحق والعدل ، وهذا كما قال تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا

فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض) وآية الحج مسوقة لبيان الامتنان العام على الأمة كلها ، حكاماً ومحكومين ورعاة ورعية ، وولاة ومولى عليهم ، لأن التمكين الممتن به كان للأمة باعتبارها جماعة أهل الحق الذين ظلموا من الطغاة المتجبرين ، وهذا الظلم إنما وقع عليهم بوصفهم الشامل لهم كأمة ممثلة فى أفرادها الذين لحقهم الظلم بضروب الأذى ، وكأمة ممثلة فى مبادئها التى هى دعائم الحق والخير والاصلاح ، لا باعتبار ولاتها الحاكمين فقط . روى أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى خطب الناس يوما فذكر هذه الآية : (الذين إن مكناهم فى الأرض) فقال : ألا إنها ليست على الوالى وحده ، ولكنها على الوالى والمولى عليه ، ألا أنبؤكم بما لكم على الوالى من ذلكم ، وبما للوالى عليكم منه ؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم التى هى أقوم ما استطاع ، وإن له عليكم من ذلكم الطاعة التى لا يخالف سرها علانيتها .

ثم أثنى الله عليهم بما جعله شرطاً فى تحقيق نصره واستدامته ، فقال : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) خص بالذكر ثلاثة أمور من أركان الإسلام وشرائعه ، وجعل تحقيقها شرطاً لتحقق نصر الله لهم .

الدعامة الأولى — الصلاة

أولا — الصلاة . وهى أرفع مظاهر الشكر للخالق المنعم بما فى هيئتها من خضوع وتذلل وخشوع ، وبما اشتملت عليه من أسمى مراتب العبودية لله الواحد الأحد وبما تضمنته من تفريده بالتوجه إليه بما لا ينبغى لسواه، وهى أجل دعائم الإيمان بما فيها من الانقطاع بالاشتغال بها عن كل ماسوى

الله تعالى ، فهى عماد الدين ، من أقامها كاملة بحقيقتها الروحية فقد أقام الدين كله ، ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وجعلت قرة عيني في الصلاة) ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ولهذا اختصت من بين أركان التعبد بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وإلى هذه المعانى أشار عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله فيها « من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » فهى ميزان كمال الإيمان ونقصانه ، ولا دين لتاركها تهاوناً بحقها ، واستهانة بحرمتها ، ولا أمانة لمن لا دين له .

وحديث المخدوعين من الأغرار عن الضمير والأخلاق بغير دين تقام أركانه ويحافظ على شعائره فى سلوك الإنسان ، هراء سخيف ، بل هو شعبة من أخبث شعب الإلحاد والضلال .

الدعامة الثانية — الزكاة

ثانياً — الزكاة ، وهى أخت الصلاة وصاحبتها الملازمة لها فى القرآن ، وهى ركن المال الذى شرعه الله ليكون وسيلة من أهم وسائل التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة ، تربط قلوبهم برباط المودة والمؤاساة والتعاطف ، وتطهر القلوب من الأحقاد : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فتسود المحبة والاخاء بين عامة الأمة وخاصتهم ، ويكونون يداً على من سواهم .

والزكاة ليست إحساناً مذلا ، ولكنها حق واجب ، أوجب الله أخذها من مانعيها قسرا ، ولو أدى ذلك إلى قتالهم ، وقد أنزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة علانية بتألب وتجمع منزلة المرتدين ، وقاتلهم قتالهم سواء بسواء ، وقال فيهم كلمته المشهورة (والله لو منعونى

عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ووافقه على ذلك جميع من حضره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الدعامة الثالثة — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ثالثاً — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما أمران متلازمان فى التعبير القرآنى ، فما ورد أحدهما فى آية من آيات الكتاب الحكيم إلا كان معه صاحبه ، وهما متلازمان على ألسنة الناس ، وفى مقالاتهم ومداد أقلامهم ، ومتلازمان فى واقع الحياة ، فما من معروف يؤمر به ، أو يقع موقعه فى الوجود الواقعى بين الأحياء إلا كان فى ضمنه منكر ينهى عنه ، أو تفقده الحياة وهى قريرة العين بفقده ، وهذه الحقيقة المزدوجة بالإيجاب والسلب ، والاثبات والمحو هى خصيصة الأمة الإسلامية التى كانت بها خير أمة أخرجت للناس يقول الله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

الإيمان بالله عماد كل خير

وقد يبدو غريباً — لأول النظر فى التعبير القرآنى — فى هذه الآية المفضلة للأمة الاسلامية على سائر الناس تقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان بالله فى الذكر والترتيب اللفظى ، مع أن الايمان هو العماد لاعتبار جميع ما يصدر عن الانسان من خير وبر .

ولكن الأمر عند التأمل يكشف عن براعة التعبير القرآنى ، ودقة ترتيبه الأمور على وفق الغرض الذى سيقت لأدائه فى التعبير .

ذلك أن هذه الآية سيقت لبيان أن هذه الأمة المحمدية ادخرها الله فى

ضمير الغيب حتى أخرجها آخر الأمم ، تحمل فى قلبها وروحها خاتمة الهدايات الإلهية ، وأكملها لتخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، فتكون بذلك خير الناس للناس ، ومدار هذه الخيرية يجب أن يتمثل فى اختصاصها بنعوت وحقائق من الأوصاف امتازت بها عن غيرها من الأمم ، ولا يصح أن يكون غيرها مثلها فى تلك الحقائق والنعوت ، والإيمان بالله حقيقة لا تتفاوت فى صحة تحققها ووجودها ، فهو حقيقة واحدة ، أينما وجدت فهي عينها ، وهذه الحقيقة الإيمانية الواحدة كما هى وصف متحقق فى الأمة الإسلامية فقد كانت كذلك وصفاً لغيرها من الأمم السابقة ، فلا اختصاص للأمة الاسلامية بهذه الحقيقة الايمانية بالنسبة للمؤمنين من قبلها ، ولا امتياز لها فيها ، فلا تكون بمجردها خير الناس للناس .

خصيصة امتياز الأمة الإسلامية

وإنما اختصاص الأمة الإسلامية الذى فضلت به على غيرها ، والذى أخرجت من ضمير الغيب ليكون هدفها ، هو بذلها المهج والأرواح فى دعوتها الناس إلى الخير ، بالترغيب فى فعل ما ينبغى من البر والخير والعمل الصالح القائم على العلم والمعرفة والعزة والكرامة ، وهو المعبر عنه بالأمر بالمعروف ، أو الترغيب فى ترك ما لا ينبغى من الكفر بالله والكنود والشر والجهل بأسرار الكون ، وإهدار البحث على مقتضى خصيصة العقل الإنسانى والرضا بالعبودية للمخلوق ، وهو المعبر عنه بالنهى عن المنكر ، وإلى ذلك يشير قول الله تعالى فى الآية الآمرة أمراً تكافلياً (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وتأويله عند علمائنا : كونوا أمة داعية إلى الخير فعلا وتركا .

والمتمرسون بالأسلوب العربى يعلمون من طرائقه أنه يجرى على تقديم ما هو الأصل أو كالأصل فى القصد والعناية لتحقيق الغرض المسوق له الكلام على تقديم ما هو الأصل فى الوقوع الخارجى ؛ فالإيمان بالله تعالى أصل فى اعتبار وقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر موقعهما ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصل فى اختصاص الأمة الإسلامية بكمال أدائهما باعتبارهما الوسيلة الإصلاحية العظمى ، فهى الأمة الوحيدة التى ترى القتال وبذل الأرواح والمهج شريعة لتحقيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أعلى صورهما من الدعوة إلى توحيد الله والنهى عن الشرك والإلحاد ومقاومة الظلم إذا لم يتحققا بغير الجهاد والقتال وهذا هو الذى أوجب خيرية الأمة الإسلامية على سائر الأمم لذلك قدمهما التعبير القرآنى فى الذكر وأخر عنهما الإيمان بالله فى هذه الآية الكريمة .

والاكتفاء فى الآية بذكر الإيمان بالله دون قرنه بذكر الإيمان بالنبوة وغيرها من أشطار الإيمان المعتبر إنما هو لاستلزامه لها وعدم اعتباره بدونها وهو الأصل المتضمن لها . قال الإمام فخر الدين الرازى : الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكون الله تعالى صادقاً فى جميع ما أخبر به ، والإيمان بهذا الصدق لا يحصل إلا إذا كان الذى أظهر المعجز على وفق دعواه صادقاً ، لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فلما شاهدنا ظهور المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيها على هذه الدقيقة . انتهى كلام الرازى .

ونحن ننبه المؤمنين من أهل العلم ومن يستمعون إلى القرآن ويشتغلون به قراءة ودرساً إلى أن هذا الأساس العلمى المنطقى الواضح فى فهم هذه

الآية الكريمة هو الذى يجب أن تفهم على مثله آيات القرآن التى أفردت الإيمان بالله تعالى بالذكر ولم تقرن به الإيمان بالنبوة من نحو قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(١) لا كما يحرفها بعض الملاحدة وتابعهم بعض الأغمار من الجاهلين المغرورين ، وزعموا أن الإيمان بالنبوة ليس شرطاً فى اعتبار الإيمان المنجى من عذاب الله ، وهذا إلحاد فى آيات الله أو جهل بأصول الدين ، لأن الإيمان بالله من غير أن يقرن به الإيمان برسوله لا وزن له ولا اعتبار عند الله لأنه مصادم لتصديق الله لرسوله فى تأييده بالمعجز على وفق دعواه والمصادمة لهذا التصديق رد على الله بالتكذيب ، وليس فوق ذلك كفر وإلحاد . وهؤلاء وأضرابهم هم الذين يقول الله فيهم (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير)(٢) ويقول سبحانه (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم)(٣) وليتأمل هؤلاء المتلاثون فى عقولهم إن كانوا يؤمنون بالكتاب كله قول الله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)(٤) فإن الله تعالى لم يرض منهم بالإيمان حتى يحكموا رسوله وتسلم نفوسهم من الحرج والضيق بحكمه ويسلموا له تسليما .

ويقول عز شأنه : (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)(٥) فقد جعل طاعة رسوله طاعة له .

---

(١) سورة البقرة آية (٦٢) .
(٢) سورة فصلت آية (٤٠) .
(٣) سورة آل عمران آية (١٧٦)
(٤) سورة النساء آية (٦٥) .
(٥) سورة النسا آية (٨٠)

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

أساس الإصلاح فى الإسلام

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هما أساس دعائم الإسلام التى قام عليها بناؤه الاصلاحى فى جميع أدواره التاريخية ، بل هما فى الحقيقة لباب الدعوة الإسلامية من أول سطر فى كتاب تاريخها ، فهما عماد إصلاح الأفراد والجماعات ، بل هما عماد إصلاح العالم لو استطاع الناس أن يقيموا ميزانهما بالحق والعدل .

وليس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يفهم العامة وكثير من الخاصة كلاما وعظياً يلقى هنا وهناك ، وإنما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — كما أقامهما الإسلام فى شريعته — جهاد فى سبيل الحق والخير والعدل والإيمان والأمن ، باليد واللسان والقلب .

مراتب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وعلماؤنا يرون الأمر فى المراتب الثلاث المذكورة فى الحديث الصحيح « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » على التوزيع ، فرتبة اليد إنما تجب على السلطان وصاحب التنفيذ الشرعى ، لأنه هو المكلف إقامة الحدود وله حق التعزير ، ومرتبة اللسان إنما تكون للعلماء لأنهم هم الذين يميزون المعروف فيأمرون به ، ويعرفون المنكر فينهون عنه ، ويتخذون لكل حالة أسلوبها من اللين والشدة ويقدرون الوقائع ويعرفون اختلاف المجتهدين فيها وفى أحكامها ، وهم الذين يمكنهم حملها على محاملها الصحيحة .

ومرتبة الإنكار بالقلب حظ العامة من الناس ، قال الإمام القرطبى :

قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء وولاة الأمور . وباللسان على العلماء وبالقلب على عوام الناس .

وإذا كان واجب ذوى السلطان وولاة أمور المسلمين وحكامهم ممن مكنهم الله فى الأرض عظيما ومسئوليتهم عند الله خطيرة . فإن واجب العلماء أعظم ومسئوليتهم أخطر . لأن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق أن يبينوا للناس دين الله فى غير مداهنة ، وأن يعلموهم شرائعه كما أنزلها بعيدة عن الإفراط والتفريط ، وأن يكونوا فى سمتهم وسلوكهم قدوة فى أخذ أنفسهم بالعمل بما يقولون من حق وهدى قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)(١) قال الحسن : وقتادة هى فى كل من أوتى علم شىء من الكتاب ، فمن علم شيئاً فيعلمه ، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة .

وقال تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)(٢) وقال جل شأنه (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون)(٣) وقال عز اسمه فى النعى على علماء اليهود وأحبارهم مسجلا عليهم الإثم بتركهم نهى العامة عن المنكر (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) (٤) ويجرى مجرى هذه الآية فى مقام أعم وأشمل قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم)(٥) والمعنى أننا أهلكنا من كان قبلكم بصب العذاب عليهم واستأصلنا شأفتهم

---

(١) سورة آل عمران آية (١٧٨)
(٢) سورة البقرة اية (٤٤)
(٣) سورة الاعراف اية (١٦٥) .
(٤) المائدة اية (٦٣)
(٥) سورة هود اية (١١٦) ،

لأنهم فقدوا من ينهاهم عن الفساد إلا قليلا كانوا يقومون بهذا الواجب الاجتماعى فأنجيناهم .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

مظهر للتكافل الاجتماعى فى الإسلام

وللشريعة الإسلامية مسلك عجيب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذلك أنها أقامته مظهراً للتكافل الاجتماعى الذى تخاطب به الأمة كلها خطاب تكليف فاذا قام به أهل الكفاية منها كانت لها خلافة الله فى الأرض وكانت أعز أمة أخرجت للناس ، وإذا أهملته وقصرت فى القيام به فقد حقت عليها كلمة الله ، وقد قص الله علينا فى كتابه الكريم نبأ قوم أقروا المنكر فيما بينهم فلم يتناهوا عنه فلعنهم الله وغضب عليهم وأحل بهم نقمته وبأسه . قال تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) [٥] . وفى حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى تفسير هذه الآية (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يَدَىْ الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم) وعند الترمذى من حديث حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم) وأخرج الإمام أحمد من طريق عدى ابن عميرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا

---

(٥) المائدة اية (٧٩) .

المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » وتصديق ذلك من القرآن الكريم فى قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال ابن عباس فى تفسيرها : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب . وفى صحيح البخارى عن النعمان أن بشير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فان يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) .

قال العلماء : فى هذا الحديث استحقاق الأمة كلها العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والفتنة إذا وقعت هلك الجميع ، وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير من القادرين .

النموذج الثانى

يقول الله تعالى فى آخر سورة فصلت : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق[1] » .

وسورة فصلت هى السورة الثانيــة من الحواميم السبع والحادية والأربعون من سور القرآن فى ترتيب المصحف الإمام ، والناظر فى هذه السورة بعين التأمل يرى أنها سورة كونية فى أغلب آياتها ، فهى قد بدأت بأن القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ، ووصف الرحمة المستمدة من هذين الاسمين الكريمين فى مفتتح السورة فيه إشعار إلى أن ماجاء فى هذا الكتاب

(١) سورة فصلت آية (٥٣) .

المبين عامة وفى هذه السورة خاصة من وعد ووعيد ، وترغيب وتهديد ، وتوجيه نظر إلى دلائل القدرة الإلهية فى آيات الكون الافاقية والأنفسية إنما هو رحمة من الله تعالى بعباده يدعوهم بها لينقذهم من الضلالة ، ويرفعهم عن حضيض الجهالة .

ثم بينت السورة أن هذا القرآن فصلت آياته بأسلوب عربي مبين، يبشر وينذر وتتحدث عن فريق من الناس صموا آذانهم عن سماع الحق ، وأغلقوا دون قلوبهم أبواب الهداية عناداً واستكبارا وظلوا فى طغيانهم يعمهون ، فلم تتألفهم البشارة ، ولم يردعهم الإنذار ، وتخاطبهم الآيات بأسلوب تعجيبي إنكاري يوجه العقل إلى النظر فى الآيات الأرضية أولا لأنها أقرب إلى حسهم وشعورهم ثم إلى الآيات السماوية ثانياً لظهورها لأبصارهم وحاجتها إلى التأمل الصادق ببصائرهم « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم »(١) .

وليست الأيام المذكورة هنا فى الآية هى أيام حياتنا التى نحياها ، ولكنها تقدير إلهى يقرب به إلى العقول تصوير تسخير القوى الكونية للقدرة الإلهية القاهرة بما تأنس به وتألفه فى متعارفها .

أخرج أبو عبيد عن طريق ابن أبى مليكة قال : سأل رجل ابن عباس عن (يوم كان مقداره ألف سنة) فقال له ابن عباس : فما (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فقال الرجل إنما سألتك لتحدثنى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه الله أعلم بهما .

---

(١) سورة فصلت آيات (٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢)

وإذا لم يبق لهؤلاء الطغاة المعاندين بعد النظر حجة أو عذر جاءهم الوعيد يجلجل بالتهديد « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »[١] فى تفصيل مرعب مخيف لقصة ما حل بالسالفين المتمردين، والعرب كانوا أقوم الناس بفهم القرآن وأعرفهم بمراميه وحقائقه لأنه بلغتهم ومجارى كلامهم نزل، ولأمر ما اختار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة ليرد بها على محاوره عتبة بن ربيعة رسول قريش إليه، فكان لها أثرها العميق فى نفس عتبة، وقد ينقدح فى تفكير بعض الناظرين أنها اختيرت لهذا الموقف لكثرة ما فيها من الآيات الكونية التى إذا أعطيت حقها من النظر الصادق كانت أفعل فى نفوس سامعيها، ولما فيها من قصص المعاندين من الخوالى وما حل بهم من أليم العذاب فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

روى أصحاب السيرة النبوية أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ، ثم أتانا ببيان عن أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى على ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا وتضللنا؟فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن تريد الزواج زوجناك عشر نسوة ، أى بنات من شئت من قريش، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به حتى تكون أكثرنا مالا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ عتبة قال له النبى صلى الله عليه وسلم : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ فقال : نعم ، قال : فاسمع منى ، قال :

---

(١) فصلت آية (١٣) .

يا ابن أخى قل أسمع، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، «حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » حتى بلغ قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فوثب عتبة ووضع يده على فم النبى صلى الله عليه وسلم ، وناشده الرحم ليسكتن . ورجع إلى بيته ولم يخرج منه إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : صبأ عتبة ، فانطلقوا إليه ، وقالوا له : ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فقال لهم ، لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، فلما بلغ مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته الرحم . ولقد علمتم أن محمداً لا يكذب ، إذا قال شيئاً وقع كما قال ، نخفت أن ينزل بكم العذاب .

ثم تابعت السورة هذا التهديد الدنيوى بتهديد أخروى ، فصلت فيه بعض ما يحيق بالمعاندين الظالمين يوم القيامة من الفضوح وكشف الأستار بشهادة أعضائهم وحواسهم وأردفت السورة ذلك كله — جرياً على سنة القرآن فى تعقيب الوعيد بالوعد — بذكر ما أعده الله لأهل الاستقامة من ضروب الكرامة فى دار النعيم ، عادت إلى تتميم ما بدأت من ذكر الآيات الكونية فى لون آخر « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن » [1] (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة-أى مقفرة يابسة- فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)[2] أى انبعثت فيها الحياة بعد موتها ، ثم التفتت إلى الملحدين فى آيات الله بتحريفها عن مواضعها أو بإهمال النظر فيها وتعطيلها ، بأن الله عليم بهم لا يخفى عليه مكانهم « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا) [3] ثم

(١) فصلت آية ٣٧ (٢) فصلت آية ٣٩.
(٣) فصلت آية ٤٠

ثم ختمت ذلك بقانون عام يقوم على أساسه نظام الحياة فى الجزاء والعمل « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »[1] .

ثم عرضت السورة نموذجا للانسان فى أثرته وحبه لذاته ، وبطره بالنعمة، ويأسه عند حلول النقمة، فان وجد عنده قوة تكبر وطغى، وإن ضعف ذل وتصاغر، وهو فى حاليه معرض عن الحق إعراض سفه وجهالة «لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط »[2] « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض »[3] ومن هنا خوطب الإنسان فى نماذجه الضالة بقوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد»[4] قال الإمام الرازى فى تفسيره : وتقرير هذا الكلام أنكم أيها المخاطبون المعاندون — كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه ، ولم تنظروا فيه ، وبالغتم فى النفرة عنه، حتى قلتم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر . ومن المعلوم بداهة أن العلم بكون القرآن باطلا — كما زعمتم — ليس علما بديهيا ، فقبل ذكر الدليل والتأمل فيه يحتمل أن يكون صحيحا وبتقدير ذلك يكون إصراركم على دفعه وعدم قبوله من أعظم موجبات العقاب لأن العقل يوجب النظر فى الدليل لمعرفة الحق .

نماذج للعقل المستنير

ولما استكملت السورة وجوه الدلائل القاطعة فى السماوات والأرضين على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته وظهر أن هؤلاء المعاندين كانوا نماذج للفطرة الفاسدة والجهالة الجاهلة وأنهم لم يستفيدوا من كتاب الكون

---

(١) فصلت آية ٤٦ .
(٢) فصلت آية ٤٩
(٣) فصلت آية ٥١
(٤) فصلت آية ٥٢ .

الذى عرضه عليهم القرآن نبهت السورة فى خاتمتها أن الله تعالى سيجعل من سلائل الإنسانية نماذج أخرى يضيء عقولهم فيكشف لهم بها عن آياته فى آفاق الحياة وجوانبها العلوية والسفلية، وفى أنفسهم وما انطوت عليه بنيتهم من أسرار التركيب وبديع الخلق، وذلك هو قول الله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (١) والمراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والظلمات وآيات عالم العناصر، وآيات المواليد وقد أكثر الله من ذكرها فى القرآن، والمراد بآيات الأنفس ما فيها من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، قال الرازى: والعجائب التى أودعها الله هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلع عباده على تلك العجائب زمانا فزمانا وحالا بعد حال.

وهذا كلام صريح فى فهم علماء الإسلام من آيات القرآن الحكيم أن الله أودع فى مخلوقاته العلوية والسفلية أسراراً وعجائب، كشف العقل البشرى عن بعضها بقدر ما كان لديه من وسائل علمية، وأدوات تجريبية، ويبقى كثير منها محجباً فى ضمير الغيب، ولكن الله تعالى وعد بالكشف عنها عن طريق هذا العقل كلما استقامت له وسائل علمية جديدة، وهذه العجائب والآيات الموعود بالكشف عنها فى مستقبل زمن الخطاب المباشر بالقرآن يجب أن تكون غير الآيات المشهورة لأولئك المخاطبين كالليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم والسماء والأرض، فهى إما خصائص فى هذه الآيات المشهورة، لم تصل إليها عقول الماضين أو آيات فى عوالم أخرى يخلقها الله ويكشف عنها العلم.

نتائج العقول السليمة لا تصادم القرآن

فإذا حاول العقل الإنسانى القيام بمهمته فى تبيين عجائب آيات الله، وحاول

(١) فصلت اية ٥٣.

أن يكشف عن أسرار هذه الكائنات بوسائله العلمية وآلاته التجريبية كان محققاً لوعد الله تعالى فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » حتى يظهر للعقلاء أن القرآن حق من عند الله وأن الرسول الأمى الذى نزل عليه صادق مؤيد من الله الذى أرسله رحمة للعالمين ، وإذا وصل العقل فى محاولته إلى حقيقة من الحقائق الكونية الصادقة فلا يمكن أن يصادم شيئاً من نصوص القرآن الحكيم الذى وكل إليه البحث عن هذه الآيات ، وناط ببحثه الكشف عن أسرارها ، وحينئذ يكون كشفه لشىء منها تفسيراً لقوله تعالى فى سورة النحل « ويخلق ما لا تعلمون » . وعلماء الإسلام منذ صدره الأول فقهوا عن الله ما رمز إليه من جلال ملكه وعظمة ملكوته ، وذكروا فى تفسير آية النحل عجائب لو ذكرت قبل أن يبلغ العقل البشرى رشده ، ويكشف عن آثار غوصه فى آيات الله لقال عنها الجاهلون - كما قال أسلافهم - إنها أساطير الأولين .

بل أن علماء الإسلام منذ عصر الصحابة والتابعين فهموا أن هذا الكوكب الأرضى الذى نعيش فيه ما هو إلا واحد من سبعة كواكب أرضية كلها معمورة بخلق من خلق الله تعالى . يقول الألوسى فى تفسير قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال الجمهور مثلية الأرض هنا فى كونها طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق الله عز وجل ، لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى . قال العلماء : وهذا تأويل ما ورد فى صحيح البخارى من قول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه (اللهم رب السموات السبع ، وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن) .

ثم قال رحمه الله . وحيث كان من أصولنا - نحن المسلمين - أنه متى عارض الدليل العقلى ، أو الواقع القطعى القائم على التجربة والمشاهدة التى

لا تحتمل الشك ، الدليل السمعى ، وجب تأويل الدليل السمعى ، لأجل مطابقة الدليل العقلى فى مقتضاه ، لأن الدليل العقلى أصل الدليل السمعى » ولو أبطل الدليل العقلى بالدليل السمعى لزم بطلان الدليل السمعى نفسه ، وباب التأويل أوسع من فلك الثوابت ، ولا أرى بأسا فى ارتكاب تأويل بعض ظواهر النصوص المستبعدة بما لا يستبعد ، وإن لم يصل الاستبعاد بالمعنى الذى دل عليه ظاهر النص إلى حد الامتناع ، إذا تضمن ذلك مصلحة دينية ، ولم يستلزم مصادرة معلوم من الدين بالضرورة ، وقد يستلزم الإبقاء على الظاهر ، وتفويض الأمر إلى قدرة الله تعالى التى لا يتعاصاها شىء ، رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر الذين يعدون الخروج عنها لا سيما إلى ما يوافق الحكمة الجديدة (العلم الحديث) ضلالا محضا ، وكفراً صرفا ، وبالجملة من صدق بسعة ملك الله تعالى ، وعظيم قدرته عز وجل ينبغى أن لا يتوقف فى وجود سبع أرضين على الوجه الذى قدمناه وليس فى ذلك ما يصادم ضرورياً من الدين ، أو يخالف قطعيا من أدلة المسلمين اه .
والحرص على صيانة عقائد العوام وعدم الإلقاء بهم فى لجج الحيرة بأسماعهم ما يتعاصى على عقولهم فهمه ، وعدم تعريضهم للفتنة فى عقائدهم السليمة هو الذى استهدفه حديث البخارى عن على كرم الله وجهه (حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله) ،

والناس فى عقولهم الفطرية المكتسبة درجات متفاوتون ، فمنهم الذكى العليم الذى يطلب الحق ويحرص على البحث عنه ، لأنه حق ، يرغب فيه لذاته ، ومنهم الجدلى المنحرف عن الجادة الذى لا يطلب حقا ، ولا يقصد إلى هدف ، ومنهم العامى الساذج الذى تحركه الرغبة والرهبة ، وتتملكه العواطف الفوارة ، حظه من العقل الفطرى حظ عامة الأحياء ، ولا حظ له فى عقل مكتسب .

وقد جعل الله تعالى لكل صنف من هؤلاء لوناً من الخطاب يليق به وذلك فى رأى حكماء العلماء هو تأويل قوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[١] فجعل الدعوة إلى سبيل الله ، وهو الحق والخير والبر والاحسان ، والعدل والرحمة ، على ثلاثة أوجه : الوجه الأول : الدعوة بالحكمة ، وهى خصيصة العلماء الراسخين الذين يلتمسون الحق للحق ، فالحق فى ذاته غايتهم وهدفهم .

الوجه الثانى : الدعوة بالموعظة الحسنة ، وهذه وسيلة العامة الذين يسكنون إلى الوعد طمعاً فى الجزاء ورغبة فى الثواب ، ويفيئون إلى الوعيد خوفاً من الآلام ورهبة من العقاب .

الوجه الثالث : المجادلة بالتى هى أحسن ، وهذه خصيصة العقول التى لا تقصد إلى شيء ولكنها تجادل للجدل فحسب ، وقد أوصى القرآن الحكيم بأن يكون الحديث والحوار مع هؤلاء تلطفاً معهم - بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأمثلها أدباً وعلماً ورحمة ، لتجذبهم إلى جانب الحق «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »[٢] .

القرآن كتاب هداية ومعجزة نبوة

فالقرآن دستور هداية موجّه يرسم للانسانية طرائق حياتها ويربى أفرادها وجماعاتها، وهو قانون يشرع لها أحكام الوقائع والأحداث لتحقيق كافة مصالحها التى تقع بين طرفى العدل والرحمة وكتاب مؤسس لعقيدتها ونظام تعبدها ، وقائد يسوسها بتعاليمه ، أنزله الله للهداية وإقامة دعائم العدل والرحمة والمحبة ، فاذا تحدث عن آيات الله فى الآفاق والأنفس ؛ فهو لا يقصد

(١) سورة النحل آية (١٢٥) . (٢) سورة الاسراء آية (٩)

إلى تحقيق نظريات علمية قائمة على التحليل المادى أو الاختبار التجريبى ، أو قياس المسافات ومعرفة أقدار الاجرام عرضاً وطولا وسمكا ، أو تأليف العناصر وتحديد ماينشأ عن امتزاجها وتركيبها من مواد جديدة ، أو حساب درجة سير الكواكب ومقادير الفضاء بينها وما فى هذا الفضاء من مخلوقات جزئية إلى نحو ذلك من أبحاث علمية يقوم بها العلماء فى معاملهم ومدارسهم بوسائلهم الخاصة مما لا يمكن القطع بصحة جميع قضاياه ونظرياته ، ولا يمكن التشكيك فى آثاره المشهودة .

وإنما يقصد القرآن من ذكر آيات الله فى الكون وأسرار الوجود إلى إيقاظ العقول لتنهض بواجبها فى كشف الحقائق الكونية لتصل أولا وقبل كل شيء إلى معرفة الخالق العظيم وإلى معرفة عظمة ملكه وسعة سلطانه ، وصدق أنبيائه ورسله ، وتتحرر من التعبد للمخلوقين ، لتفرد الخالق بالتقديس ، وتستخدم هذه الكشوف التى تصل اليها فى انهاض الانسانية ونفعها وترقيتها فى مدارج الكمال البشرى حتى تحقق رسالتها فى الحياة .

ومن هنا نرى أنه لا ينبغى أبداً أن يعرض القرآن فى تفسير آياته الكريمة للهزات التجريبية فتحمل على نظريات العلم الحديث وكشوفه على أنها المعنى المراد من الآية فيقال : إن النظرية «كذا» أو اختراع كذا أو كشف كذا مذكور فى القرآن ، وإن القرآن أراده عينه فى آية من آياته كما يفعل بعض المتحمسين فى حسن نية وقصد برىء .

والذى يجب أن يقال أن القرآن الحكيم فى جميع ما تحدث عنه من تشريع وأدب وأخلاق وسياسة واجتماع وبرهنة على العقيدة وعرض لجمال الكون وآياته الباهرة لا يمكن على مدى الدهور والأزمان مهما اتسعت دائرة العلم والاختراع واستبحرت الحضارات المستقيمة أن تصادم آياته الكريمة علماً مقطوعاً بحقيقته . ولا كشفاً عرفت مباديه ونهاياته ،

وسائر ظروفه التى أحاطت بوجوده ، ضرورة أن القران دستور شريعة إلهية عامة خالدة ، خاتمة للشرائع السماوية فهو حق من عند الله ، والحق لا يضاد الحق ، فإن جاءت هـذه المصادمة عمدنا إلى قانون التأويل العربى الصحيح على ما سبق فى كلام الألوسى. ويقول الحكيم ابن رشد: (وإذ كانت هذه الشريعة الإسلامية حقاً وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق فانا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له ، ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى اليه البرهان القطعى وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى وهذه القضية لا يشك فيها مسلم) .

وفى هـــذا الإطار عرض بعض العلماء والمفسرين لتفسير الايات الكونية من آيات القران الحكيم ، فقد رأى هـذا البعض فى تلك الايات مجالا للاحتمال ، فأشار إلى سعة دائرة المعنى فيها ، وأنها قد تقبل التفسير فى إطار بعض النظريات العلمية ، ولكنهم لم يقولوا أبداً إن هذه النظريات هى المعنى المراد من الاية ، واتساع دائرة المعنى فى آيات القران لون من ألوان إعجازه الذى يعنون خلوده وعموم رسالته .

والعقل الانسانى ـ فى نظر علماء الاسلام ـ هو صاحب السلطان الأول فى الكشف عن حقيقة معنى آيات الله الكونية فى الأنفس والافاق فى حدود طاقته ، والقران العظيم موجه للعقل ومرشد ، يأخذ بيده إلى أول الطريق ، ويدفعه دفعاً إلى النظر والبحث ، وعلى هذا السنن سلك علماء الإسلام فى حياتهم العلمية الرائعة الغامرة ، يوم أن كانت الأمة الإسلامية حرة موحدة قوية ، تملى على الحياة إرادتها ، وترفع فوق الافاق رايتها ، والعلم لا يعيش إلا فى مجال الحرية ، وفى ظل هـذه الحرية الفكرية نهض علماء الاسلام ، فلم يقفوا دون علم من العلوم إلا اقتحموا لجته ، ولا فن

من فنون المعرفة إلا خاضوا بحره بشغف بالغ وحب للعلم وتقديس للعقل بأسلوب واقعى ، يجمع بين نظر العقل والمشاهدة دون أن يفتحوا على عقولهم وقلوبهم أبواب التأويل المحرف لحقائق المعانى القرآنية ، فآتاهم الله من فضله ما بلغوا به ذروة الفضل فى العلوم والمعارف فى حدود طاقاتهم ، وحدود ما كان لديهم من وسائل التفكير والتدوين ، فجزاهم الله عن كتابه ودينه خير ما يجزى به المجاهدين المخلصين ، وسلك بنا طريقهم فى الجهاد والاخلاص ، وفتح لنا عيون منابع التفقه فى دينه والتفكير فى كتابه القرآن العظيم .

ونختتم الحديث ما ألهم الله من محامد فى مبتدئه ، فاللهم لك الحمد بجميع المحامد ، ولك الحمد حمداً يوافى نعمك ويكافىء مزيدك ، ولك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، ولك الحمد كما حمدت نفسك ، ولك الحمد كما أنت أهله ، واللهم إنى أسألك بعز ربوبيتك أن تطرحنى بين يديك على أبواب ذل عبوديتى لك وحدك ، وأن تغنينى بالافتقار إليك عن الحاجة إلى أحد من خلقك ، وأن تصلى وتسلم على سيدنا ومولانا حبيبك ومجتباك سيد الأولين والاخرين محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وآله وأصحابه وأهل وده من أوليائك المخلصين ؟

فهرست الكتاب

تصحيح

وقعت هفوات مطبعية ننبه عليها هنا ، والله ولى التوفيق .

فى ص ١٧ سطر ١٨ : بقية الآية وهى : وعملوا الصالحات

فى ص ٣٥ سطر ١٩ «فيها» وصحتها «فبها»

فى ص ١٠ سطر ١١ «لون» وصحتها «لونا»

فى ص ١٠٧ سطر ١٦ «وهذه» وصحتها «وهذا»

وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

